العدد الاول
كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩
السنة السابعة

No. 1 Jan. 1959
7ème année

الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت
ص.ب ٤١٢٣ — تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس
Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

مؤتمرنا كرابع

عقد مؤتمر الادباء العرب دورته الرابعة في الكويت بين ٢٠ و ٢٨ ديسمبر الماضي، وشهد حشدا من الادباء والناشرين والصحفيين لم يشهده في اية دورة من دوراته السابقة.

ولنا على انعقاد المؤتمر ملاحظتان :

الاولى ان الصراع السياسي القائم بين بعض الدول العربية قد تجلى في المؤتمر بشكل لم يكن ينتظر ان يفسح له الادباء المجال . نحن نؤمن بان الادب ليس له ان ينفصل عن السياسة في هذه المرحلة من التاريخ العربي، ولكننا لا نحب له ان ينحدر الى المهاترة والاستفزاز والتبذل. انه ينبغي له ان يظل على الصعيد التوجيهي العام ، فلا ينساق مع العواطف ، ولا يتصدى لان يكون حكما بين رجال السياسة الذين قد يختلفون اليوم ويتفقون غدا . فليس الادب في خدمة الدولة بقدر ما هو في توجيهها ومراقبتها ونقدها . وقد كان من المفروض بعد ذلك الا نقع هذه الجفوة بين بعض الوفود : فاذا لم يجد الادباء صعيدا يتناقشون حوله ويتفاهمون على اساس من العقل والفكر والمنطق ، فمن هم الذين يجدون مثل هذا الصعيد ؟ لقد كان احدنا يضيق صدرا بما يفكر به الاخر ، فينفر منه ويبتعد عنه ، حتى بتنا نعتقد انه ليس ثمة قاسم مشترك نستوحي منه ، نحن الادباء ، تفكيرنا ومسلكنا .. وذلك مردود من غير شك الى اننا اتخذنا للسياسة ، في هذا المؤتمر ، مفهوما ضيقا جدا يعطل على الاديب ملكة الاختيار والنقد والتوجيه، لانه كان مفهوم التبعية والانحياز والتعصب .

أتكون هذه الظاهرة هي التي زهدت بعض الحكومات في دعوة المؤتمر الى الانعقاد مرة اخرى ، فانفض المؤتمرون من غير ان يعرفوا هذه المرة اين تنعقد الدورة الخامسة؟

واما الملاحظة الاخرى ، فتدور حول التساؤل عن نتائج المؤتمر: الام افضى ، وما هي النتائج العملية التي خرج بها ؟

لقد كان مقدرا لهذا المؤتمر ان يفضي الى توصيات اكثر قابلية للتنفيذ والتحقيق من توصيات المؤتمر السابقة ، لانه اتخذ له في صميم اعماله بحث قضايا الكتاب العربي ، وعهد في ذلك الى لجان خاصة لم يكن لها من عمل الا هذا العمل . ولقد اتخذت هذه اللجان توصيات هامة حول النشر والتوزيع وبعث التراث وحفظ حقوق المؤلفين وانشاء مجلة كبرى والعناية بالترجمة .. ولكن جميع هذه اللجان كانت تصطدم بعقبة هامة تتعلق بتنفيذ توصياتها ، هي الصعوبة المادية ، ولم تكن تجد حلا لهذه المشكلة الا بالقائها على عاتق الجامعة العربية وبحث الجامعة على ان نطالب الدول العربية برصد ميزانيات خاصة لتنفيذ هذه التوصيات . وهكذا افضى المؤتمر الى ما افضت اليه المؤتمرات السابقة التي ظلت توصياتها جميعا حبرا على ورق!..

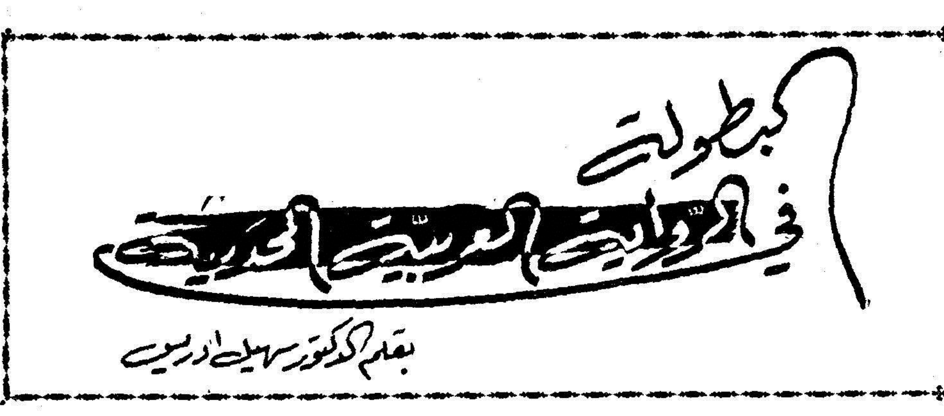
فاذا كانت توصيات هذه الدورة ستبقى بلا تنفيذ ، فليس امامنا الا اقتراح واحد : هو ان يلغى الادباء مؤتمرهم هذا ، فهم ليسوا بحاجة الى عقده من اجل الاستماع الى محاضرات بوسعهم ان يقرأوها في الصحف والمجلات متى ما ارادوا ..

وحبذا لو فكرت الحكومات التي دعت الى عقد الدورات الاربع الماضية ، والتي قد تدعو الى عقد دورات قادمة ، بان ترصد النفقات التي يتطلبها عقد المؤتمر ... لتنفيذ التوصيات التي اتخذت منذ الدورة الاولى ، والتي ستتخذ الى الابد ، من غير زيادة او تبديل !

الغوا المؤتمر وخصصوا نفقاته لتحقيق توصياته !..

« الآداب »





اذا اردنا ان نبحث في روايتنا العربية الحديثة عن خصائص البطولة كما كان يصورها ادبنا العربي القديم ، فاننا سوف نفتقدها لا محالة ، في معظم انتاجنا القصصي المعاصر .

والحق ان مفهوم البطولة قد تغير اليوم ، واتخذ معنى ومضمونا جديدين في اذهان المؤلفين الروائيين . فليست البطولة بعد تصويرا لاعمال الفروسية والشجاعة الخارقة ، وتمجيدا للاخلاق المثالية والمناقب الرفيعة والمزايا الاستثنائية التي تفرد بها عدد من الاشخاص اختصتهم الطبيعة بما لم تختص به سواهم من البشر ، فبرزوا وجوها رائعة عجيبة تثير الدهشة وتبعث على التقديس . اجل لقد صور ادبنا القديم كله البطل على انه فرد فائق يتجاوز الناس في صفاته ويسلك في مواجهة الاحداث مسلكا مثاليا ويأتي من الاعمال ما يعجز عنه سائر البشر ، ويتنزه عن كثير مما يميز الناس من نقص انساني ، او من ضعف بشري .

اما ادبنا الحديث ، وروايتنا المعاصرة بالذات ، فقد كفت عن تصوير هذه البطولات لايمانها بانها بطولات استثنائية شاذة لا قيمة حقيقية لها في تطوير الانسانية او في اضافة كسب جديد لها .. ان الرواية العربية الحديثة قد انتقلت من ذلك الطور الى طور تصوير الانسان العادي ، الانسان الانسان ، هذا الذي تكمن بطولته في ان يكون انسانا حقا ، لا انسانا فائقا .

فليس من مجال بعد للموضوعات التقليدية المتعلقة بالعواطف البطولية ، والوقائع الخارقة . ونستطيع من هنا ان نقول ان انتاجنا الروائي الحديث قد امات البطولة بمفهومها التقليدي ، ليحيي بطولة اخرى هي بطولة الانسان الطبيعي الذي يعيش الحياة الطبيعية بكل ابعادها ، وكم هو مدعو الى ان يواجه مواقف تبرز عندها بطولته الحقيقية التي حسبها انها تخلق له الصراع النفسي الداخلي. ان بطلنا الان ، هو الذي يضطلع بمهمته ويتحمل مسؤوليته في الحياة ، مستبعدا كل مثالية فارغة ، نافيا كل تجريد ميتافيزيقي، مواجها وضعه بكل معطياته، شاعرا بثقله على الارض مؤمنا في الوقت نفسه بان عليه ان يصارع ويناضل حتى لا يرديه هذا الثقل في الحطة والضعة .

والحق ان الروائي الحديث يجد نفسه الان امام كائن شديد الغنى ، لكل نزعة من نزعاته قيمة، ولا يمكن ان يطرح منه جانب، ويؤخذ آخر . فالواقع اننا لا يمكن ان نعرف البطولة اذا لم نعرف من اي جبن هي منبثقة .. ولهذا نرانا نعجب بالانسان الذي يظهر الخوف والتردد امام الخطر اكثر من اعجابنا بالانسان الذي يقتحم الخطر دون ما تراجع او خوف . فليس الخوف منافيا للشجاعة بالضرورة ، ولسنا نخشى الشر او القبح او الانانية لاننا نؤمن بانها يمكن ان تصبح خيرا وجمالا وحبا وايثارا . ان الانسان لا يولد نبيلا او وضيعا وانما هي الحياة التي تجعل من الناس ارستوقراطيين او بورجوازيين او من عامة الشعب ، والانسان هو الذي يخلق نفسه ويطورها ويرتفع بها او يذلها . انه كائن شديد التعقيد ، ولا يخلو عنصر من عناصره من القيمة . ولهذا كانت خير الروايات ما يصور الكائن بكليته ، بمختلف عواطفه المتناقضة وذبذباته المتنوعة . وان احدنا ليبتسم حين يقرأ انتاج اولئك الذين بدأوا كتابة القصة العربية منذ نصف قرن ، فيرى ان احدهم لم يكن يطيق ان يجعل من الانسان مصطرعا لارفع الافكار واحطها ، وانبل العواطف واذلها . كان انسانهم مقدودا من معدن واحد . فهو اما ان يكون شريفا منذ البدء حتى النهاية، او ساقطا منذ البدء حتى النهاية . ولذلك كان الابطال في الماضي قليلين نادرين ، شاذين ، أما اليوم ، فكثيرون هم الابطال ، وقد يكون جميع الناس ابطالا . لانه لا مجال بعد للمثالية . ولان الواقعية هي حظ الناس جميعا ، وقدرهم .

لقد كان ادبنا الكلاسيكي يصور البشر على غير حقيقتهم اذ يتجاوز بهم اوضاعهم البشرية ويرفعهم الى رتبة المثال ، فينظر اليهم الناس من بعيد معجبين مشدوهين ، ويداخلهم اليأس من ان يصبحوا مثلهم ابطالا ، اما اليوم ، فليس هناك بطل منعزلا عن وضعه ، عن مجتمعه ، عن شعبه ، وليس هناك من عمل الا وله هدفه الانساني ، وله صداه في موطنه . ولن يستطيع هذا البطل ان يكسب حبنا واعجابنا الا اذا كان معدنه من معدننا، وتعرض لمثل ما نتعرض له من ضعف واقترف مثل ما نقترفه من اخطاء وآثام ، ورزح تحت ثقل افعاله . ولسوف نحبه اشد الحب اذا رأيناه بعد ذلك يحاول ان ينهض ، وان يتطهر ، وان يكفر .. لاننا ندرك بذلك انه يمثلنا حقا ويجسدنا صدقا ويشق امامنا طريقا ممكنا للتطهر والتكفير.

ومع ذلك، فقد عرفت روايتنا الحديثة، في فترة انبثاقها منذ نصف قرن تقريبا ، مثل هؤلاء الابطال المختارين من خارج الحياة الحقيقية على ايدي سليم البستاني وجميل المدور وفرح انطون وحافظ الدمنهوري وحتى المنفلوطي . فان معظم هؤلاء الابطال ذوو اخلاقية مصطنعة مزيفة مستمدة من اذهان خالقيهم . فليس في اشخاص المنفلوطي فقير الا وهو شريف نبيل بطل، وليس فيهم غني الا وهو منحط سافل دنيء ، وليس فيهم تقي الا وهو عظيم قدوة ..

وعلى ما كانت تهدف اليه الرواية التاريخية من تمجيد للماضي وحث

على استعادة المجد، كانت آثارها الحديثة التي وضعها جرجي زيدان ومعروف الارناؤوط ، ومحمد فريد ابو حديد وكرم ملحم كرم وسواهم تكشف لنا عن ذلك المفهوم المغلوط للبطولة والبطل ، اذ ترفع الوجوه التاريخية من مصاف البشر لتخلق لهم منزلة خاصة تمتنع فيها عليهم النقائص البشرية ويتبدون كائنات خارقة لا يجود الدهر بمثلها الا نادرا .

وبعد ، فان انسان روايتنا الحديثة ، وبطلها في ان واحد ، هو كائن يبحث عن ذاته الحقيقية عبر تجارب كثيرة ، يبدو فيها تائها قلقا غير مستقر ، يسافر طويلا في الماضي ويشطح الى المستقبل ، ويبلو كثيرا من النساء ، ويأثم ويخون ويتعثر ، ويحب الحب العاطفي والحب الشهواني ويخيب فيهما كليهما ، ولكنه يبدأ من جديد ، ويحاول مرة اخرى .. واذا آمن مرة بالقيم ، كفر بها مرات ، واذا داعبته الاماني والاوهام ، فلا تلبث الخيبات ان تدمي قلبه ، فيكتشف في اعماق نفسه يأسا واسى ، ويستبد به قلق عميق يتخذه سبيلا للاجابة على اسئلة كثيرة تطرحها عليه الحياة التي عاشها : لماذا يعيش ، وكيف يجب ان يعيش ، واي امل ينتظره ، واي مصير يترصده ، وما هي المقاييس الاخلاقية التي يطبق عليها مسالكه ، وبمن يؤمن وما عساه يرسم له من هدف ؟ .... اسئلة كثيرة لا تنتهي ، ولا ينبغي ان تنتهي حتى لا تقتل في نفسه هذا القلق الذي به يشعر انه انسان ذو قيمة ، لان عليه ان يلتمس الجواب على هذه الاسئلة عبر حياته وتجاربه ، ولان هذه التجارب تحل محل الفلسفة الحياتية ، بل هي فلسفة حياته بعينها . فاذا اتيح لهذا الانسان البطل ان يتغلب على جميع هذه العوائق التي تقف دون ان يهتدي الى نفسه ، انصرف الى العمل في ميادين الحياة وكلها ميادين شريفة نبيلة لانها ذات هدف مرسوم واضح ، وكان كل همه ان يكون فردا صالحا في بناء مجتمعه ووطنه ، ومن ثم الانسانية جمعاء .

ان هذا البطل المعذب الذي يواجه الوان العنف والضغط ، والذي تدفعه قسوة الحياة الى ان يتذرع باليأس والحذر ، وان يطرح الحنان ، يستحق كل عطفنا وكل حبنا لانه قريب من نفوسنا ، بل هو من القرب بحيث نعرف فيه انفسنا احيانا خيرا مما نعرفها في ذواتنا . وانما نحن نحبه ونتابع مغامراته لانه اتخذ له مبدأ نبيلا لا بد ان يوصله الى نتائج ايجابية يهتدي بها الى ذاته ، ويعرف قدره وقدره ، هذا المبدأ هو الصراع .

اجل ، كانت البطولة الماضية ، كما تصورها الاثار الادبية ، هروبا من الحياة الى عالم الخيال واللا معقول والخارق ، اما اليوم فهي الاندماج بالحياة ، ومواجهة كل صعابها ، والتمرد على وقائعها ، والثورة ضد قوانينها ، ومحاولة التغلب على مآسيها وفواجعها . وغالبا ما يواجه البطل مجتمعه وهو مبتوت الجذور ، معزول ، غريب ، فاذا شرع في الصراع ، فمن اجل ان يصل جذوره بجذور مجتمعه ، والا استحال عليه ان ينسجم وبيئته ، وبالتالي انقطع ما بينه وبين الناس حوله .

* *

واذن ، فان عنوان بطل الرواية العربية الحديثة هو « الصراع » .وليس في وسعنا طبعا ان نجعل هذا الصراع عنوان مطلق انتاج روائي ، وانما نعني افضل هذا الانتاج واعمقه تمثلا . من اجل ذلك ، لن يكون في مكنتنا هنا ان نستعرض الا النماذج الكبرى في ادبنا الروائي ، مستقطبين فكرة الصراع حول ثلاثة موضوعات يمكن ان يندرج تحتها مختلف ممثلي البطولة بمفهومها الحديث .

والحق ان هذه الموضوعات الثلاثة انما فرضتها على ادبنا عامة ظروف الحياة التي عاش فيها الوطن العربي منذ اوائل القرن العشرين . فان قيام الاستعمار الاجنبي في ارضنا قد خلق في الشعب هذا الصراع الوطني الذي مثله عدد من الزعماء الوطنيين ، والذي تجسد في نماذج شعبية اتخذها الروائي ابطالا لقصته يمجدون الثورة ، ويحثون على التمرد لتحرير البلاد من ربقة هذا الاستعمار . ثم ان اتصال الشرق والغرب في هذا اللقاء المزدوج ، اما في اولهما او في الاخر ، اثار ضمير الشرقي (والعربي فيما يخص هذا المجال) حول قيمة هذا اللقاء ، فنشأ هذا الصراع بين الشرق المتفتح المستيقظ على نهضته ، وذلك الغرب المستعمر الذي يعجب ويخيف في آن واحد . وقد جسد هذا الصراع عدد من كبار روائيينا تجسيدا صادقا . ولم يكن للادباء ، بعد ذلك ، بد من ان يعيشوا وضع مجتمعهم المتخلف ومن ان يرصدوا محاولات الصراع العنيف الذي كان يقوم بين فئات واجيال وتقاليد ، ومن هنا كان تصوير هذا الصراع الاجتماعي من اهم موضوعات الرواية العربية الحديثة .

ولسنا نقصد بهذا التقسيم ان نقيم حواجز بين الوان الصراع الثلاثة ، فهي قد تجتمع كلها في اثر واحد ، وقد لا يفي اثر واحد بموضوع واحد منها ، وانما هي مقتضيات البحث وملاحظتنا غلبة نزعة منها على نزعة قد دفعتنا الى هذا التوزيع .

فأما الصراع الوطني ، فقد صوره عدد من روائيينا كان من اولهم القصاص العراقي محمود احمد السيد في روايته « جلال خالد » (١٩٢٨) وبطل الصراع شاب عراقي ينتمي الى ذلك الجيل المتحمس من المناضلين الذين خلقتهم الثورة العربية الكبرى ، ابان الحرب العالمية الاولى في

الاقطار العربية . ففي عام ١٩١٩ غادر « جلال » العراق الذي كان يحتله الانكليز ، وفي نيته ان يتجه الى الحجاز وطن الثورة العربية ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، فقضى حينا من الزمن في الهند حيث صادق بعض الشبان الهنود الذين كانوا يعملون هم الاخرين من اجل استقلال بلادهم. وقد ربطته صداقة حميمة بصحفي هندي ثائر اتاح له فرصة توسيع افاقه الفكرية والوقوف على القضايا الاجتماعية والسياسية . وما لبث جلال ان ادرك الظلم الاجتماعي الذي يعانيه الهنود ، فخرج مفهومه الوطني من اطاره الضيق الى مفهوم انساني واسع . وقد شهد يوما اشتباكا عنيفا بين البوليس والمضربين من العمال ، فذكر انه انما غادر بلاده لانه لم يكن يحتمل ان تحرم استقلالها ، وانه لم يشهد فيها يوما اي اضراب « لانه لم يكن هناك عمال ، وانما مع الاسف فلاحون فقراء جائعون ، ومع ذلك فهم مستسلمون » وقد اثر الصحفي الهندي ، وكان اشتراكيا متحمسا ، تاثيرا كبيرا في جلال الذي ادرك انه كان يؤمن بمفاهيم كثيرة مغلوطة لم تكن ضرورة عدم تحرر المراة العربية اقلها شانا . وقد ظل يواصل تثقفه ويستمع الى المحاضرات العديدة التي كان يلقيها اساتذة معروفون حتى بلغه نبأ ملاه حماسة وسعادة . وهو نبأ ثورة القبائل العراقية في الشمال عام ١٩٢٠ على الانكليز ، وكان يحترق شوقا لكي يعود الى بلاده حيث يشارك في الثورة . ولكن نبأين اخمدا حماسته وهو في طريق عودته : اخفاق الثورة العراقية ، واحتلال الفرنسيين لسوريا .واضطر الى الفرار، ولكن الى عالم الكتب في هذه المرة ، فعكف على قراءة جميع الكتاب

الاجتماعيين وتامل في حالة العرب المتاخرة ، فآمن بان تاخرهم مردود الى جهلهم والى الخلافات التي تقسمهم ، والى الرأسماليين الذين يستغلونهم، والى السياسيين الذين يخونونهم . وسرعان ما شعر بثقل المهمة الملقاة على عاتقه بأن يشن حربا لا هوادة فيها على جميع هذه الآفات .

ولا شك في ان هذا البطل يعكس نفسية جيل باكمله ، ويعطي المثل الرائع للبطل الايجابي الذي لا يني عن الصراع ، والذي يؤمن باستكمال الوعي في مختلف الميادين ، وبان البطولة الحقة تظل عاجزة اذا لم تستبصر بكل أبعاد الحياة . ولولا ضعف التقنية الروائية لكانت « جلال خالد » من ابرز رواياتنا الوطنية .

وهذا ما تداركته رواية القصاص اللبناني توفيق يوسف عواد « الرغيف » (١٩٣٩) وفيها يشترك شاب وفتاة بدور بطولة وطنية رائعة . اما الشاب سامي عاصم فينتمي الى تلك الطبقة المفكرة الواعية التي تلتمس في العمل القومي تبريرا لحياتها ولوضعها المعنوي ، عشية الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٩ . وقد كانت البلاد العربية تتجمع لتتحرر من النير العثماني وكانت السلطات تلاحق سامي، فالتجأ الى كوخ صغير في الجبل كانت توافيه اليه حبيبته زينة وتدلي اليه بأخبار الثورة . وكان سامي وهو في مخباه ينتظر فرصة مناسبة تمكنه من العمل ، بعد ان اعدم الاتراك عددا من رفاقه . غير أن هذا الجمود ما لبث ان ثقل على ضميره ، فزين له ان وضعه لا يخلو من جبن ونذاله . ولعله شاء ان يعزي نفسه من ذلك حين عمد الى قتل جندي تركي فر من الجيش . وقد ظل ينتظر حتى وشى به بعضهم فالقى الترك القبض عليه وساقوه الى السجن بانتظار محاكمته . واما زينة فانها في اثناء ذلك لم ترفض دعوة الحاكم التركي الذي كان يرغب فيها منذ زمن ، فاذا هي تدلف الى قصره ، وتظل ساعات الى جانبه تتأمله وهو يشرب ويثمل ، حتى اذا اقبل عليها يود اغتصابها انتزعت مسدسه وقتلته به . وفي هذه الاثناء اعلنت الثورة العربية في الحجاز ضد الاتراك واصابت المجاعة البلاد العربية التي جعلت تسعى وراء خبزها مثل سعيها وراء استقلالها . وما لبثت زينة ان انضمت الى فرقة من الثائرين الذين كانوا يقومون باعمال التخريب في لبنان ، كالوف الشبان في سائر البلاد العربية . وبلغها ان سامي لم يمت، خلافا لما كان قد اعلنه الاتراك ، وانما التحق بعد فراره من السجن بالمركز الرئيسي لحركة الثوار التي اصبح الآن احد قوادها . وقد ظل يقاتل ويقود الحملات ضد الترك حتى سقط في ميدان المعركة ، ولكن النصر كان قد كتب للمناضلين العرب . ولم تستطع زينة بعد اذ بلغها النبأ ان تمسك دمعة حين رأت الثوار العرب يدخلون منتصرين الى قريتها الصغيرة . ان سامي لم يكن الا احد هؤلاء الابطال الذين اضطلعوا بمهمتهم وقاموا بنصيبهم في صراع العرب من اجل استقلالهم ورغيف خبزهم .

وبطولة سامي في هذه الرواية ، بطولة انسانية لا تخرج من اطار الخصائص البشرية ، وهو يجمع في شخصه مختلف هموم الشاب العربي المؤمن بالقومية العربية ، على كونه يعتنق المسيحية . كما انه يحب ويعشق وان ظلت حساسيته مرتبطة بعاطفته القومية . ان حبه للبطلة متصل اشد الاتصال بفكرة الثورة ، فهو يغنيها ويغنني بها ، ويرتفع بذلك الى البطولة والتضحية . لنستمع مثلا الى هذا المقطع الرائع الذي يصف فيه

المؤلف نفسية سامي حين أقبل احد مواطنيه يحدثه عن زينة ، بعد اعلان الثـورة :

« فمال سامي الى محدثه ، واحس شعاعا يضيء في قلبه لاسم من يحب. وطفا هذا الشعاع ابتسامة على شفتيه ، فعاد ينظر الى السماء ، واخذت صفحات حياته تكر امامه.. زاوية صغيرة هنا بين ضلوعه ، قد تستوعب الصحراء والدنيا وامجادها ، وتبقى مع ذلك مستوحشة ، وشيء صغير قد يحطم كل ظلم على وجه الارض ، ويغيب الظالمين في اعماقها ، ويظل مع ذلك متململا غير راض . ساقية المسك ، ووجه زينه ... الثورة ، الثورة . لو تعلمين يا زينه ما اجملها ، ما اعظمها ، ما اروعها ، - « لو تعلم ماتفهها الآن ، كالماء بلا خبز ، كالخبز بلا ماء . »

ومثله البطلة التي تتحسس قضايا الحياة ، الى قضية حبها وثورتها فتشعر بالظلم الاجتماعي وفوارق الطبقات وتعلم ان ثورة شعبها لـن تقتصر على تحرير بلادها من الاستعمار التركي ، بل ستحررها ايضا من الآفات الاجتماعية .

على ان رواياتنا الحديثة لم تقتصر ، في مفهومها للبطولة الوطنية ، على النماذج الفردية التي قد تعبر تعبيرا ضيقا عن الشواغل القومية . فقد خلق بعض الروائيين ابطالا منفتحين يوحون بالتجسد في مئات الناس بل الوفهم وملايينهم بما يعبرون عنه من ايمان وعمل ونزوع . وان هذه البطولة الجماعية لانصع دليل على تغير مفهوم البطولة التي كانت مقصورة على افراد فائقين ليس بينهم وبين الاخرين قاسم مشترك . وهي تعبير واضح عن ان البطولة لا تكتسب معناها الحقيقي الا اذا كانت تحمل في ثناياها بذور العدوى ، وتدفع الى المشاركة والاسهام . فان البطل ليس بطلا حقا الا بما هو مثال يتكرر وانموذج يتعدد ، حتى يصبح الشعب الذي ينتمي اليه بطلا كله .

ولعل خير رواية تجسد هذا المفهوم للبطولة هي « عودة الروح » (١٩٣٣) لتوفيق الحكيم ، ويدور موضوعها حول بعث مصر الجديدة ، الحدث الرئيسي في حياة المصريين بالعصر الحديث : كفاحهم من اجل الحرية . انها قصة الاسرة المصرية كلها التي ترمز الى شعب يستيقظ لحياة جديدة يريدها كريمة مجيدة كالسابق ، ويمثل هذه الارادة خمسة اقرباء نراهم في اول الرواية ، مقبوضا عليهم في مستشفى عسكري يصرون على ان يقضوا فيه فترة المرض جنبا الى جنب . فاذا تابعنا القراءة ، الفيناهم يحبون فتاة واحدة يحاول كل منهم ان يكسبها اليه ويستأثر بها . ولكنها تفلت منهم جميعا وتشعرهم باخفاقهم في الحب، فاذا بهم يقعون في اليأس ، ويتباعدون .. ولا يردهم الى الالفة الا غضبة الشعب المصري وثورته ضد ابعاد زعيمه سعد زغلول ، فاذا هم يشاركون في الثورة جميعا ، مسوقين بدافع واحد ، متضامنين متماسكين، مستعيدين صداقتهم التي احبوها وارتدوا من حبها خائبين . لقد شعر اعضاء الاسرة ، بعد ان وحد الالم بينهم ، انهم مستعدون للتضحية حين ظهر سعد زغلول الذي جسد كل آمالهم . وهكذا تمت المعجزة الجماعية البطولية . لقد ثار الشعب كله على المحتل . جميع طلاب المدارس كلها ، وجميع اعضاء الطبقات كلها في الامة كانوا يتحدثون بلسان واحد . كل منهم كان يحسب انه هو الذي بدأ الحركة ، لانهم جميعا انتفضوا في وقت واحد مدفوعين بروحهم التي عادت اليهم . فكلهم يشعرون بان الايمان يوحد بينهم ، ويدركون ويحسون بغرائزهم ان اجدادهم كانوا يبكون كل ميت من امواتهم بقولهم « عندما يصبح الزمن ابدية ، سنراك من جديد ، لانك ذاهب الى حيث الكل في واحد » .

والواقع ان « محسن » - البطل الرئيسي للرواية - هو نموذج لجميع تلك الشبيبة الحائرة القلقة التي تتلمس طريقها في الحياة عبر قيودها الكثيرة . انه ينتمي الى اسرة بورجوازية لا تملك حس القيم الصحيحة ، اما هو فكان يملك روحا تبغض الثروة والترف ، فهناك « ارواح تعذبهم الثروة » وان محسن ليحس الضيق والالم من كونه غنيا ، فكم من مرة صرخ وبكى وكافح ضد ذويه لانه لم يكن يريد ان يرتدي ثيابا جديدة .. وكم من ابتهالات ودموع بالا يرسلوا اليه السيارة تنتظره على باب المدرسة . انه لم يكن يرجو الا شيئا واحدا ، ان يكون كهؤلاء الفقراء من رفاقه ولم يكن شيء ليثير خجله مثل تميزه عن رفاقه بالثياب او دلالة الثروة .. وحين اضطر يوما الى ان يستقل سيارة ذويه ، بحضور رفاقه ، حسب انه يسمع صدى حكمهم عليه : « لقد خرج محسن من عصبتنا الى الابد » وحين عاد الى بيت ذويه في الريف لقضاء العطلة، خيل اليه ان شيئا غامضا يحفر بينه وبينهم هوة ، وانه مهما يفعل ، فسيظل يشعر تجاههم بضيق شديد لا سبيل الى نفسيره ، ولم يكن يريد الا ان يثور على نوع الحياة الذي يسوقونه .

وهكذا يصبح محسن ، الى كونه بطلا قوميا ، بطل حرية اجتماعية تهزأ ببورجوازية مترفة تمنع الثروة فيها الرجل من ان يبحث عن معنى حياته . انه يمثل الرجل الثائر على مجتمعه في وقت يبلـغ صراع

- التتمة على الصفحة ٩٧ -

ثلاث بطاقات من آسيا

من آسيا ..
عليكِ يا صديقتي السلامْ
فبعد عينيكِ أنا لا أعرفُ السلامْ
قطعتُ في تشرّدي الطويلْ
يا قمَري
يا أرنبي الجميلْ
يا رغوةَ الحليب والرخامْ
قطعتُ الفَ عامْ
بدون عينيكِ .. بلا خبزٍ .. بلا طعامْ ..
تصوّري ، أني بلا عينيكِ .. الفَ عامْ ..
بدون مصباحينِ أخضرينْ ..
بدون شمعتينْ ..
بينهما أنام ..

رانجون ١٩٥٨/٩/٢٠

فيروزتي ..
ما زلتُ في سفينتي
أصارع الشموسَ .. واللصوصَ .. والدُوارْ
نزلتُ في مرافيء موبوءة المياهْ ..
صليتُ في معابد ليس لها إلهْ
وأرخصَ الخمور ذقتُ .. أرخصَ الشفاهْ ..
قُتِلتُ ألفَ مرةٍ ..
غرقتُ الفَ مرةٍ ..
صُلبتُ فوقَ حائط النهارْ ..
وسبعةً قطعتُها من أوسع البحارْ
من أخطر البحارْ ..
لمستُ سقف الشمس .. كانت رحلتي انتحارْ ..
تصوري ، أني بلا عينيكِ ، يا جميلتي ، قرونْ
لا كوكبٌ في الأفق .. لا منارْ
بحّارتي في السطح ميتّونْ ..
وخبزيَ الاسفنجُ والمحارْ ..
تصوّري الأرضَ وما تكونْ ..
يا ارنبي الحنونْ
بدون عينيكِ .. بلا فُسقيّةِ اخضرارْ
بدون شاطئين مقمرينْ ..
بدون غابتينْ ..
أنشد في حماهما القرارْ ..

بانكوك ١٩٥٨/٩/٢٥

من آخر الدنيا ..
ومن جدارها القصيّ
بطاقتي تأتيك .. يا أعزّ ما لديّ
يا كُلَّ ما لديّ .
الشمسُ فوقَ آسيا ..
كحقل برتقالْ ..
كلوحةٍ لا تشترى بمال ..
والليلُ في هونكونغ .. صندوقٌ من الحُليّ
يعثره الله على الجبالْ
والبحرُ يا سيّدتي
شالٌ بنفسجيّ
يشهق من تطريزه الخيالْ ..
من آسيا ..
أمدّ ، يا أميرتي ، يديّ
أسألُ عن عينيكِ . يا أعزّ ما لديّ
عن قطعتيْ حُليٍّ
ما لهما مثيلْ
في اللونِ .. والنقاءْ ..
أميرتي ..
أعرفُ أن مركبي
يغصّ بالكنوز .. والبخور .. والفراءْ ..
وان عندي مائةً
من أجمل الإماءْ ..
أعرف أني عائدٌ بالذهَب الكثيرْ ..
بالخزَف الصينيّ .. بالسجّاد .. بالحريرْ ..
بألف كنزٍ مذهلٍ مثيرْ ..
لكنني ..
يا أرنبي الصغيرْ ..
برغم ما جمعتهُ .. فقيرْ
بدون عينيكِ . بدون ماستيْنْ ..
ما لهما نظيرْ
يا كنزيَ الأولَ والأخيرْ ..

نزار قباني — هونكونغ ١٩٥٨/٩/٢٨



لا بد لنا أن نقدم بين يدي هذا البحث بعض الفكرات الاساسية التي تحتاج الى شيء من الايضاح ، فان الامة العربية بحكم وضعها التاريخي، وموقعها الجغرافي ذات تراث طويل متواصل ، وهو تراث لونته البيئة المادية ، وصاغته البيئة الاجتماعية ، واثرت به في حياة الانسان بصفة عامة من الناحيتين العقلية والوجدانية . وتراث كل امة هو خلاصة المعارف والمشاعر والتجاريب التي يسلمها كل جيل الى الجيل الذي يكر بعده . واذا قلنا « التراث الثقافي » للامة العربية ، فاننا لا نعنى بذلك التراث العلمي فقط، ذلك لان الثقافة بمعناها المتسع تنتظم جميع الخبرات ، والاعمال في هذا المجتمع ، وهي لذلك اوسع مدى بكثير من المعرفة ومن العلم ، ومن هنا كان الجانب الوجداني من هذا التراث ينتظم المأثور من فنها وادبها . وكانت دائرة الادب فيه تضم أدب الخاصة ومن كانوا يسمون بالعامة على السواء.

والادب الشعبي ، كما نعرفه اليوم ، يتسم بخصلتين اساسيتين : أولاهما ، وهي على جانب كبير من الاهمية في موضوعنا ، انه ادخل في الجهد الجمعي منه في الجهد الفردي، ومع ان الادب باعتباره فنا جميلا يتوسل بالكلام او اللغة المنطوقة ، الا ان طابع الشخصية الفردية لا يظهر فيه . ولا تخرجه هذه الخصلة اطلاقا من نطاق الفن المحقق للحياة بالتعبير ، اذا نحن نظرنا الى الجماعة التي يصدر عنها باعتبارها شخصية متكاملة منسجمة ، لها ملامحها النفسية ، ووجدانها المعبر ، وهي تقابل في هذه الناحية الفرد بوجدانه الخاص ، وملامحه النفسية المميزة . وهذا هو السبب الذي جعل اكثر الاثار الشعبية مجهولة المؤلف او تكاد ، والمنسوب منها الى مؤلف بعينه ، تحتاج النسبة فيه الى تحقيق . ولا يمنع هذا ان تكون هذه الاثار قد صدرت عن احاد باعيانهم ، بيد ان هؤلاء الاحاد اندمجت وجداناتهم في وجدان الجماعة من ناحية ، ولم تحتفل الجماعة بخصوصيتهم احتفالها بخصوصيتها هي من ناحية اخرى . اما الخصلة الثانية ، وهي لا تقل عن الاولى اهمية، فهي ان الابداع والتذوق في الادب الشعبي واحد . واذا كان الفنان الفرد يبدع اثره أولا استجابة لوقع الحياة على نفسه في لحظة اولحظات ، ثم يأتي المتذوق فيتفاعل مع الاثر الادبي ، فان الحاجز بين الابداع والتذوق في الادب الشعبي لا يكاد يلحظ ، لان الوجدان الجمعي هو المبدع ، وهو المتذوق في وقت معا .

وثمت فكرة اخرى لا بد من توضيحها ، وهي وسيلة الفن القولي الشعبي ، ونقصد بها اللغة المنطوقة ، فالاصل في اللغة هو المخارج المركبة التي اصطلحت الجماعة على دلالاتها ، وهي ثمرة التجمع والعامل عايه ، ولا توجد رابطة اقوى منها في اي جماعة وهي لا تمكن الفكرة فقط ، ولكنها تحكى الشعور ايضا ، ولا بد ان يدخل في الاعتبار طبيعة الصوت والمخرج ، والنبرة ، والاسترسال والارتفاع والوقف وما الى هذا بسبيل .. اللغة ملامح الجماعة وشخصية الفرد ، وفكرته الخاصة واحساسه الخاص في موقف بذاته .. ولغة الامة هي الحصيلة الكاملة للروابط الاجتماعية فيها عن طريق الاتصال بالتلاغي ، وتدخل فيها صورها الطبقية ، ودراياتها وعلاقاتها ، ولغة الامة العربية ـ كما ادرك الاقدمون ـ هي مجموع ما يصدر عن اللسان العربي على اختلاف اللهجات والبيئات ، ومن هنا كان ادبنا المتوسل بلغتنا ليس الفصيح وحده ، ولا المدون وحده ولكنه الادب الذي يتوسل بجميع اللهجات في جميع البيئات والاجيال .

وتقودنا هذه الفكرة الى تصحيح الزعم الملح الذي اصبح في بعض الاوساط العلمية والادبية من الحقائق المسلمة وهو الزعم الذي بدأ به الفيلسوف الفرنسي «أرنست رينان» والذي يهمنا منه افتقار الشعب العربي الى التجسيم الملحمي والدرامي ، فالواقع ان الامة العربية كغيرها من الامم مرت بالطور الاسطوري ، والطور الملحمي ، وتاريخها اقدم من الجاهلية الثانية المصطلح عليها ، وبقايا اساطيرها التي فقدت وظائفها الحيوية ، مبثوثة في كتب التاريخ العام ، وتقويم البلدان وعجائب المخلوقات ، اما ملاحمها فلا تزال حية فعالة في المجتمع الى يومنا ، وهي تستكمل كل مقومات الملحمة .. والبطولة في الادب الشعبي ، اذا اردنا ان نستخلصها فان الواجب يقتضينا ان ننظر في هذه الملاحم .

البطولة بين الاساطير والملاحم

وليس من غرضنا ان نحتكم الى فلسفة التاريخ، وما تتشعب عنه من مذاهب ، وحسبنا ان ننظر الى تطور فكرة البطولة في المجتمع باعتبارها عاملا من عوامل «التغير»

في حياة الانسان ، فلقد كانت الاسطورة تحكى عند الجماعات البدائية فعال اله او شبه اله ، وتفسر بمنطق العقل البدائي ظواهر الكون ، وتعلل العلاقات والنظم والعادات ، وتنظم القول والاشارة والايقاع والرسم وصياغة المادة ، والبطل فيها هو الخالق للقدر وللمصير ، وهو فوق الطبيعي والممكن ، ومع ذلك فالبطل الاسطوري يحكى نزوع الانسان الى المعرفة والكشف عن المجهول ، واستئناس المتوحش ، والتحكم في العناصر ، والتغلب على الزمان وعلى المكان . وايا كان التفسير الذي يذهب اليه اصحاب علم النفس او الانسان او الاجتماع فان الاسطورة انما تميز من غيرها بوظيفتها الحيوية الفعالة وطابعها المتصل بالعقيدة البدائية .

اما البطل في الملحمة ، فهو انسان بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى مهما كانت قدرته ، ومهما كانت الفوارق التي يقوم بها ، ومهما كانت القوة التي تعينه او يستعين بها . ومع هذه الانسانية فيه ، ومع وضوح ملامحه وشخصيته فانه ليس فردا محدودا بذاته الخاصة لانه « المثال » الذي ابتدعه وجدان الجماعة ليكون نموذجا لكل من افرادها فهو جماع فضائلها . وهو المحقق لاحلامها ورغائبها . واذا كانت الملحمة التي تصدر عن الوجدان القومي تحكي ضربا من الصراع فاننا نلاحظ ان هذا الصراع يقوم على دعامتين اولاهما : صراع العدو المشترك وثانيهما تقويم السلوك في الجماعة بحيث يصبح متفقا مع الاحداث العامة ، ومسايرا لمثل الجماعة في وقت واحد .

والملحمة الشعبية تمهد دائما لظهور البطل ، وهي تبدأ قبل خروجه الى الدنيا وتمر بمراحل من الارهاص والتبشير ثم تأخذ في متابعته خطوة خطوة ،وتثقفه بما ينبغي لمثله ان يثقف ، وتهيؤه لاحداثها الكبرى ، واعماله غير المألوفة لا يأتي العجب فيها من الشذوذ ، وانما يأتي من المبالغة في المألوف نفسه ، والبطل الشعبي على موعد ابدا مع القدر انه يختلف عن البطل الدرامي التراجيدي ، فالاول لا يتعقبه خطأ وقع فيه اوقام به غيره ، ولا يأخذ في مصارعة القدر، ولذلك تختلف النهاية لكل منهما ، فبطل الملحمة ينتصر ، والبطل التراجيدي ينهزم . والشعب الذي يحقق امانيه بالملاحم يعرف النهاية او يرسم النهاية ، ولا يقوم التشخيص على الكشف عنها ، بل يقوم على انتظارها ، وهي انتصار البطل الممثل لقومه المجسم للخير ، ولا يمكن ان ينتظر الشعب شيئا اخر غير هذا .. والابطال الثانويون يعملون على التكامل النفسي للشعب ، فهم يجسمون بعض الصفات، وبعض المزايا ، وقد يحدث خلاف جانبي بينهم يأتى ثمرة لصراع ثانوي بين الذات المفردة او العصبيات الصغيرة وبين الذات العامة ، ولا بد ان تتغلب الفكرة القومية العامة اخر الامر ، ولا يكون ذلك على حساب الجماعية وانما يكون خضوعا لوجدانها المشترك .

عمر البطولة

والشعب عندما يتفنن بالادب على هذه الصورة الملحمية كالفرد عندما ينشيء اثرا ادبيا .. ان اول ما يقوم به هو ان ينتخب ما يلائم موقفه الشعوري الخاص ، ولما كان موقف الشعب يتصل بغيره من سائر الاقوام فهو يبحث عما يلائم هذا الموقف ، ولذلك نراه دائما يلتفت الى الوراء يفتش في احداث الماضي ، ويتصور لضرورات التجسيم والانسجام القومي ان هناك عصرا ذهبيا ، وان هناك عصرا اخر للبطولة . فاما العصر الذهبي فهو مثال الحضارة والنعيم ، واما عصر البطولة ، فهو مثال الفضائل القومية الخالصة ، ولذلك كان من الطبيعي ـ اذا تجاوزنا عن المغازي الشعبية ، وعن سير الاولياء كما تصورها الشعب الى الملاحم المتكاملة ، ان نجد ازدهار الملاحم انما كان في تلك الفترة التي التقى فيها الشعب العربي بالغرب ، وهي المعروفة عند المؤرخين بفترة الحروب الصليبية ، ، فقد اهتز فيها الوجدان العربي هزة قوية دفعته الى ان يعتصم بعصر البطولة فانتخب من الفرسان الجاهليين سيرة «المهلهل» او «الزير سالم» وسيرة « عنترة بن شداد » وسيرة « سيف بن ذي يزن » وطالت الحروب الصليبية ، وكانت الوقائع فيها مستعرة الاوار ، وغلب غير العرب على الحكم ، فكان اعتصام الوجدان العربي بالسمة المشتركة فيه وهي العروبة ، وتخير تلك الهجرات القيسية المتتابعة من بلاد نجد ، وانتشارها في الوطن العربي ، فقص اثرها الى العراق والشام ومصر ، وشمال افريقية ، اي من الخليج الى المحيط ، ولم يكن همه ان يحكي عصبية قيسية وربيعية،مضرية او قحطانية،وانما كان همه الاول ابراز العروبة ، حتى اذا انتهت الحروب الصليبية ، وقام بتصفيتها الظاهر بيبرس بعد صلاح الدين ، جعلوه محور نوع اخر من قصص الفروسية ذات الطابع الملحمي، وكما ان المتفنن ينتخب من احداث التاريخ ، ويعطى نفسه بعض الحرية في تعديل الاحداث فان الشعب يفعل ذلك ايضا ، لان الوقائع لا تعنيه في ذاتها بقدر ما تعنيه دلالاتها ونتائجها ومن هنا راينا الشعب يتحرر من التاريخ ، ويتخلص من نطاق الزمن ، وحد المكان ويجعل بعض الابطال الجاهليين ابطالا اسلاميين . ولم يكتف بذلك ، بل دفعته عروبته ونزعته الى التحرز ، الى ان يجعل الظاهر بيبرس منتسبا الى العرب ، وان يفل قيده كعبد مملوك ، وان يرهص بما سوف يقوم به على لسان الملك الصالح ايوب ولي الله المجذوب .

الملحمة والقومية العربية

تحكى الملحمة الشعبية اذن الوجدان القومي العربي . ولقد ازدهرت في اواخر الحروب الصليبية بعد ان هدات سورة هذا الوجدان وتكاملت الوقائع في خلده ، ولذلك راينا هذه الملاحم تصبح زادا للامة العربية كلها على اختلاف اقاليمها ولهجاتها . وليس من شك في انها تاثرت هذه اللهجات

وتلك الاقاليم بعض الشيء ، ولكنها احتفظت بجميع مقوماتها ، بل احتفظت بجميع احداثها . ورواج بضاعة المنشد المحترف يدل في ذاته على احساس المجتمع العربي بشخصيته امام المجتمعات الاخرى ، ذلك لان تنقله بهذه الملاحم بين الحضر والريف والبادية يدل على فاعلية الملحمة ، وعلى قيامها بوظائفها الحيوية في اذكاء الشعور بالعروبة من ناحية ، ويعمل على انسجام المجتمع العربي كله من ناحية اخرى ، ويشحذ فيه نوازع الدفاع والمقاومة، ويدفعه الى ان يستعيد امجاده .

ولعل حرفة هذا المنشد المحترف تصور وحدها ، بما اتخذت من مراسيم وتقاليد الطابع العربي لهذه الملاحم ،فهو يبرز في المواسم والاسواق والمجتمعات العامة ، ويتخذ في الغالب الاعم الزى الشرقي العربي ، ويتوسل بالانشاد والتمثيل والسرد ، ويستعين بالالة المعروفة برباب الشاعر.

وليس هذا هو كل شيء ، بل انه يستحضر كل بطل امام المستمعين ، بان يقدم نفسه بصفة « الفتي » وما نظن انه كان يقصد مصطلحا صوفيا بمراسيم سريه ، وانما اراد ان يجسم الفتوة العربية كما عرفت في العصر الجاهلي والاموي وبيئات البداوة ، ويردف ذلك بان يذكر البطل اسمه ، وهو معروف مشهور عند الناس يحبونه لانه مثالهم ونموذجهم ويقرن ذلك بنسبه الى قبيلته العربية « يقول الفتى أبو زيد هلالي سلامه » وقد تبدا النسبة الى القبيلة قبل الاسم « الخفاجي عامر » ولهذا دلالته على ان العروبة هي الباعث الاول ، والعاطفة المشتركة . فان اضفنا الى ذلك ان المنشد المحترف يبدا سمره بالصلاة على النبي ، باعتباره المثل الاعلى للانسان من ناحية وباعتباره قد اصطفى من بين العرب من ناحية اخرى ، ولاحظنا ان ذكر النبي — صلى الله عليه وسلم — يردف دائما بما يدل على عروبته ادركنا قوة هذا الباعث وهذه العاطفة المشتركة .

وما دامت الملحمة تمثل موقف الشعب العربي من سائر الشعوب ، فان البطل فيها يتخذ مكان الرياسة والقيادة والتوجيه ، ونحن نعلم ان الشعب اعتصم بعصر البطولة وانتخب من الفرسان الاوائل ابطاله ، ومن هنا انعكست صورة الرياسة العربية في المجتمع القبلي على الملحمة ،فلقد كان المجتمع أبويا او بطريقيا او هيراركيا — كما يقول اصحاب الاجتماع — وليس المهم عند الشعب الا ان يكون ابا لقومه على التحقيق النفسي . ولما كانت الملحمة تجسم نزعتين تحريريتين : اولاهما الدفاع عن الذات العامة امام عدومشترك والثانية الدفاع عن كرامة الفرد باعتباره واحدا من جماعة عزيزة على نفسها وعلى احادها ، فقد راينا البطل يناضل العدو ويحكي بطريق غير مباشر ما ينبغي ان تكون عليه العدالة الاجتماعية .

الفروسية

وتذكر كتب التاريخ دائما ان الفروسية نمط من انماط الحياة ، ونظام قائم براسه من نظم المجتمع ، غلب على اوروبا الغربية في الجزء الثاني من القرون الوسطى ... وكانت بواكير هذه الفروسية في القرن الحادي عشر ، وبلغت ذروتها في الفروسية في القرن الحادي عشر ، وبلغت في الافول نذيرا بظهور اساس اخر للحياة ، عرف به عصر النهضة او عصر الاحياء .. وكانت هذه الفروسية الاوروبية تقوم على دعائم ثلاث هي : الحرب والدين والحب .. وكانت الحلقة التي تصل الدعامة الاولى بالثانية ، اي الحرب بالدين ، هي الحروب الصليبية .. والتي تصل الثانية بالثالثة اي الدين بالحب ، هي الولاء للعذراء ومحاولة البحث عن شبيهة لها تكون حافزا للفارس على اكتساب الفضائل في السلم وركوب الاهوال في الحرب . ولكن الفروسية العربية اقدم من هذا عهدا وارسخ قدما ، حتى اننا لا نستطيع ان نتبين بداياتها على التحقيق او الترجيح. فان الفرس كان عنصرا هاما في الحياة الجاهلية ، تقاس به الثورة والقدرة على السوء .. كما نجد الفارس يبرز في المجتمع العربي الجاهلي ، ويصبح المحور الذي تدور عليه حياة القبيلة باسرها . وكثيرا ما اجتمعت فضائل الفروسية بفضائل الشعر ، فراينا الرجل منهم يدعى « الفارس الشاعر » وكتب الادب زاخرة باخبار هؤلاء الفرسان الشعراء نجدها في كتاب الاغاني ، كما نجدها في العقد الفريد وفي غيرها من دواوين الادب الجامعة ، لايام العرب واشعارهم .
ومن اليسير ان نتبين الدعامتين اللتين قامت عليهما الفروسية الجاهلية وهما — الحرب والحب .. فان ايام العرب تصور ما اشتجر بين القبائل من وقائع ، كما ان تقاليد الشعر التي جعلت الحب بين الموضوعات الاساسية في القصيدة العربية وقرنته بغيره من اغراض الحماسة ، تجعلنا نؤمن برسوخ هذه الدعامة . ومن يعكف على دراسة الملاحم الشعبية يجد انها مطبوعة بطابع الفروسية في كل جزء من اجزائها فان الفارس هو المحور الذي تدور عليه حوادث الملحمة او السيرة كلها ، فابو زيد هو البطل في سيرة بني هلال ،لانه هو الفارس الاول فيها ، وقد تعقبته الملحمة منذ حملت به امه السيدة خضرة الشريفة ، ومنذ اخرجت من ديار زوجها الى ديار بني الزحلان وقصت مراحل صباه وتربيته وشغفه بالفروسية وحبه للافراس ونزوعه الى المبارزة ، ومبادرته الى نجدة الاهل وحماية العشيرة ... وما تزال به حتى تضطر القبيلة الى التفكير في الهجرة فيردد لها الطريق نحو المغارب مع الفتيان الاوائل في القبيلة ، وهم مرعي ويحيى ويرنس ، ثم تروي اسرهم وفرار ابي زيد وعودته الى قومه واستنفارهم لتخليص الاسرى ، وتفصل الكلام في مراحل السير ووقائع الحرب ، الى أن يتم لبني هلال النصر .

وجميع الابطال الذين يشاركون ابا زيد في هذه السيرة من الفرسان ولعل اقواهم هو دياب بن غانم الذي يصور حب الفارس لفرسه واكبارها والاعتزاز بها وعدم التفريط فيها ، بل انه يراها خيرا من الولد والاهل . وفي السيرة فصل رائع يمثل هذا الحب القوي بين الفارس والفرس ..

فقد تعرضت القبيلة كلها لمكروه شديد في صعيد مصر ،ذلك انها واجهت خصما عنيدا ، هو الماضي بن مقرب الذي اشترط لمهادنة بني هلال والسماح لهم بالمرور ان يأخذ فرس دياب ، واسمها الشهبة، فيلبي دعرغمه القبيلة على الاذعان وتاخذ الفرس منه كرها ، ولكن الفرس تكره ان يمتطيها غير صاحبها ، فتلقى بالماضي بن مقرب وتعود الى دياب الذي يقر بها عينا ... ولما اشرف بنو هلال على غايتهم ، ماتت الفرس ... واحتفل القوم بدفنها احتفالا مشهودا كما يحتفل بدفن العظماء والابطال واخذ نجم دياب يأفل بعدها رويدا وهو لا يفتأ يذكرها فاذا بلغته الوفاة اوصى ان يدفن الى جانبها .

وقوام البطولة في هذا الاطار هو الشجاعة ، وهي صفة مشتركة بين جميع الفرسان ، وليس بين الراشدين في الجماعة من يخرج عن زمرتهم اللهم الا من تقعد به الشيخوخة ،او يحول العجز بينه وبين مقتضياتها وشجاعة الفارس تتفرع عنها خلائق اخرى عرف بها العربي في حياته كما سجلتها ملاحمه الشعبية كالعفة والنجدة والاباء والكرم .

وابرز هذه الخلائق الاباء الذي يتسم بمقاومة الظلم ايا كان . ولما كان الضيم الفردي يجر دائما الى نجدة جماعية فقد كان من الطبيعي ان تستشعر الجماعة كلها العزة في نفسها وفي افرادها ، والا تتساهل فيما يتعرض له الفرد مثله في ذلك مثل الجماعة كلها اذا تعرضت لمن يتحيفها او يعمل على الانتقاص من قدرها او الاغارة عليها .

وحرصت الملحمة الشعبية على صفة الشجاعة في البطل بكل ما تنتظم من خلائق واكدتها بان خلعت على عدوه الخصلة نفسها لتجعل من هذا العدو المكافيء لبطلها في الكر والقوة ومضاء العزم كما انها سايرت الحياة ومنطق الاحداث عندما جعلت النزال بين الابطال نزالا بين الاقران ، والوقائع بينهما لا تنتهي في اللقاء الاول او الثاني وما اكثر المعارك المتوازنة بينهما . وربما رجحت كفة العدو في معركة او اكثر تاكيدا لهذه الموازنة في الشجاعة بين البطل وعدوه ، وكانما ارادت الا يحارب البطل الا بطل مثله ، وان كانت في بعض الاحيان تجرد العدو من بعض الخلائق التي تنتظمها الشجاعة ما عدا اليأس والمضاء في الحرب .

ولم تغفل الملحمة الشعبية جانب « العقل » في بطلها الفارس لانها ادركت ما يدركه الشعب من أن الباس والقدرة على الحرب لا تكفيان وحدهما في احراز النصر ، فجعلت البطل قوى الملاحظة ، سريع الخاطر ، لا يتحرك لاول بادره بل يؤثر التدبير لحل المعضلات العظيمة ، والاحداث الجسيمة . ومن هنا كان الذكاء ملازما للشجاعة ، وكانت الحياة ملازمة لثقافة الحرب . وما من بطل في الملاحم الشعبية لا يصطنع الحيلة التي تصل احيانا الى التفكير ، والى ما يشبه خدع الحرب ، فلقد كان أبو زيد الهلالي مشهورا بحيلته ، أشتهاره بالشجاعة ، والمثل السائر يفسر هذه الظاهرة « سكة ابو زيد كلها مسالك » . وكان جمال الدين شيحه في سيرة الظاهر بيبرس يعتمد على التفكر ، والعبارة المشهورة « ملاعيب شيحة » ثم « جراب الحيل » تؤكد ذلك .

البطل والمراة

واذا كان مجتمع الفرسان في اوربا ابان القرون الوسطى يعرف المراة ويتوسل بها في تجسيم مثله العليا ، واذكاء شجاعته ، فان مجتمع الفرسان من العرب كما صورته الملاحم الشعبية لم يقف من المراة هذا الموقف بحيث يجعلها عنصرا مساعدا خارج اطاره . ولقد احتفل الشعب بالمراة كعنصر ايجابي مشارك في الملحمة ، ففي سيرة بني هلال نجد الجارية تنزل زوجها وولدها لتقوم بواجبها العام في الاستنفار الحرب ثم للتشجيع عليها ، ثم للعمل على ضم الصفوف اثناءها . ولم تكتف بذلك بل شاركت في التدبير والحيلة واعتصمت بعفتها ، ولم تتزوج الماضي ابن مقرب في صعيد مصر بل انضمت الى قومها ، وكانت من الاسباب التي اعانت على بلوغ الغاية واحراز النصر . وقد يستعين البطل بالحب او يعينه القدر بالحب كما حدث لعنترة الذي حقق وجوده بحافز الحب ، وكان لا بد له ان يشتري حريته بعمل تتطلبه الجماعة ، وهو الدفاع عن الحمى .

وهناك نوع عبقري من العاطفة ابرزته الملحمة الشعبية لا تقوم على العاطفة بين الرجل والمراة ، وهي عاطفة الزوجين او اللذين يصبوان الى ان يكونا زوجين ... انها عاطفة الامومة ، ولكنها امومة من نوع عبقري ، فقد يحتاج البطل في حداثته وفترة تكوينه وتهيئته وهو مبعد عن اهله الى قلب يرعاه ويحدب عليه ، فيجد في احدى السيدات الفضليات من تتوسم النجابة فيه ، ومن تقرأ في وجهه البطولة فتتبناه ، وتاخذ نفسها برعايته وتربيته ، وتهيء اسباب العلم له ، ولا تبخل عليه بكل ما يحتاج اليه الفارس من ثقافة عملية كما حدث للظاهر بيبرس .

وكانت ملاحمنا الشعبية العربية واقعية في تصوير المراة ، ولم تكن مثالية كما هو الشان بالملحمة الغربية في عصر الفروسية ، فابرزت مشاعرها وخوفها على زوجها ، وفرقها من النساء الاخريات ، ولكنها كانت دائما عندما يجد الجد تؤثر الصالح العام على العاطفة الخاصة . ونحن نلاحظ ان المراة كانت عنصرا هاما في بعض المعارك ، فحبها يعين على النصر واختطافها يخلق المعركة ، وهي اذا اسرت كانت مثالا على الشجاعة ، وعلى ما ينبغي للمراة العربية او الفتاة العربية في نظر العرب حفاظا على السر وعلى العرض .

البطولة والقدر

قلنا ان البطل الملحمي لا يصارع القدر ولكنه يحقق الاحداث التي تريدها الاقدار فهو من الناحية رجل الاقدار، وهو مكلف برسالة سامية ذات طابع قومي ، وهو يعرف هذه الرسالة معرفته لنفسه ، ويجد في تحقيقها واثقا من النصر . وتؤكد هذه المعرفة عنده ارهاصات وتنبوءات ..

يؤكدها العرافون على صفحة الرمال ، ويؤكدها المنجمون في صفحة السماء ، ويؤكدها العارفون بتأويل الاحلام .. بل ان سائر الافراد في الملحمة يميزون البطل ويعرفونه ، وقد ينتظرونه ، وتأتيهم المعرفة هم ايضا من العرافين والمنجمين مفسري الاحلام . وقد تظهر الحوادث في بعض الاحيان غير ما يعرفون ويتوقعون ، فلا يرتابون ، لان القدر قد خط في صحيفته أن يكون النصر على يد البطل دون غيره . وهي قاعدة مطرده في الملاحم الشعبية كلها .

فالطائر الاسود الذي يتغلب على سائر الطير امام السيدة خضرة الشريفة يشير الى ما سوف يكون لهذا الغلام الاسمر الذي اخرجت بسببه من ديار زوجها ، وتركت وحيدة في البادية تحت رحمة الاقدار . وفي مقدمة سيرة الظاهر بيبرس لوح كالواح الشطرنج عليه صحائف من ذهب تمثل الشر والعدو ، وتجسم الكيد والخسة واللؤم والطمع ، وتعقب كل واحدة منها صحائف من فضة تمثل الخير والنقاء والعفة ، والحياة صحيفة صفراء تعقبها صحيفة بيضاء ، فهي متداولة بين الشر والخير ، وعلى الاولى سجلت وقائع العدو ، وعلى الثانية سجلت وقائع الابطال المسلمين والعرب ، والنتيجة معروفة منذ اللحظة الاولى ، فهذه لوحة القدر تداول الحياة بين الفريقين ، ويكون الكر والفر ، والتفكير والتدبير ، والنصر اخر الامر للخير وانصاره .

ومع ان البطل يجسم الفضائل المعروفة المتمثلة عند قومه ، وتوصف شجاعته في شيء من المبالغة فانه لا يخل بابعاد الصوره ، وما يجب لها من تناسب ، الا انه يتوسل احيانا بما فوق الواقع وما فوق الطبيعي . وهو ما دام على الخير فالاولياء يعينونه بكراماتهم وينقذونه من المآزق ، ويطوون له المكان والزمان ، ويفكونه من الاسر ، ويكشفون عنه المحجوب ، وقد يتوسل بادوات عجيبة لها قوى خارقة كالاسلحة الخاصة والدواب الخاصة ، وبسط الريح ، وما الى هذا بسبيل .

ويجب ان نذكر ان الاساطير عندما تفقد وظائفها الحيوية تحل عقدها وتصبح متفرقات من الحكايات التي يشيع فيها السحر وما اليه . وهذه العناصر نجدها في الملحمة بعد ان برئت من اطارها الاول ، وزحفت في تضاعيف الاحداث ، ولعل بعض الاشخاص ، وبعض الوقائع امتداد لاساطير سابقة تحولت من تفسير المظاهر الطبيعية والاجتماعية بالعقل البدائي الى تسجيل الامجاد القومية تعبيرا عن الوجدان العام ومع ذلك فالبطل في الحكايات الشعبية قد يمثل فضيلة او صفة تتطلبها الجماعة وتحتاج اليها ، ولذلك نراها وقد انحدرت الى سفح الكيان الاجتماعي واصبحت سمرا ترفيهيا للدهماء او وسيلة تربوية للصغار .

خاتمة

ونحن نعيش الان في عصر يمكن ان نطلق عليه « العصر الملحمي » وموقفنا من سائر الاقوام يحتاج الى تأكيد البطولة كما يتمثلها وجداننا . واذا كانت ملاحمنا وحكاياتنا الشعبية تنحسر امام التدوين والترجمة ووسائل الاتصال بالناس كالطباعة والصحافة والاذاعة والسينما ، فان من واجبنا ان نعرف ان وجداننا القومي موصول الحياة واننا لا ننشيء وجدانا جديدا ، وكلنا نلاحظ تطور وجدان حي فعال ، ثم نعمل بعد ذلك على معاونته ليسير في طريقه المحقق لوجوده . ولذلك كان من الضروري ان نحتفل بالبطولة في الادب الشعبي ، او بتعبير اخر ان نحتفل بالملحمة الشعبية فنبعثها ثم نعدل فيها تعديلا يصفيها من العصبيات الصغيرة ، ويؤكد الغاية القومية منها ، ويجعل اساس التعبير في الدراما والقصة والشعر يقوم على الملحمة البطولية القومية . وهي تصلح في الوقت نفسه بعد التصفية والتعديل لان تفيد الموسيقى وسائر الفنون ، كما تصلح في تربية الناشئين .

عبد الحميد يونس

***

للمأساة آخر

في ذكرى اللواء ... من جديد ــ مهداة الى صغيري معن .. الذي توقف عن لعبته امس ليسالني : من اي بلد نحن ؟

للشاعر سليمان العيسى

***

من اين نحن ؟ تلعثمت بحروفها شفتا صغيري
وتعلقت عينان وادعتان بالصمت المرير
تستنطقان شرودي القتال عن سرٍّ كبير
من اين نحن ؟ وغام في عينيَّ جرح كالسعير
وضممت طفلي ، والسؤال ، وبسمة عصرت شعوري
كفنت خلف بريقها عشرين مفجعة السطور ..
عشرين .. من عمر القتيل ، بلى ، ومن دامي المصير
من اين ؟ قصة ثورة طاشت على ثغر غرير
اتريدها .. مأساة تربتك الشهيدة يا صغيري ؟

*

من اشعل الصدر البريء ، وهز في دمك السؤالا ؟
اتريد قصتك الخضيبة ، لا رواء ولا خيالا !
في كل عام وقفة نتحسس الذكرى ظلالا
نتفقد الجرح الدفين ، ونستقي منه النضالا
لا ترهق الصدر البريء ، وخلها غصصا طوالا
مزقا مفجعة على نبرات قافية توالى
من اين نحن ؟ اتستعيد البسمة الثكلى مقالا !
واجيب تمتمة الصغير ، وانفض الجمر اشتعالا!
سيظل جرحي في الشمال . يصوغ من لهبي الشمالا

*

انا من البلد القتيل ، من الجراح ، من الرعود
من صخرة عثر الشهيد وراءها بدم الشهيد
من ربوة خضراء رقرقت الالوهة في نشيد
من ضلع شلال يقص على الدنى قصص الخلود
من ألف ساقية توشوش ، وهي سكرى ، في قصيدي
انا تراب يا صغيري ظامىء خلف الحدود
داري هناك ، وخيمتي تتمردان على السجود

عربيتان ، اكاد انشق فيهما عبق الصمود
موارتان باغنيات البعث ، والفجر الوليد

★

انا خيوط الدفقة الاولى اذا شمخ النهار
وانداح في ارض العروبة عاصف ، وزها انتصار
من ضفة العاصي ، من الشلال ، غيَّضه الدمار
من « دفنة » وهضابها صمت وشوق وانتظار
من شاطىء امواجه مضر وصخرته نزار
ولدت رؤى الوطن الكبير ، وارضع الحلم الصغار
من اين ؟ لا تسأل اباك ، طريقنا شوك ونار
تدري غدا ، لم ينته الشوط المرير ولا السفار
عند المحيط ، على الخليج ، يقر للركب القرار

★

تدري غدا يا معن كيف تمزقت هذي البلاد !
كيف استبيح مهادك العربي ، واغتصب المهاد !
كيف ارتمى علم العروبة (1) ، كي يجلله الحداد
كم لفه جسد بخلجته ، وفداه سواد
وتناثرت مزق الرصاص ، وشق زحمتها عناد
وحنا الشهيد عليه ، وانتصر الذئاب كما ارادوا
واستسلم البلد القتيل ، ولملم الجرح الجهاد
ومشى على نعش « اللواء » عصابة حكموا وسادوا
تدري غدا ، كم «ناضل» الاجراء في وطني و «ذادوا»

★

تدري ، ويعرف جيلك الوضاء اي دجى رهيب
نحرت بعتمته الضحية ، فهي شلو في النيوب
والثائرون براعم زغب تتيه على الدروب
يا للجريمة في الشمال ، وللفجيعة في الجنوب !
لم ننطفيء يا معن ، شعلة امتي فوق الخطوب

(1) اشارة الى انزال العلم السوري في مدينة انطاكية يوم تسليم اللواء

لم ننطفيء .. كذب الغروب ، ومن يعض على الغروب
اسمع هدير العائدين ، يهز اضلاع الغيوب
ويفجر التاريخ ملحمة ، ودفق سنا وطيب
عدنا .. لنمحو من حياة الشمس كارثة المغيب

★

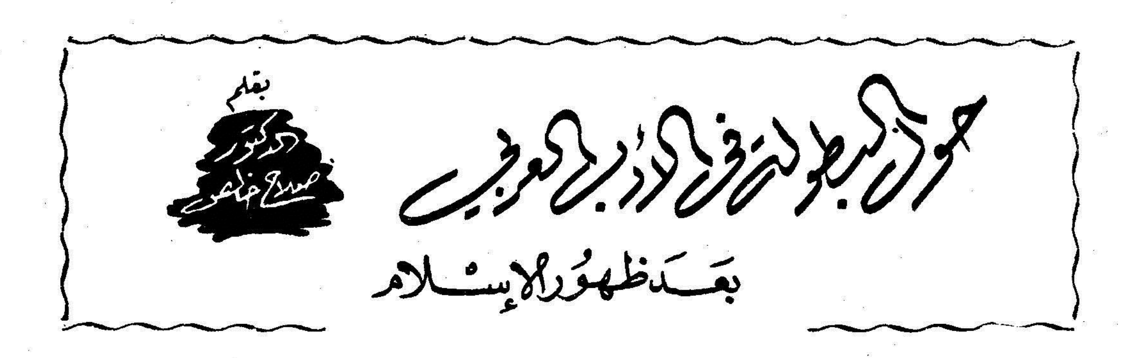
اسمع على قمم الكفاح ، يهزها نجدا فنجدا
صوت ، كعطشان اللهيب على الهشيم انداح وقدا
تحنو الملايين العطاش ، فترتوي بأسا ومجدا
ويحيلها لندائه قلبا وحنجرة وزندا
عملاقك العربي .. آمنا بماردنا المفدى
بالاسمر الحادي .. وود الصبح قافلة لتحدى
بمجسد التاريخ اغنية ، بشعب ذاب فردا
انا لهاتك يا جمال .. فأترع الصحراء رعدا
واهدم لنا سدا على راس الطغاة ، ومد سدا
عند المحيط ، على الخليج ، تقر صيحتنا وتهدا ..

★

انا يمينك في اللواء ، وفي عمان ، وفي الجزائر
في كل ميدان تنفس فيه ثائرة ، وثائر
في كل رابية تكحل بالغد العطر المحاجر
تغفي الرمال على رؤاك ، وتستفيق على البشائر
وتعيش في دمنا ، وخل الليل يبتدع الستائر
دنيا العروبة محجر بك شده قدر ، وناظر
بغداد قلعتنا .. وطيف موكب الهجناء عابر
والاطلسي قصيدة عربية بلهاة شاعر
من أين ؟ رد على صغيري ، فالسؤال الحلو قاهر
الموعد الجبار وحدتنا .. وللمأساة آخر !

دمشق

سليمان العيسى



اود ان اقول اولا ، ان موضوع (البطولة في الادب العربي منذ صدر الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية) لا يمكن ان يستوفي في محاضرة كهذه ، بل ولا في محاضرات قليلة . فالفترة التي يشملها البحث تنيف على ستة قرون ، حافلة بالنشاط الاجتماعي ، مليئة بالنشاط الفكري ، فياضة بالنشاط الادبي الذي صور وجوها مختلفة من الحياة ، وعرض جوانب متباينة من مغاليات الفكر والمجتمع . بل اننا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان هذه الفترة الطويلة من تاريخ المجتمع العربي ، او الاسلامي عموما ، هي اعقد فترات حياته واكثرها اضطرابا . وهذا التعقيد يتمثل واضحا في العلاقات الاجتماعية القائمة بين افراده وفي تكوينه الطبقي كما يتمثل في طبيعة الكتل الاجتماعية فيه . وكان لكل من هذه الكتل آمالها وامانيها واهدافها في الحياة . وبما ان فكرة البطولة نفسها مرتبطة اوثق ارتباط بالتركيب الاجتماعي ، فان بحثها في مجتمع متطور مثل هذا المجتمع يتطلب مزيدا من الجهد والتدقيق ، ومزيدا من البحث والتتبع لا اعتقد ان المجال يتسع لها الان . واذا اضفنا الى ذلك ان ظروفنا الخاصة في العراق لم تسمح لنا بالتهيؤ الكافي للمؤتمر والتفرغ التام للبحث ، فقد ابتلعت وقتنا المشاغل واستأثرت باهتمامنا الواجبات ، اقول ، اذا اضفنا الى طبيعة الموضوع هذه الظروف الخاصة جازلنا ان نطلب المعذرة لعدم ايفائنا البحث حقه واعطائنا الموضوع ما يستاهل من سعة وعمق ، واقتصارنا على وضع الخطوط العامة لفكرة البطولة وتطبيقها على وضع المجتمع الاسلامي في صدر الاسلام . اقول لما مر من الاسباب سنقصر بحثنا على تحديد الخطوط العامة للبحث وتوضيح الاساس العلمي الذي يجب أن ترتكز عليه مثل هذه الدراسة . وسنجد اننا ،لكي نرى البطولة تنعكس في ادب عصر من العصور ، لا بد لنا من الغوص في اعماق المجتمع ودراسة تركيبه وتتبع تياراته .

ان فكرة البطولة كأية فكرة اخرى ، كالخير والشر ، كالصلاح والفساد ، كالخلاص والخيانة ، تنبثق من الواقع الاجتماعي والاقتصادي وتنشأ عنه ، ثم تؤثر فيه بعد ان تصبح حقيقة مادية (بالمعنى الفلسفي للكلمة) بعد انتصبح حقيقة مادية لها وجود محسوس وواقع ملموس . وما البطل الا ذلك الفرد الذي تتمثل فيه رغبات وآمال مجموع من الناس ، ما البطل الا ذلك الفرد الذي يدرك باحساسه المرهف وذكائه الوقاد وعبقريته النادرة مطامح مجتمعه وامانيه فاذا به في طليعة من يسعى لهذه المطامح ويكافح لتحقيق هذه الاماني ، ما البطل الا ذلك الفرد الذي يرى فيه الاخرون ما كانوا يبحثون عنه وما يتوقون للحصول عليه .

نعم أن البطل هو ممثل اماني المجموع وطليعتهم في كفاحهم من اجل مثلهم العليا واهدافهم السامية ، ومن الطبيعي ان ينبثق البطل من اعماق المجموع بعد ان يتمثل باحساسه المرهف وادراكه العميق كل احاسيس المجتمع الذي هو فيه ، ويستوعب افكاره وحاجاته وآماله. فالشعوب تخلق ابطالها والمجتمعات تلد قادتها وزعماءها .

صحيح ان هناك ابطالا لا يحتلون منزلتهم في نفوس مواطنيهم الا بعد زمن قد يطول او يقصر ، لانهم قد تقدموا الاخرين في ادراكهم ، فلا يلحق بهم ولا يفهمون الا بعد ان تكون حياتهم قد انتهت واجلهم قد فات ، ولكن ذلك لن يغير شيئافي طبيعة الطولة وعلاقتها بالمجتمع .. لن يغير في حقيقة ان المجتمع يخلق ابطاله . ولن ننسى هنا ابدا دور العبقرية الفردية والابداع الذاتي للافراد انفسهم الذين تسلموا عروش البطولة ولبسوا تيجانها ..

ولا شك في اننا لا نتفق على معنى البطل ، وعلى ما ندركه من كلمة بطولة ، فهناك من يفهمها على انها الجراة ، او ان شئتم فلنسمها الشجاعة والقيام بالاعمال الخارقة واجتياز العقبات . واذا قبلنا بهذا المفهوم للبطل ، فيترتب على ذلك ان نجرد معنى البطولة من المضمون الفكري ، وان نجعلها مجرد شكل من اشكال السلوك الفردي ، ويترتب على ذلك ايضا ان تقديرنا للبطولة سيكون تقديرا فرديا صرفا ، تقديرا لهذا الشخص او ذاك سواء اكان مصيبا ام مخطئا ، سواء اكان يسعى للشر ام للخير ، سواء اكان عاقلا ام مجنونا . ونظرة مثل هذه للبطولة لا يمكن قبولها مطلقا في رايي ، اذ يتساوى فيها المجرم والشريف ، يتساوى فيها المفسد والمصلح ، يتساوى فيها دعاة الرجعية ودعاة التقدم .

ان البطولة ايها السادة ، ليست نوعا من السلوك فحسب ، انها ليست صفة لاعمال جريئة يقوم بها هذا او ذاك من الناس . انها أعمق من ذلك بكثير ، فهي فكرة وعمل ، بل انها اكثر من ذلك : فكرة نبيلة وعمل جبار ، البطولة ، ايها السادة ، ضد الشر ، ضد الفساد ، ضد الرذيلة وضد الرجعية على وجه الخصوص ، لانها بطبيعتها تقدمية .اذا كان لا بد لي ان اوضح معنى « الرجعية » فاقول : ان ركنها الرئيسي هو عدم الايمان بالتطور ، والتشبث بان (ليس في الامكان احسن مما كان)، كل ذلك حفظا للمصالح القائمة والتشبث بالاوضاع الفاسدة التي تخدم الاقلية دون الاكثرية ، وتقف في سبل تمتع ابناء المجتمع بامكانيات الحياة . ولذلك فان اول ركن من اركان البطولة هو الايمان بالتطور ،الايمان بضرورة تحقيق شيء جديد فيه الخير للمجتمع ، او الايمان بمثل اعلى يفيد الاخرين . والركن الثاني لها هو العمل الدائب الجريء الحكيم لتحقيق هذا الخير او هذا المثل الاعلى ، والاستعداد للتضحية في سبيل ذلك .

وليست التضحية هنا ان يستعد الانسان للانتحار ، وانما ان يضحي بمصلحته الخاصة في سبيل مصلحة المجموع وان يقدم نفسه ذاتها ان كان ذلك يعود بالخير على الاخرين . وهكذا فالبطولة كما قلت فكرة

وعمل ، وسنرى امثلة واضحة على ذلك في تاريخ المجتمع العربي.

لقد دفعت الصحراء الشحيحة سكانها الى حياة البداوة ، وحياة الرعي ، حياة التنقل والارتحال والبحث وراء العشب والمرعى . ومن الطبيعي جدا ان يكون مرعى القبيلة او حماها ملك القبيلة كلها ، تدافع عنه باستماتة واستبسال ، اذ لن يتيسر لها العيش او تستطيع الحياة دون ذلك . ولذلك كان لابد لافراد القبيلة ، هذا المجتمع البدوي الصغير، ان يتكاتفوا ويتساندوا ويتعاونوا على السراء والضراء ، ففي هذا التكاتف والتساند والتعاون حياة القبيلة ، او ان شئت فقل حياة كل فرد فيها .

فعز القبيلة عز افرادها ، وذل القبيلة ذل اعضائها ، ورفاه القبيلة رفاه ابنائها ، وعسرها عسر لكل واحد فيها . وهكذا ارتبط الفرد بالقبيلة واحتضنت القبيلة الفرد ، واصبحت مصلحة القبيلة وخيرها هي مصلحة كل فرد من ابنائها ، فهي التي توفر له سبل العيش بدفاعها عن حماه ، وهي التي تحفظ حياته باصرارها على الثأر ممن يعتدي عليه ، وهي التي تؤويه ان ضاقت به السبل ، ومن هنا نشأت العصبية القبلية ومن هنا اصبحت القبلية سيدة المجتمع البدوي .

فمن هو البطل في نظر القبيلة ؟ .. انه ذلك الذي يذود عن حماها ، ويحمي ذمارها ويرفع شأنها ويبني مجدها ويكافح لاجل بقائها ، انه المغوار الذي لا يكل عن القتال ولا يرتد عندما تدلهم الخطوب ، انه كما يصفه تأبط شرا في وصفه لنفسه عندما يقول : ـ

ولا اقــول اذا ما خلــة صرمت يا ويح نفــسي من شوق واشفاق

القبيلة ويمحو العصبية القبلية ، ويخلق من هذه الكتل المتناحرة والقبائل المتنازعة وحدة متماسكة تربطها مثل عليا مشتركة واهداف مشتركة ، ثم يرسم لها طريق التقدم والرقي ، ويهيء لها امكانية النهوض من هذه الحياة العسيرة المضنية الى حياة اخرى كلها امل وثقة بالمستقبل . هذا هو البطل الحقيقي للمجتمع البدوي قبل الاسلام .. البطل الذي يستجيب لحاجاته ويطمئن رغباته ويحقق آماله ويوجهه الى الطريق الوحيد الذي يؤدي الى المجد الحقيقي والرقي الصحيح . .

وظهر هذا البطل ، ودوت صرخته في وهاد الجزيرة العربية وبطاحها ، فاذا بهذه الكتل البشرية الجبارة تستيقظ : وتشعر بصدى هـــذه الصرخة تتردد في اعماق نفوسها ، واذا بها تستجيب لها رغم ارادتهـا وتلتف حول بطلها كتلة متراصة متينة البنيان ثم تتجه نحو العالــم لتقوم بدورها في بناء الحضارة الانسانية .

ان من الخطأ ان نقول ان محمدا « ص » فرض نفسه على العرب وانه اخضع الجزيرة بالسيف ، كما يحاول ان يقول بعض المغرضين .. انه كان روح العرب .. انه كان آمال العرب .. انه امانيها .. انه ما كانت تبحث عنه وتتوق للحصول عليه ، دون ان تدرك ذلك تماما .. لقد جاء ليصلح وضعا لا بد ان ينصلح ، وليزيل مساويء لا بد ان تزول ، ويقيم كيانا يجب ان يقام ،فاستطاع بعبقريته ان يفعل كل ذلك ، استطاع بعبقريته ان يشخص الداء ويعرف الدواء .. استطاع بعبقريته ان يدرك مواطن الضعف ومواطن القوة في المجتمع فيقضي على الاولى ويطور

يدعون لانفسهم الفضل وتستجيب لهم الجماهير البائسة التي اضناها الفقر وانهكها الاستغلال ، فلا نكاد ترى ذلك الذي يصرخ بصوتها حتى ستجيب له وتسعى نحوه ، وكم هو رائع قول نوح وهو يجيب على هذا النقد الذي ظل السادة يوجهونه حتى الوقت الحاضر الى ابطال الشعب حين قال « ولا اقول لكم عندي خزائن الله ، ولا اعلم الغيب ، ولا اقول اني ملك ، ولا اقول للذي تزدري اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله اعلم بما في انفسهم ، اني اذن لمن الظالمين . قالوا يا نوح ، قد جادلتنا فأكثرت جدلنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين . »

وهذا بطل اخر من ابطال القرآن الكريم ، وهو هود الذي جاء قومه

المحمدية ، ولا سيما شعر عبدالله بن رواحه الذي كان يشيد بالقيم الجديدة ، ويتهم اعداء النظام الجديد بما كانوا يفتخرون به ولم يدركوا قيمة الاتهامات الا بعد ايمانهم بهذا النظام ، فقد كان شعر حسان كما هو معلوم اشد وقعا على قريش من شعر عبدالله لانه كان يهجوهم وفق بعض القيم القبلية التي كانت سائدة قبل الاسلام .

وشهد المجتمع العربي عددا كبيرا من الابطال الذين نذروا انفسهم لرسالتهم السامية ، وساروا الى الامام بعزم لبناء العالم الجديد ، عالم المساواة والخير والعدالة ، مضحين بكل شيء ومؤثرين مصلحة امتهم ومصلحة البشرية جمعاء على مصالحهم الخاصة ، او ان شئت فقل ان

اما العامة ـ فكان مطمحها الاساسي الحصول على القوت وتيسير وسائل العيش . فاذا سدت امامها الطرق وضاقت بها السبل ، فانها تظل تبحث عن ذلك البطل الذي ينتشلها من البؤس المحدق بها وينقذها من الشقاء القابض على خناقها ، لذا فانها مستعدة لان تكون نارا لكل ثورة وحطبا لكل حركة تمرد .

ولا اريد ان ادخل في تفصيلات تحليل المجتمع الاسلامي فان عملا مثل هذا يتطلب كثيرا من الجهد والوقت لا يتيسران الان . الا ان ما يجب ان اقوله وما يتصل بموضوعنا الان هو ان كلا من هذه الطبقات كانت ترسم لابطالها صورا تختلف تماما عن الصور التي ترسمها الطبقة الاخرى. فكان ابطال الطبقة الحاكمة هم اولئك الذين يقبضون على السلطة بيد من حديد ويحافظون على الوضع القائم ويدافعون عنه بعناد ، وكانت الطبقة الوسطى تحرص على تشبث ابطالها فضلا عن ذلك بالعدل والكرم واحترام الشرائع . وهكذا كانت صور البطولة التي يرسمها شعراء الطبقة الحاكمة للملوك والحكام . فهذا الاخطل وهذا جرير ومن لف لفهما من الشعراء يرسمون لنا في قصائدهم التي قالوها في المديح صورا للحاكمين كما يجب أن يكونوا محاولين ان يخلقوا منهم ابطالا لو تتبعنا صفاتهم لرأيناها انعكاسا لقيم الحاكمين انفسهم ولارائهم في السياسة والادارة ، ولاراء الطبقة الوسطى وتفكيرها ايضا . فقد كانت الطبقة الوسطى مستعدة للالتفاف حول كل ما يحقق لها اهدافها التي سبقت الاشارة اليها في العدل والامن والسلام .

ولكن اعقد الابطال هم ابطال العامة ، لان العامة ، كثيرا ما كانت لا تدرك ما تريد ،ولكن استياءها وعدم رضاها ينعكس بصورة تلقائية في سلوكها ولاسيما في اثناء الاضطرابات ، فتخلق لنفسها ابطالا كثيرا ما كانت تتلاشى بطولتهم عند انتصارهم لانهم لا يكادون ينتصرون حتى يستأثروا بالحكم ، فتتبدد الامال التي عقدت عليهم ، وعندئذ تعود العامة لتبحث عن بطل جديد . واذا كان التاريخ قد شهد في القرن الاول الهجري صورا لم تكتمل لابطال عقدت عليهم آمال العامة ، فان الاحداث التاريخية نفسها تثبت بشكل لا يقبل الشك بان الزمن والظروف لم تكن كما يبدو مهيأة لهم لكي يقوموا بدور البطولة بالمفهوم الذي تحدثنا عنه قبل ، قليل تلك البطولة التي تدرك حاجات الاكثرية الساحقة من ابناء المجتمعفتتمثلها وتستوعبها وتسير من مقدمة المجتمع الى حياة جديدة ونظام جديد .

لقد حاول العلويون وحاول الخوارج وسجل هؤلاء واولئك صفحات مجيدة من البطولة محاولين تهيئة حياة جديدة يسودها العدل والرخاء ، ولكن الظروف لم تكن مهيأة لنجاحهم ففشلوا في تحقيق اهدافهم .

وخابت آمال العامة فظلوا يبحثون حولهم عن البطل المنقذ فلم يجدوه بين البشر المحيطين بهم فتعلقوا بابطال خياليين وانتظروا ذلك الذي سيخرج لهم من اعماق الغيب فيقضي على عناصر الفساد ويحقق العدل ويزيل الظلم وينقل المجتمع من حياة التعاسة والشقاء الى السعادة والرفاه وهكذا ظهرت فكرة المنقذ المجهول او المهدى المنتظر الذي سيستطيع بقوة خارقة ان يحقق الاماني والامال وينشر الامن والسلام . ولكنهم ظلوا ينتظرون كثيرا ، ظلوا ينتظرون قرونا طويلة دون ان يظهر ذلك البطل.

على ان تاريخ الاسلام لم يخل من ابطال حملوا لواء الاصلاح الاجتماعي وكافحوا بعناد واصرار ضد الظلم والفساد . ولكن اصواتهم بحت وذهبت جهودهم سدى ، لان ظروف المجتمع الاسلامي لم تكن مهيأة لمثل هذا الانقلاب ، فان وسائل العيش وتوزيعها كانت دائما تضع الطبقة المالكة الغنية القابضة على ناصية الحكم في وضع قوى سواء في الميدان الاقتصادي ام في الميدان السياسي ، يسمح لها بأن تضرب بعنف كل الحركات التقدمية التي تهدف الى قلب العلاقات الاجتماعية وتهديد مركز الحاكمين الاقتصادي والسياسي . واروع هذه الحركات واكثرها تنظيما هي حركة القرامطة التي قامت في جنوب العراق وشملت مناطق واسعة وكان لها في هذه المنطقة نفسها التي نحن فيها الان اي منطقة البحرين وما جاورها دولة من نوع جديد لم يكن في مقدورها ان تقف صامدة امام اعدائها الكثيرين الاقوياء مدة طويلة من الزمن .

وجاء العصر الحديث ، ونمت الطبقة الوسطى ، ونمت الطبقة العاملة وارتفع الوعى بين الجماهير في المدن والريف ، وانبثق الابطال من اعماق الشعب ، فوجدوا من الجماهير سندا ودعامه فساروا الى الامام وسار الشعب معهم متطلعا الى مستقبل جديد وحياة حرة سعيدة .

صلاح خالص



نحن وجميلة

جميلة ! خلف المسافات ، خلف البلادْ ؟
وتُرخين شعرَكِ ، كفّكِ ، دمعكِ فوق الوسادْ ؟
أتبكين أنتِ ؟ أتبكي جميله ؟
أما منحوكِ اللحونَ السخيّات والأغنياتْ ؟
أما أطعموكِ حروفاً ؟ أما بذلوا الكلماتْ ؟
ففيمَ الدموعُ اذن يا جميله ؟

***

*

ونحن منحنا لوصف جراحك كلّ شفه
وجرّحنا الوصفُ خدّش اسماعَنا المرهفه
وأنتِ حملتِ القيود الثقيله
وحين تحرّقتِ عطشى الشفاه إلى كأسِ ماءْ
حشدنا اللحونَ وقلنا سنُسْكتها بالغناءْ
ونشدو لها في الليالي الطويله

*

وقلنا : لقد ارشفُوها الدماءَ ، سقوْها اللهيبْ
وقلنا لقد سمّروها على خشبات صليبْ
ورحنا نغني لمجد البطوله
وقلنا سننقذها ، سوف نفعل ! ثم غرقنا
وراء مدى « سوفَ » بين الحروف النشاوَى وصحنا :
تعيش جميله !



*

وذبنا غراماً ببسْمتها وعشقنا الخدودْ
واذكى هوانا الجمالُ الذي أكلتْهُ القيودْ
وهِمْنا بغمّازة وجديله
أمن جُرحها الثرّ نُطعِمُ اشعارنا بالمعاني ؟
أهذا مكانُ الاغاني ؟ إذن فاخجلي يا أغاني
وذوبي امام الجراح النبيله

*

***

هُمُ حمّلوها جراحَ السكاكين في سوء نيّه
ونحن نحمّلها - في ابتسامٍ وحُسْنِ طويّه ــ
جراح المعاني الغلاظ الجهُوله
فيا لجراحٍ تُعمّقُ فيها نيوبُ فرنسا
وجُرحُ القرابة أعمقُ من كلّ جُرحٍ وأقسى
فوا خجلتا من جميله !

بغداد

نازك الملائكة

غنوة وداد ..

لجميلة بوحيرد

« في صباح اول يوم من العام الجديد ستشرق
اول ذرة مشمسة دون ان تلامس عيون جميلة ... »

يا عين البنت المسجونة خلف القضبان
يا نجمة عطر عربي الطيب

اطلت من شباك الاغصان
يا زغروده

رعشت في صدري فارتعشت ،
للزغردة الاشجان

طيَّرت اليك فراشات الصبح حروف حنان
كي تصبح للبنت المسجونة هالة مجد

وترف على هودجها الطارق ابوابا من ورد
وجعلتك في الصدر « عتابه »

هرعت قبل الاصباح الى كوخ الفلاح

طرقت بابه

قالت ازرعني في جرح الارض مع القداح

صيّرني بين ذراعيك ربابه

وسرت كالرعشة في مطرقة العامل

مسحت عن جبهته العرق النضّاح

وجلت عنه عذابات الليل واوصابه

***

اجميلة كم راود دمع الاحزان

اجفان اخيك المستلقي في قاع السجن

اما يذكر احبابه

لكن الريح ونايات الرعيان

يدفعن الي باسمك من خلل القضبان

منسابا من ناي مجروح الصوت الى ناي مجروح :

« يا لبلابة

تتسلق في مرح مغلول الشوق الى قلبي
شدي بأس اليسقيك الماء بكفيه.

شدي من بأس اخيك الضارب في التيه
شدي من بأس المازال يراود حرف الاعصار

في الليل ويقدح حرف الود بحرف الود
كي يجعل اسمك في قلب الاطفال شعار . »

***

اجميلة كم شبت في صدري النار
وانا اتمثل عينيك

وقد التمعت كالبرق على وجهك سكين الجزار
فاهب من النوم واصرخ محموما يا شار(1)

اغرزها في صدري ياشار

لكني اسمع صوتك يناي عبر الاسوار

هي ذي وهران

ينسرب الدرب اليها كالضحكه

وانا العصفور الساقط من عشي

في برك الماء المرتعش

قلبي قلبي يختض حنينا يا احباب

قلبي المبتل تدحرجه

لحبيبي انسام الغبش

وظلال الجنبد والنعناع على وجهي تهتز

هل يسأل اهلي من طرق الابواب ؟

هل يسأل اهلي من ايقظ نوم الاطفال ؟ :

الريح الخضراء تعود تغني يا احباب

ذرات الشمس تعود تموع على الساحات ، على الاهداب

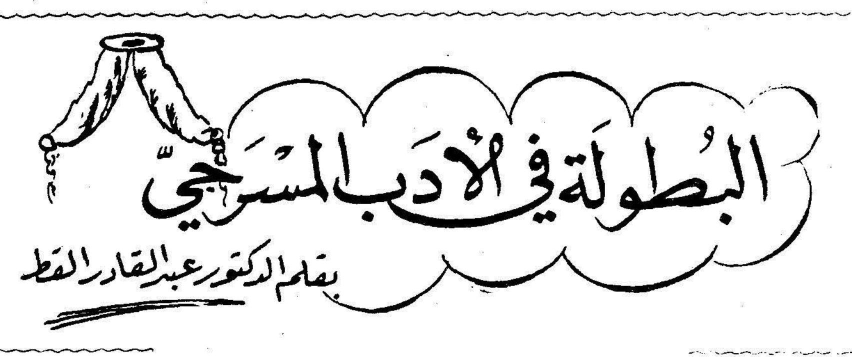
انا ذي .. انا ذي ..

هل يسأل اهلي من طرق الابواب ؟!

بغداد — **صادق الصائغ**

---

(1) ضابط مظلي عذب هنري الغ وجميلة بوحيرد وجميع المناضلين الكبار



في أواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن ، جدت على الادب العربي فنون لم تكن فيه من قبل ، لعل اهمها المسرحية والرواية . وقد تطورت الروايةمنذ ذلك الحين حتى اصبح لدينا فيها الآن من الاعمال ما يقرب في مستواه الروايات العالمية المعروفة ، اما المسرحية فانها ، رغم ما احرزت من تقدم كبير ، لم تزل تعاني كثيرا من مظاهر النقص في كم الانتاج وكيفه على السواء . ففي الوقت الذي نرى فيه الرواية قد تعددت فنونها واختلفت مذاهب كتابها باختلاف ثقافاتهم وفلسفاتهم السياسية والاجتماعية، نرى الادب المسرحي في معظمه لا يزال يمر بدور التقليد والتجربة ، تعوزه الخبرة بمقتضيات المسرح وتنقصه الملكات الفنية الكبيرة . والمفارقة بين تطور هذين الفنين ترجع بلا شك الى طبيعة كل منهما . فمهما يكن من جدة الرواية على ادبنا العربي فان لها فيه جذوراعميقة تتمثل في كثير من القصص والاسمار المنبثة في كتب الادب القديم، كما تتمثل في تلك الملاحم الشعبية الطويلة التي تنطوي على كثير من مقومات الرواية الحديثة على صورة غير متطورة ولكنها قابلة للنماء والنضج . وهي الى هذا فن قائم بذاته يكتمل وجوده بمجرد فراغ الروائي من كتابته ويتلقاه القاريء كما يشاء ، يقرأه في اي مكان واي زمن يريد ، ويتدبر صوره واجواءه وشخصياته على مهل ، وينفعل بها انفعالا ذاتيا لا يتأثر بطبيعة تجاوب الاخرين . وكل ذلك على نقيض المسرحية . فهي مع جدتها على ادبنا الحديث تكاد تكون منقطعة الصلة بالادب العربي القديم انقطاعا تاما . باستثناء خيال الظل والتعزية وهو ضرب من الحوار الممثل عند الشيعة. فليس في ذلك الادب من التراث ما يمكن ان ينتفع به الكاتب المسرحي في بعض جوانب فنه ، بل عليه ان يعتمد في هذا اعتمادا كليا على الاداب الغربية التي سبقتنا الى هذا الفن بوقت طويل . والعمل المسرحي لا يعتبر تاما حتى يمثل على المسرح فتستحيل الارشادات المسرحية الجامدة الى صور مادية نابضة بالحياة والحركة والاضواء والظلال ، وينقلب الحوار المكتوب الى اصوات مسموعة لشخصيات حية تتفاعل مع ما يحيط بها من احداث ومواقف واجواء. ونحن حتى في قراءتنا للمسرحية المكتوبة لا بد ـ لكي نستخرج كل ما فيها من معان وامكانيات ـ ان نتمثل تلك الحركة المسرحية المادية ونتخيل الشخصيات في حركتها وتحاورها وكأننا نراها على خشبة المسرح، وتلك قدرة فنية ونفسية لا تتحقق الا عند من يديم التردد على مشاهدة المسرحيات مشاهدة تجعله قادرا على تجسيم ما يقرأ من ارشادات مسرحية ومن حوار. والمتفرج بعد ذلك ـ على عكس قاريء الرواية ـ يخرج من نطاق فرديته فيصبح جزءا من طائفة كبيرة تتجاوب تجاوبا جماعيا مع احداث المسرحية وشخصياتها . وذلك يفرض عليه ان يكون على قدر خاص من الوعي الفني والاجتماعي يهيئه لتلك التجربة الاجتماعية المشتركه .

كل هذه عناصر قعدت بالمسرحية عن ان تجاري الرواية فيما اصابت من تطور كبير . ولكن كتابها مع ذلك قدحاولوا منذ البداية ان يشاركوا قدر طاقتهم في رسم صور مجيدة للبطولة العربية والانسانية تحفز الهمم وتبث في النفوس ايمانا بالحياة والمستقبل ، ومع ان الرومانسية كانت في مطلع هذا القرن الطابع الغالب على الرواية والمسرحية ،فان الكتاب المسرحيين في ذلك العهد قد استوحوا في بعض اعمالهم مواقف البطولة في تاريخنا العربي وصوروا فيها من المواقف والمعاني ما يمثل ما كان يعتمل في نفوس الناس حينذاك من طموح وثورة على الظلم والاستعمار ، وتفكير في احياء ما كان لهم من مجد تليد . من ذلك مسرحية « صلاح الدين الايوبي » للمرحوم نجيب الحداد التي مثلتها فرقة الشيخ سلامة حجازي على مسرح « دار التمثيل العربي » منذ افتتاحه في اواخر سنة ١٩٠٥ ، وظلت تعيد تمثيلها الفرق الغنائية حتى بعد مماته . وقد كان من تعلق جمهور المسرح العربي بموضوع البطولة وخاصة في شخص صلاح الدين ، ان عاد الى تناول ذلك الموضوع الاديب المفكر فرح انطون في مسرحية اسماها « السلطان صلاح الدين ومملكة اورشليم » . وقد قدمت منذ عام ١٩١٤ واشترك في تمثيلها اثنان من اعلام المسرح هما المرحوم الشيخ سلامة حجازي ، والاستاذ جورج ابيض . ومن المقارنة بين هاتين الروايتين يمكن ان نلمس تطور فكرة البطولة في ادبنا المسرحي في تلك المرحلة الاولى . ذلك ان مؤلف المسرحية الثانية لم يقصر همه على اظهار بطولة صلاح الدين واستثارة اعجاب الناس به اعجابا يجعله عندهم في موضع التقديس والعبادة ، بل اتجه الى اظهار الصراع بين الشرق والغرب ، ودعوة ابناء العالم العربي كله على اختلاف دياناتهم ومللهم الى التآزر والتعاون على طرد المستعمر من كل قطر عربي .

وهكذا تحولت البطولة على المسرح من عبادة البطل لعظمة شخصيته الى الايمان بفكرته . والحق ان هذا التحول يمثل ما كان يجري في المجتمع العربي حينئذ من تطور خطير بظهور الطبقة المتوسطة والعاملة ، وظهور شخصية الفرد العادي التي كانت ضائعة من قبل امام سلطان فرسان العصور الوسطى وامراء الاقطاع وطغاة الحكام والولاة . وهو تطور حدث مثله من قبل في المجتمعات الاوربية فانعكست اثاره على الاعمال المسرحية وبدأت البطولة تهوى من سماء الفرسان والامراء وانصاف الالهة الى عالم الرجل العادي بمشكلاته وكفاحه ومعاناته في سبيل تحقيق الحياة الكريمة لنفسه ولابنائه . وهكذا تحولت المسرحية العربية بالتدريج ـ في خروجها من المرحلة الرمانسية ـ الى معالجة ادواء المجتمع العربي وتصوير المفارقة بين حياة الاثرياء والفقراء فيه والحديث عن معاني الحرية والديمقراطية التي كانت تعتمل في نفوس العرب حينذاك . ولكنها مع ذلك لم تهمل تصوير البطولات العربية القديمة والمواقف التاريخية الحاسمة التي يعتز بها العرب ويستمدون منها الشجاعة والايمان بالنفس . فقد كان الصراع الدائر في المجتمع العربي ذا جانبين يتجه احدهما الى محاربة الاستعمار ويحاول الاخر ان يشارك في التقدم الاجتماعي وخلق وعي بالمشكلات التي تعوق التطور .

على ان المسرحية التاريخية لم تقتصر على رسم البطولات وتمجيدها بل حاول كتابها في كثير من الاحيان ان يربطوا بين الماضي والحاضر ويلقوا على مشكلات مجتمعاتهم اضواء من التاريخ تنبه الناس اليها وتثيرهم عليها ، وتصف في بعض الاحيان طريقة حلها . وهذا في الحقيقة ضرب من الرمز كان المسرحيون يلجأون اليه فرارا من رقابة الطبقة الحاكمة من ناحية واثارة لخيال المشاهد لكي يصل بنفسه بين الماضي والحاضر من ناحية اخرى . ومن ذلك ما فعله شوقي في كثير من مسرحياته وبخاصة مصرع كليوباترا ، وما فعله عزيز اباظة في مسرحيته « غروب الاندلس » . وسواء كان شوقي في مسرحية كليوباترا قد اراد عن عمد ان يشير من خلال احداث التاريخ الى مفاسد عصره ام ـ تحدث كما تقتضي طبيعة الموضوع فانه قد استطاع ان يعقد صلة متينة واضحة بين الماضي والحاضر ويلفت المشاهدين الى ما كان في مجتمعهم حينذاك من شرور تشبه ما يشاهدون على خشبة المسرح ، كقوله المعروف :

حابي سمعت كما سمعت وراعني ... ان الرمية تختفي بالرامي
هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم ... واصار عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئا ... ولو استطاع مشى على الاهرام

وقوله :

انظر الشعب ديون ... كيف يوحون اليه
ملا الجو هتافا ... بحياتي قاتليه
أثر البهتان فيه ... وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء ... عقله في اذنيه



ولم يقتصر تصوير البطولة في المسرحية على الاشادة بالمواقف المجيدة لابطال التاريخ بل حاول الكتاب والشعراء المسرحيون ان يعيدوا تفسير التاريخ بما يتفق مع نزعاتهم الوطنية ويرضي شعورهم القومي ويتيح لهم ان يرسموا لمشاهديهم مثلا عليا من التضحية وانكار الذات . وهكذا رسم شوقي صورة جديدة لكليوباترا غير تلك التي عرفناها في كتب التاريخ والقصص الاوربية ، فجعلها ملكة حكيمة مدبرة قد وضعت لنفسهاسياسة تنفذها في براعة . فنراها تعلل انسحابها من موقعة اكتيوم بانها قد ارادت ان تنتهي الموقعة بتحطيم اسطولي روما فلا يبقى في البحر الابيض الا اسطول مصر القوي . ثم نراها تفسر سلوكها مع الرجال تفسيرا اخر غيرما اعتاد التاريخ ان يقدمه فتقول :ـ

كاني بعدي بالاحاديث سلطت ... على سيرتي او وكلت بحياتي
يقولون انثى افنت العمر بالهوى ... بهيمية اللذات والشهوات
فدى لغرامي بالرجال وحسنهم ... غرام الغواني او هوى الملكات
فليس الغلام البارع الحسن فتنتي ... ولا الرائع الاجلاد والعضلات
ولكن عشقت العبقرية طفلة ... وفي الغافلات البله من سنواتي

ونراها مرة اخرى تحلل شخصيتها المعقدة وتؤكد هذا المعنى ثانية فتقول :ـ

بنت الحياة انا وتشهد سيرتي	ما كنت من امي سوى تمثال
عنها تناولت الرياء وراثة	واخذت كل خديعة ومحال
وقسوة قسوتها ولنت كلينها	واقتست في صدي بها ووصالي
ووجدتها قد خلدت ابطالها	فبسطت سلطاني على الابطال

ثم يصور شوقي انتحارها لا على انه فرار من مأزق لم يكن لها مفر منه الا بالموت بل يعده تضحية مقصودة في سبيل الوطن حتى لا تدنس كرامته في شخص ملكته. فتقول:

أبى لا العزل خفت ولا المنايا	ولكن ان يسيروا بي سبيا
ايوطأ بالمناسم تاج مصر	وثمت شعرة في مفرقيا

وتقول مرة اخرى:

أادخل في ثياب الذل روما	واعرض كالسبي على الرجال
واحدج بالشماتة عن يميني	ويعرض لي التهكم عن شمالي
اذن غير الملوك ابي وامي	وغير طرازهم عمي وخالي
حياة الذل تدفع بالمنايا	تعالى حية الوادي تعالى

يقول عنها الكاهن انوبيس بعد ان انتحرت:

بنتي رجوتك للضحية والفدا	فوجدت عندك فوق ما انا راج
ان تصبحي جسدا فنفسك حرة	وعلاك سالمة وعرضك ناج
سيقول بعدك كل جيل منصف	ذهبت ولكن في سبيل التاج

ثم يختتم شوقي مسرحيته بوعيد قد لا يتمشى مع احداث التاريخ ولكنه يضور شعور انوبيس الذي يمثل في الرواية مشاعر المصريين جميعا فيقول:

قسما ما فتحتمو مصر لكن قد فتحتم بها لرومة قبرا

وقد سقنا هذه الامثلة من تلك الرواية الشعرية لان المسرحية الشعرية قد ارتبطت منذ البداية بالتاريخ، وتجنبت الموضوعات المعاصرة التي قد تخلق شيئا من المفارقة بين طبيعة الشخصيات العصرية والحوار الشعري. والمسرحية الشعرية لهذا احفل بتصوير البطولات من المسرحية النثرية، والبطولة فيها تسمو بالتركيز وبما في الشعر من انفعال قوي وتعبير نفاذ، الى درجات لا ترقى اليها في غيرها من المسرحيات.

على ان صراع العرب الدائم مع الاستعمار وقوى الشر في داخل المجتمع العربي نفسه قد فرض على الكتاب المسرحيين ان يصوروا البطل في معظم الاحيان في صورة نموذجية تجتمع فيها كل صفات البطولات في اسمى درجاتها وتنتفي عنها كل نقيصة يمكن ان تشوب شخصية البطل. لذلك أصبح هؤلاء الابطال فوق مستوى المشاهد لا يمكن ان يتطلع الى الوصول يوما الى مستواهم او يطمع في ان يأتي ببعض ما يأتون من خوارق، وهو لهذا يعجب بهم، ولكنه اعجاب فيه كثير من الروعة والدهشة تملآن عليه نفسه بانفعالات مثيرة قوية، ولكنها غير واضحة لا يعرف الام تتوجه ولا ما تريد أن تحقق. وهكذا غلب على تلك المسرحيات طابع الميلودراما التي تعتمد على المواقف المثيرة والاحداث المعقدة والاسلوب الخطابي الرنان. ولا شك ان تلك المسرحيات قد قامت بدور خطير في تعبئة الشعور القومي وردت الى المشاهدين ثقتهم بانفسهم بعد ان فقدوها تحت وطأة الظلم والهوان الطويل. ولا شك ايضا اننا لا نزال في بعض اللحظات الحاسمة من تاريخنا الحاضر محتاجين الى هذا اللون من المسرحيات الذي يخاطب عواطف المشاهدين بصورة مباشرة ويرسم لهم البطل انسانا كاملا في شجاعته وقوته وتضحيته. وانا لنذكر في هذا المقام الدور المجيد الذي قام به المسرح اثناء معركة بورسعيد وبعدها مما كان له اكبر الاثر في شد ازر المحاربين وبعث الحماسة البالغة في نفوس المواطنين. والحق اننا لا يجوز ان نلتمس في مثل تلك المسرحيات ما ننشده في المسرحيات الاخرى من مقومات فنية خاصة، وقد اعجل كاتبها عن التجويد وتهيأت نفوس مشاهديها في تلك اللحظات الحاسمة الى تلقي ما فيها من معاني الوطنية دون نظر كبير الى جوانبها الفنية. ولا ينبغي ان نغفل في حديثنا عن المسرحيات التي تعالج موضوعاتها معالجة مباشرة ان طائفة كبيرة من المجتمع العربي لا تزال في مستوى فكري واجتماعي لا يسمح لها بالانتفاع بما في المسرحيات الفنية الكبيرة من عواطف وافكار، وانهم في اشد الحاجة الى التعليم في اطار فني يتناسب مع وضعهم الفكري والوجداني. ولا شك ان المسرحيات التعليمية رغم قصورها من الناحية الفنية تؤدي خدمة كبيرة لهذا القطاع الكبير من المجتمع، وهي ضرورة من ضرورات المرحلة الاجتماعية التي نجتازها في هذه الايام.

على اننا مع ذلك يجب ان ننتبه الى ان المسرحيات التعليمية المباشرة رغم اهميتها لمجتمعنا العربي في مرحلته الحاضرة لا ينبغي ان تستأثر بكل اهتمام كتاب المسرح او تؤخذ مقياسا للابداع والاجادة الفنية، والا فسيظل مسرحنا خاليا من الاعمال المسرحية الكبيرة التي يعالج الكاتب فيها من الانفعالات النفسية او المواقف الانسانية ما لا يتصل اتصالا باهرا مباشرا بالقضايا السياسية الكبرى وان ارتبط بها في النهاية ارتباطا وثيقا عن طريق الايحاء واعطاء المشكلات الصغيرة دلالات اجتماعية كبيرة. وسيظل المشاهد العربي — اذا دام اعتماده على المسرحية التعليمية — عاجزا عن ان يتذوق ما في الفن المسرحي الرفيع من مقومات لا يدركها الا ذوق مصقول وفكر مثقف، مما لا يتكون الا بطول التردد على المسرح ومشاهدة روائعه التى تتحقق فيها تلك المقومات. وينبغي في هذا المقام ان نتبين طبيعة البطولة في المسرحية الحديثة وندرك ما طرأ على مفهومها القديم من تحول. فالبطولة شيء نسبي لا يتمثل في ضخامة العمل الذي يأتيه البطل بقدر ما يتمثل في المعاناة النفسية التي يبذلها في سبيل تحقيق ارادته وان تجلت في عمل صغير. فالفلاح الذي يبذل جهدا ماديا ونفسيا كبيرا في اصلاح قطعة ارض صغيرة ويمضي في اصرار وقوة ارادة حتى يتم له ما يشاء يمكن ان يكون موضوعا للبطولة في عمل مسرحي ناجح، والفرد الذي يغالب نفسه لينتصر في محيط حياته المحدود على هوى شخصي يوشك ان

يصرفه عن اداء واجبه كمواطن صالح ، او ليخرج ظافرا من محنة خاصة الممت به ، يمكن أن يكون بطلا تبث بطولته في نفس المشاهد من المعاني ما يمكن ان ينصرف الى كثير من الموضوعات الاجتماعية والمشكلات الانسانية الكبيرة ، التي لا تتصل اتصالا مباشرا بحياته ومشكلته الخاصة . والايمان الذي يترسب في نفس المشاهد من خلال تلك الاعمال المسرحية ذات البطولة الانسانية المعقولة ينفذ اليها بطيئا من خلال وجدانه فيستقر في عقله الباطن الذي هو في الحقيقة خلاصة شخصيته ومنبع سلوكه . ولا شك ان الايمان الوجداني ابقى وابعد اثرا في شخصية الانسان من الايمان العقلي الذي يمكن ان ينهار عند اول برهان يناقضه. ودور الفن الهادف في الواقع يتمثل في خلق ذلك الاقتناع الوجداني ليقترن بما يخلقه المصلحون والمفكرون عند المواطنين من اقتناع فكري يقوم على الحجة والبرهان. وليس معنى ذلك بالطبع ان الفن يمكن ان يخلو من العناصر الفكرية الهامة ولكن تلك الافكار لا بد ان تستحيل في العمل الفني الى احاسيس يتلقاها المشاهد او القارىء بوجدانه قبل كل شيء . ولا شك اننا اذا ادركنا ذلك كله سنجد في الموضوعات الاجتماعية وفي حياة المواطن العادي معينا خصبا لاعمال مسرحية ناجحة تشارك في تطور المجتمع بما تقدمه من الوان البطولة الانسانية في مواجهة المشكلات الحيوية والازمات النفسية المختلفة ، وسننصرف بالتدريج عن المعنى السائد للبطولة على انها تحقيق الاعمال الخارقة التي تستلزم في الغالب قوة جسدية ثم نفسية معجزة فنتجاوز ذلك الى معان نفسية جديدة فيها كثير من العمق والاصالة والواقعية ، وفيها مع ذلك صقل للذوق واثراء للفكر وتنمية للشخصية الانسانية.

وسيتبع ذلك ان يجذب المسرح كثيرا من اولئك الذين ينصرفون عنه لانهم لا يجدون فيه تصويرا صادقا لحياتهم ولا عرضا واقعيا لشخصيات مجتمعهم الذي يعيشون فيه، ولا حوارا بسيطا قريبا من لغتهم التي يتحدثون بها دون ان تكون فيه تلك الخطابية والالفاظ الضخمة التي تفرضها طبيعة البطولة التاريخية او الاسطورية الخارقة .

ولا يفوتنا هنا ان نشير الى تخلف المسرح في كثير من بلادنا العربية فلا نكاد نجد منه في معظم تلك البلاد الا المسارح الغنائية او دور اللهو والتسلية ، ولا نكاد نظفر فيها بمسرح قد زود باحدث الوسائل المادية الحديثة التي تتيح للمؤلف مزيدا من الحرية وللمخرج وللممثل مزيدا من الابداع وللمشاهد من الراحة والاستمتاع ما يصرفه شيئا ما عن دور السينما ويخلق لديه حب المسرح والرغبة في التردد عليه . لقد بدأت النهضة المسرحية في البلاد العربية منذ وقت ليس بالقصير وتآزرت هذه الدول في خلق تلك النهضة تآزرا تمثل فيه ما بينها من روابط متينة واخوة مشتركة . فلقد قام المسرح في مصر اول ما قام على يد رواد من لبنان ومن سوريا وغذاه هذان القطران بأعلام الممثلين والممثلات والمؤلفين من أمثال القباني وجورج أبيض وعزيزعيد وروز اليوسف وفرح أنطون ونجيب الحداد وغيرهم . كما اهدى العراق الشقيق الى مصر ابنا من ابنائه صار بعد الركن الاول للمسرح الفكاهي في مصر هو نجيب الريحاني . وحري بالبلاد العربية في هذه الايام الحاسمة من تاريخها المجيد ان تستأنف تعاونها في هذا السبيل مرة اخرى، فتنتشل المسرح مما هو فيه من تخلف وتدفعه لكي يساير النهضة العربية وتقدم الفنون الاخرى التي بدأت التطور مع الادب المسرحي في وقت واحد ولكنها سبقته بشوط طويل . صحيح ان في الجمهورية العربية نهضة مسرحية كبيرة تتمثل في المسرح القومي الذي توليه الدولة كثيرا من الرعاية والذي يقوم بجهد ضخم في النهوض بالمسرح واجتذاب رواد جدد اليه عن طريق تقديم الاعمال المسرحية الكبيرة من الاداب الاوربية والادب العربي، كما تتمثل في فرق اخرى من الهواة كفرقة المسرح الحر وغيرها . وفي الجمهورية العربية معهد عال للتمثيل يتخرج فيه كل عام عدد لا بأس به من الممثلين والنقاد الذين يضمون الى الموهبة ثقافة واسعة منظمة . ولكننا مع ذلك ما زلنا نأمل ان تمضي هذه النهضة الى ابعد من هذا فيكون لدينا مسارح كبيرة مزودة بأحدث الاساليب الفنية والعلمية، وفرق مسرحية منتشرة في انحاء الجمهورية لا يقتصر نشاطها على العاصمة وحدها ، وبذلك ينمو الوعي المسرحي عند الجماهير ويزيد اقبالهم على المسرح وتعظم قدرتهم على التمييز بين الجيد والرديء من اعماله . كما نرجو أن يشيع هذا الوعي في بلادنا العربية جميعا حتى لا يحرم الجمهور العربي من الاستمتاع والافادة بهذا الفن الانساني الجميل النبيل ، ولن يتحقق هذا الابان تستأنف تلك البلاد كما قلنا تآزرها القديم في هذا السبيل ، فتعقد مؤتمرا خاصا لشؤون المسرح ترسم فيه الخطط للمستقبل القريب من بناء المسارح واعداد الممثلين والمخرجين وتشجيع المؤلفين وغير ذلك . والى ان يتحقق ما نرجوه من عقد هذا المؤتمر الخاص نرجو ان تنظر هيئة المؤتمر في اقرار هذه التوصيات :

١) يوصي المؤتمر بان تهتم الحكومات العربية ببناء المسارح الحديثة وترصد لها في ميزانياتها ما يكفل تنفيذ بنائها في اقرب وقت .

٢) ان تنشيء الحكومات العربية معاهد للتمثيل والنقد حيثما امكن او ترسل بعثات الى البلاد العربية والاوروبية للتخصص في هذين الفنين .

٣) ان تنظر الدول في مكافأة الممثلين والمخرجين بما يتناسب مع مواهبهم وما يبذلون في فنهم من جهد .

٤) أن تشجع الدول المؤلفين وتمنحهم مكافآت لا تقاس بما تصيب اعمالهم المسرحية من نجاح او فشل مادي بل بمقدار ما تقدمه هذه الاعمال من مشاركة في تطور فن المسرحية . وتكون الدول لهذا الغرض لجان قراءة تكون مهمتها كشف الملكات الجديدة عند الناشئين من المؤلفين ، وتقديم الاعمال الممتازة عند الناشئين والكبار على السواء.

البطولة في السينما

اما السينما فقد غلب عليها التقليد منذ نشأتها الاولى. وهي لامكانياتها الواسعة في تصوير الاحداث بكل جوانبها وتفصيلاتها تعنى عناية كبير بالبطولات التي تتمثل في مواقف مادية تبين قوة البطل الجسدية وتثير لهفة المشاهد على مصيره . ولكن مصير البطل في السينما يكاد يكون دائما معروفا من قبل ، فهو لا بد ان يخرج منتصرا من كل مأزق ويسحق اعداءه او يقهر ما يحيط به من ظروف سيئة. وذلك على نقيض المسرح الذي تقتضي امكانياته المادية المحدودة ان يكون اول همه تصوير الاحوال النفسية والعواطف والافكار الانسانية في اضيق نطاق مادي ممكن. والحق ان المواقف المادية في المسرح ليست عند الكاتب المسرحي المجيد الا مجرد مفاتيح لتلك الاحوال والعواطف والافكار .

وصورة البطل في السينما العربية تستمد معظم سماتها من البطولات الاجنبية وبخاصة الامريكية ، وهي لذلك رغم ما قد يكون فيها من اثارة لا تبني شخصية المشاهد القومية بناء سليما يقوم على مخاطبة ما في نفسه من قيم موروثة وطريقة احساس وادراك تنبع من البيئة العربية التي يعيش فيها . صحيح ان بعض الافلام العربية قد صورت شيئا من البطولات العربية التاريخية كصلاح الدين مثلا ولكن هذه الافلام لم تحرص على الاصالة ولم تول اعمالها ما هي جديرة من عناية وجهد فجاء معظمها مجرد نسخ مشوهة للافلام الامريكية في مثل ذلك الموضوع.

ومما يؤسف له ان كتابنا قد عزفوا منذ البداية عن الكتابة للسينما رغم انها قد اصبحت الفن الجماعي الاول للمجتمع العربي ، ورغم مالها من تأثير هائل في نفوس الشباب يغير من سلوكهم وشخصياتهم وحتى ازيائهم في كثير من الاحيان . وقد بدأ المنتجون والمخرجون يحسون أخيرا بأن القصة الجيدة هي الاساس الاول لصناعة السينما وان السينما بدونها ستظل ضربا من البراعة الفنية في التصوير والتمثيل لا ينفذ الى صميم الحياة ولا يهز نفوس المشاهدين، ولا يجلب عليهم هم في النهاية ما يبغون من ربح . وهكذا اخذوا يبحثون عن القصة الجيدة في اعمال كبار ادبائنا ونوابغ الشباب العربي فيحيلونها الى نصوص سينمائية استطاعت أن تكون اساسا لبعض الافلام الكبيرة الناجحة. كما بدأ كثير من الكتاب المعروفين يقبلون على الكتابة لهذا الفن ويصورون فيها الوان البطولة العربية التاريخية والاجتماعية على السواء . ومن ذلك فيلم «رد قلبي» للاستاذ يوسف السباعي ، وفيلم جميلة للاساتذة نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي ويوسف السباعي.

وقد غلب على السينما العربية في معالجتها للمشكلات الانسانية والاجتماعية الحدة والمثالية والمواقف المتكلفة والحلول غير الطبيعية . على أنه من حسن الحظ ان القائمين بامرها قد بدأوا يدركون ان المشاهد العربي قد اصبح انضج من ان يتأثر بتلك الالوان الفنية الساذجة فاتجهوا في كثير من أعمالهم اتجاها واقعيا سليما ، وبدأوا يدركون ان البطولة قد توجد في الكوخ كما توجد في القصر ، وقد تتمثل في جهد العامل او الفلاح الصغير كما تتمثل او خيرا مما تتمثل في عظمة الامراء والفرسان وجراة اللصوص والمنحرفين. وانا لنرجو أن تمضي السينما العربية في هذا الاتجاه لتشارك في بناء مجتمعنا العربي الجديد مقدرين في الوقت نفسه ان شعبية هذا الفن تقتضي كثيراً من الانتاج الذي يهدف الى تسلية المشاهد فحسب ، لكننا مع ذلك نرجو ان لم تنطو هذه التسلية على فائدة نفسية او فكرية ، الا تنطوي على الاقل على ضرر يصيب المشاهدين من الشباب بالشذوذ والانحراف . كما نرجو من كتابنا ان يقبلوا على الكتابة لهذا الفن الخطير ويولوه من العناية ما يتناسب مع تأثيره الضخم في شباب المجتمع العربي وكهوله على السواء.

عبد القادر القط

الجزّار



لن تستطيعْ
أنْ تستردَّ النار ، وَكَرُ البوم ِ
أفرخ في ضميرٍ باع نارهْ
ومضى يبيعْ
لحماً تبعثَر في الشوارعِ
لحمَ لبنان الصريعْ

* * *

تُرغي بحب الله والانسانِ
والقيَمِ التي تلِدُ الحضارَهْ
وأرى خلال الرغوة الصفراءِ
مبخرةً ، وكبريتاً تجمَّر في مغارَهْ
ومؤامراتٍ ، واختناقَ الليل في
بيروتَ ، ليلِ الغدر والصبح الشنيعْ ،
لن تستطيعْ
أن تستردَّ النار ، وَكرُ البوم ِ
أفرخَ في ضميرٍ باع نارَهُ
ماذا يفيدكَ بعد موت النسرِ
لو ضخَّمْتَ صدركَ ، لو تغطرستِ العبارَهْ

* * *

لبنانُ سوف يشدُّ يُمناهُ على اليُسرَى
يعودُ ، تضمُّهُ الأمُ الكريمَهْ
ولسوف تحصد ما زرعتَ خناجراً
إنْ عدتَ ، لا ، هيهاتِ ، في المنفى الغنيمَهْ
ولسوف ينبت في عيونك شعْرَ
أرملةٍ تولولُ ،
سوف تنهشك الجريمَهْ

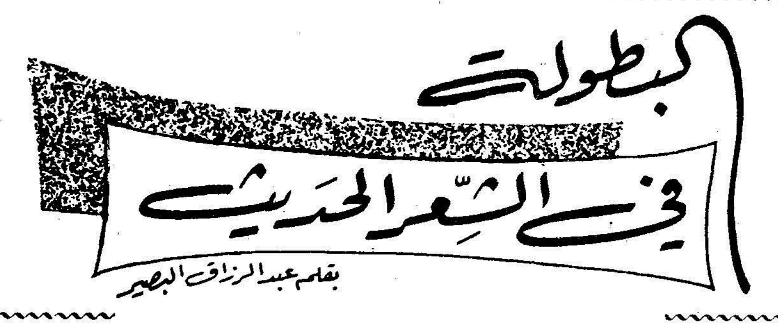
* * *

يا من خصَاكَ الفلسُ ، لا ، لن تدّعي
النبت الطريَّ بأرضنا ، لن تستطيعْ
وحصادُ عمركَ حفرةٌ جرباءُ
يلعنها الربيعْ
لن تعرف المرج الذي يحبو
ويفرش بيتنا غبَّ الصقيعْ
والشمس تأوي من ضباب القطبِ
تدفئها ، وتمضي مطمئنَّهْ
أنَّا بغيبتها نحرُّ الجمرة الخضراءَ
نحرق عمرنا من غير منَّهْ

* * *

يا من خصاكَ الفلس ، هل عوَّضتَ
بالشحم المرفَّهِ ؟
طال ظلُّكَ واستدارْ
تنمو ،
وشرشُكَ في جدار المومسِ
الحبلى بلاهوتٍ ، بأفيونٍ ونارْ ،
السيل يصخب في العروقِ ،
وليس يعصمُها ويعصمُك الجدارْ

خليل حاوي



نعتقد ان الايمان بعقيدة من العقائد او بهدف من الاهداف اكبر الاثر في خلق البطولات في بعض الافراد . وليس من شك ان هناك عوامل اخرى في خلق البطولات ليس هنا محل ذكرها . فالبطل لا يكون جريء الجنان مستعدا للتضحية الا اذا كان مؤمنا بعقيدة من العقائد او بهدف من الاهداف .

ولعلنا لسنا بحاجة الى القول بان هذا الايمان لا يتحقق للفرد او للجماعة الا اذا ادركت قيمة الحياة، وهذا لا يكون الا اذا حصل الشعب على نوع من الثقافة . من اجل هذا راينا مطلع القرن التاسع عشر يكاد يكون خاليا من البطولات وهو بالتالي خال من شعر البطولة لان الشعر صورة لعصر الشاعر . والسبب في ذلك كله يرجع الى ان الاتراك الذين سيطروا على البلاد العربية باسم الدين قد اشاعوا بين الناس الجهل واجتهدوا في فرض اللغة التركية ، الامر الذي كاد ان يشغل العرب عن تاريخهم وآدابهم ولغتهم فانصرف الشعراء الى التافه من الاغراض كالتهنئة بالمولد او التهنئة بالزواج او بسلامة وصول احد الحكام ، الى غير ذلك من الاغراض التافهة ، مما ادى بالشعراء الى التلاعب بالالفاظ ، فشاع بين الناس ذلك الشعر العظيم اللفظي الذي لا يصور شيئا غير الحياة الفارغة التي لا غناء فيها فانتشرت الخرافات بين الناس مما ادى الى وقف العقول عن التفكير الجدي . وظل الناس على هذا الحال حتى جاء نابليون بحملته المعروفة الى الشرق وكان قد جاء معه جماعة من المستشرقين اخذوا في بث الثقافة بين الناس فاحدث هذا تاثيرا قد لا يكون قويا ولكنه كان منبها بعض الشيء، ثم زاد الاتصال بالغرب عن طريق البعثات والرحلات فاطلع العرب على علوم لم يعرفوها من قبل وادركوا فيما ادركوا نظم الحكم واساليب السياسة وعرفوا ان للفرد حرية يستخدمها في ابداء الراي والحصول على الحقوق التي تكفل له المساواة وتضمن العدالة . كما عرفوا ان الشعوب لها رايها الذي يؤخذ به في شتى الشئون .

لقد عرف العرب بكل هذا في علوم الغرب وانظمته وترجموا منه ما استطاعوا الى لغتهم العربية فاطلع عليه الجيل في كل مكان ووعوا فيما وعوا ان لهم حقوقا يجب المطالبة بها فسلكوا اليها شتى السبيل ولم تسلم طرائقهم من العقبات التي حالت بينهم وبين ما يريدون . وهنا كانت البداية في الكفاح بل البداية في ظهور الابطال على مسرح الحياة العربية .

ونعتقد ان هناك ناحية اخرى لها الاثر البالغ في تطوير الاحساس بالعزة والانتفاض على المظالم ، تلك هي طبع التراث العربي القديم . ويقيننا ان الحرية التي تطلع اليها العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي صورتها بعض الاشعار كانت نتيجة لذلك التطور الذي بلغه العرب بسبب العاملين الذين اشرنا اليهما سابقا . ومنذ ذلك الحين بدات معان جديدة تظهر للناس كفناء الفرد في الجماعة وحرية الراي فاصبحت الاشعار التي تحتوي على هذه الاغراض هي الاشعار التي تهز القلوب وتاخذ بالالباب وتضيء للشعب العربي افاق الحق بل آفاق الحياة .

واول باب طرقه الشعراء في هذه الناحية هو تذكير العرب بما لهم من ماض مجيد يدل على حضارة عريقة فمن ذلك قول المرحوم ابراهيم اليازجي :

وما العرب الكرام سوى نصال   لها في اجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل   وعن آثارنا اخذ الانام
ونحن اولو المآثر من قديم   وان جحدت مآثرنا اللئام
فقد علم العراق لنا قديما   ايادي ليس تنكرها الشآم
وفي ارض الحجاز لنا فيوض   يسيل لها الى اليمن انسجام

وهذا الفخر الذي نراه في تلك الابيات لا يرجع سببه الى عنصرية الشاعر وانما يرجع الى التحدي الكبير الذي كان يقوم به الاتراك ضد العرب فقد كان الاتراك يحتقرون العرب اشد الاحتقار الامر الذي دفع بالشعراء الى الافتخار بالماضي المجيد .

ثم لجا الشعراء الى اتجاه جديد ارادوا به استنهاض الهمم والثورة على الحكام والمستبدين ومن ذلك قول اليازجي :

دع مجلس الغيد الاوانس   وهوى لواحظها النواعس
اين النعيم لمن يبيت على   بساط الذل جالس
ولمن ازمته بكف عدا   ه يظلم وهو آيس
ولمن تباع حقوقه   ودماؤه بيع الخسائس
ولمن يرى اوطانه   خربا كاطلال دوارس
فالترك قوم لا يفوز   لديهم الا المشاكس
او لستم العرب الكرا   م ومن هم الشم المعاطس
فاستوقدوا لقتالهم   نارا تروع كل قابس

ولقد كانت الاسباب الممهدة لظهور المعاني السابقة في الشعر العربي ممهدة ايضا لظهور ابطال الراي والمصلحين في كثير من البلاد العربية كقاسم امين ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وجمال الدين الافغاني. فقد حفزت مواقفهم البطولية نفوس الشعراء فصوروها في رائع من القول . من ذلك قول شوقي في رثاء قاسم امين محرر المراة ..

شغلتك في دنياك اربعة   والمرء من دنياه في شغل
حق تناصره ومفخرة   تمشي اليها غير منتحل
وتختلف الدروب وسالكوها   ما للحكيم بهن من قبل
وفضيلة اعيت سواك فلم   تمدد اليه يدا ولم تصل

وقد افصح الشاعر محمد مهدي الجواهري في قصيدته الرائية بذكرى السيد جمال الدين الافغاني : ـ

وتختلف الدروب وسالكوها   وغايتها دنوا وابتعادا
ويختلف البناة ورب بان   بنى من فكر صرحا وشادا

وهكذا كانت بطولة الراي شعلة اضاءت لرجال السياسة سبيل النضال فوقفوا يجاهرون بارائهم بوجه المستعمرين ، ويدفعون الشعوب الى المطالبة بحقوقهم .. وكان الشعر مرآة انعكست عليها هذه البطولات السياسية ووجد فيها القوم تصويرا لامالهم فتغنوا بها في كفاحهم ...

ومن اولئك الزعماء مصطفى كامل ومحمد فريد ويوسف العظمة ..

من ذلك قول شوقي في رثاء مصطفى كامل مبينا اثره في جمع الشعب على كلمة واحدة :

قم تر القوم كتلة مثل منومة الصخر
جددوا الفة الهوى والاخاء الذي شطر
لبس للخلف بينهم او لاسبابه اثر
الفتهم روائح غاديات من الفم

وما كاد هؤلاء الزعماء يرفعون راية الجهاد حتى ثار الشعب العربي في كل مكان فاقلق الدخلاء ولم يجدهم بعد ذلك الوعيد او الفتك بالثائرين ، وكان ذلك كله مؤذنا بنيل الحرية والتخلص من الاستعمار .

وجاء الشعر العربي بعد ذلك مصورا لاحداث جسام قامت في البلاد العربية في بسالة شعبية رائعة ، وهي تلك الثورات التي عرفتها مصر والعراق والشام ، ومن ذلك قول محمد الشريقي من قصيدة نظمها فيسجنه بدمشق سنة ١٩١٦ :

لله شبان البلاد وشيبها باسم البلاد على الجذوع تعلق
يتقدمون الى الردى بتبسم لا يرهبون الموت وهو محقق
نقموا علينا ان نحب بلادنا والحب في شرع الاله مصدق

وبهذه الثورات الشعبية ، التقت البلاد العربية في مجابهة المستعمرين ووقفت صفا واحدا تدافع عن حقوقها وتطالب باستقلالها .

ولقد سقط في هذه الثورات عدد من الابطال الشهداء كان لمصرعهم رنة اسى في الشعر ، واذكاء للنقمة على المستعمرين المستبدين .

ومن ذلك قول الزهاوي يرثى شهداءالشباب العربي في الشام وقد اظهروا عند تقديمهم للمشانق جراة وبسالة ليس لهما نظير :

على كل عود صاحب وخليل وفي كل بيت رنة وعويل

وفيها يقول :

دنوا فرقوها واحدا بعد واحد وقالوا وجيزا ليس فيه فضول
فمن سابق كيلا يقال محاذر ومستعجل كيلا يقال كسول

الى ان يقول :

لعمرك ليس الامر الامر ذنبا اصابه قصاص ولكن يعرب ومغال

ولم يكن تصوير الشعر للفدائيةشيئا طارئا علىحياتنا الادبية فقد عرفت الحياة الوانا منها ايام الفتح الاسلامي ، ولقاء الفرنجة ، ولكن هذه التضحية بالنفس في سبيل المبدا قد خفت في عهود الظلام والاستسلام ثم عادت من جديد الى حياتنا العربية في قوة بالغة وجاء شعرنا الحديث بصوره المبدعة مصورا هذه الفدائية في سبيل الوطن العربي في كثير من الجهات . تلك الفدائية التي اشترك فيها الرجل والمراة على السواء ومن ذلك يقول الزميل الشاعر سليمان العيسى :

ايـن مني عينان ، خلف جدار السجن ، مكحولتان بالكبرياء
وجبين والف نجمة صبح لالات فوق جرحه الوضاء
وفم .. تعجز الحروف وتعيا فيه عن محو بسمة زهراء
بسمة .. لخصت بها شرف التاريخ صديقة من الصحراء
يلعق الوحش جرحها ، فترد الطرف كبرا في صامت من اباء

وهي منهولة ، اتبلغ يوما مثل هذا نذالة الاحياء
اين مني جميلة ... تزأر الساحات من صمتها بالف حداء

اما الصفة الواضحة التي لم يسبق لها مثيل على ما نعتقد في تاريخ البطولة ولم يحدثنا عنها الشعر في اي عهد من العهود فبطولة الشعوب، وهي بحق تعد آية هذا العصر . فلم يعد امر البطولة مقصورا على القادة والحكام ، وانما اصبحت الشعوب بعد شعورها بنفسها وايمانها بقدرتها هي التي تجالد وتقاتل وتصد ايدي المعتدي محتملة من دمها ومالها وعتادها عبء الجهاد . وهذا هو شعرنا الحديث يتحدث عن البطولة الشعبية في الجزائر وبور سعيد فيحسن الوصف ، ويكشف عن معدن العروبة الاصيل ، يكشف عن الجراة والفداء والتصميم التي اظهرتها مساويء الاستعمار البغيض ومهدلها ارتفاع المستوى الثقافي بين الشعوب .

كقول الاستاذ محي الدين فارس :

ايه يا سارق الشعوب تقدم ساحة الموت ، واللقاء تقدم
ههنا .. ههنا حساب عسير ولقا مر وشعب تجهم
وعناق مع المدافع حتى الفجر .. حتى اراك شلوا محطم
ما لعينيك راغنا تتحاشاني وفي لغرك الحديث تلعثم
انت مهما حشدت اسطولك الراعد .. ملء البحار .. لا اتهدم

الى ان يقول :

وغدا بور سعيد تسكنك الافراح .. يبنيك كل قلب .. ويلثم
لن تموتي ... لن تهزمي .. لن تكوني غير فجر على العروبة حوم

ومن الجديد في شعر البطولة ما نراه في شعرنا الحديث من وصف للبطولات الاجنبية فهذا شاعر يمجد جان دارك ، وهذا ما يصف مواقف ستاليغراد وذاك يتحدث عن انتصار الروس على الاتراك وهكذا ...

ويقيننا ان هذا اللون من الشعر جاء وليد الاتصال السريع في العصر الحديث ، وارتفاع الشاعر في خياله الى مرتبة من الانسانية تجعله يمجد المواقف الخالدة انى كانت، وقد يدفع اليها في بعض الاحيان اتفاق الاهداف السياسية او العداوة الناجمة من استعمار دولة من الدول للشعوب الضعيفة .

ونعتقد ان شعراءنا العرب يهدفون من وراء هذا كله الى ضرب الامثلة لاستحثاث الهمم ودفع الشباب الى التضحية في سبيل البلاد اخذين من هذه الاشعار مثلا عليا يحتذونها في جهادهم وهذ هو الشاعر عمر ابو ريشة يتحدث عن بطولة جان دارك :

نادت بفيلقها البتول وهز ساعدها المهند
وعدت الى حرم الجهاد السمح بالعزم الموطد
فتلاحم الجيشان فاندلع اللظى والهول ارعد
هذا يفر وذا يكر وذا يكب وذاك يصعد

ومن واجبنا ونحن نتناول شعر البطولات في العصر الحديث ان نشير في شيءمن الايجاز الىلونمن الوانالشعرذكر اغلبالنقدة ان شعرناالقديم والحديث خلو منه . وذكرت قلة منهم ان ادبنا فقير فيه ـ ان صح هذا التعبير ـ ذلك هو شعر الملاحم التي تصف المعارك وتتناول البطولات التاريخية في افاضة واستقصاء وبطريقة موضوعية ليس فيها لشعور الشاعر وذاتيته مجال . قال النقدة ومؤرخو الادب ذلك لانهم لم يجدوا فيما وصل الينا من تراث قصائد طوالا تصف الاحداث التاريخية وتعدد اعمال الابطال كتلك التي رويت عن اليونان والرومان في العهود

القديمة . نعم لقد دافع بعض الادباء عن هذا الاتهام قائلا ان الحروب التي دارت بين العرب قبل الاسلام لابد وانيكون الشعراء قدنظموا في وصفها الملاحم ، ولكنها ضاعت فيما ضاع من تراث ولم تع حوافظ الرواة الا القليل من ابياتها . وقد عد هؤلاء بعضا من شعر الفرزدق والاخطل وجرير وشعر ابي فراس وابي الطيب المتنبي من شعر الملاحم وقالوا ان الذين انكروا على الشعر العربي اشتماله على هذا اللون من الموضوعات لم يعرفوا تماما معنى الملاحم الشعرية .

وسواء اصح هذا القول ام لم يصح - فاننا لا نجد في شعرنا العربي اتجاها واضحا الى تسجيل الاحداث التاريخية البطولية - وقد كان اعتذار المعتذرين عن ذلك في كثير من الاحيان انما هو اعتماد الشعر العربي على القافية والتزامها من اول القصيدة حتى نهايتها مما حد من طولها وجعل الشاعر يتصيد الكلمات التي تصلح لها تصيدا بعد ان تبلغ القصيدة عشرات الابيات . فكيف يستطيع اذن أن ينظم الملحمة في الاف من الابيات وهو مقيد بقافية واحدة . وقالوا كذلك في الاعتذار ان الملاحم نوع من التاريخ الادبي وهو لا يتهيا الا بعد ان يصيب الشاعر قدرا من الثقافة يمكنه من ذلك . ولم يكن ذلك في استطاعته قبل الاسلام . وبعد فما راي شعرائنا في الوقت الحاضر ومادة التاريخ البطولي متوافرة واحدث البطولات في عهدنا الحاضر تغرى بالتسجيل ومعين الثقافة فياض. على ان القافية التي قيل فيها انها حدت من الطول لم تعد امرا يعتمد عليه في الاعتذار بعد ان عدد شعراء الاندلس منذ عهد بعيد القوافي في الموشحات ونحوها . وخرج المجددون في زماننا هذا علىَ قيود القوافي فعددوها في القصيدة التي لا تتجاوز عشرين بيتا ؟

انا لا انكر ان عددا من شعراء العصر الحديث قد حاولوا نظم الملحمة وها هوذا الشاعر احمد محرم والشاعر سليمان العيسى ومن قبلهما الشاعر حافظ ابراهيم ينظمون في هذا اللون من الشعر فيجيدون . ولكنا لا نقنع بمثل العمرية ونحوها ولا نجد غناء فيما كتبه الشعراء في هذا الباب .

ان تاريخنا القديم والحديث غني بالبطولات ونود ان يخلدها الشعراء في صور رائعة من البيان تهز القلوب وتعيد ذكريات النضال وتدفع الجيل بعد الجيل الى التغني بها فتزيدهم حماسة ، وتمكن لهم من المجد الذي يستاهلون . وقد يكون من حقي كعربي ان اتوجه الى المؤتمرين الادباء طالبا منهم التوصية بعقد المسابقات في موضوعات خاصة من البطولات العربية ينظمها الشعراء في قصائد طوال تكون موضوعا للدراسة في مدارسنا الثانوية وغيرها بسائر البلاد العربية .

ومن الظواهر الواضحة في ادبنا الحديث تلك الاناشيد الحماسية التي تدعو الى الجهاد وتذكر بالبطولات ، تنشدها الجماعات بل ينشدها الشعب باسره . وقد اتجه الشعراء الى نظمها في عصرنا هذا ليهيئوا الجيل تهيئة قومية تذكره دائما بوطنه ، وتذكي في النفوس روح الحماسة حتى يتكتل الشعب في جهاده . وليس بعيدا عن الاذهان تلك الاناشيدالتي يرددها شعب الجزائر في نضاله والاناشيد التي رددها الشعب العربي من المحيط الى الخليج ، وكان لها اكبر الاثر في اذكاء روح النضال في المجاهدين ببور سعيد .

لهذا اقول وانا في هذا المؤتمر الكريم ان من واجب الادباء ان يوصوا باختيار نشيد قومي عربي يصبح شعارنا جميعا في المناسبات المختلفة على ان يكون مصورا لاهدافنا معبرا عن امانينا ومفصحا عن بطولاتنا ، وان هذا النشيد سيكون بمثابة ايذان بسعينا الحثيث نحو الوحدة الشاملة وهي آتية لا ريب فيها ان شاء الله .

عبد الرزاق البصير

ظمأ

يا دجلة
لو نهلة
من وردك
تطفيء نيران الغله
في اعماقي
لو نسمه
من هبات اصيلك
تلحم جرحي ،
تلثم وجهي ،
تغسل اشواقي
لو نجمه
من آفاقك
تومض بسمه
في آفاقي
اواه يا دجله
اواه كم انا مشتاق ،
كم انا ظامىء
امس رايتك في احلامي
وكأن قد عدت صبيا اخرق
يرتاد وفتيان الحاره
شطآنك .. لا يعرف غير اللعب
واللف مع الصحب
من درب ، متربّ الوجه ، الى درب
امس رأيتك والالام
كانت تقتات على جسمي
تستل عظامي
وانا ...
لهفان .. لهفان .. ظامىء
يا دجلة للنهله
من وردك تبتل جراحي ،
تمسح الامي ....
اواه كم أنا مشتاق يا دجله
اواه كم انا ظامى !
كم انا ظامى !!

مصح ادوار السابع بانكلترا

حسن البياتي

عيد الميلاد في بغداد

تموز اقبل يحمل الاوراد
ليحط في بغداد في بغداد
كالطائر الفجري ، والاعياد
مشعولة في ليلة الميلاد
من غير شمعات ولا ابعاد
في قلبه تتورد الانشاد

بغداد تنزع ثوبها الاسود
وتموج في بحر من البسمات مثل سفينة في البحر
وتطل في صحرائها السنة الجديده
كالبدر
فتظل في الصحراء
كالواحة الفيحاء
شباك عطر في هواء الصيف قبل الفجر

***

بغداد عالمنا المشع اللون كالجنه
فتنه
لا تشعلي شمعه
في ليلة الميلاد
في ليلة الميلاد ما معنى اشتعال
شمعه
والكوخ يغمره ضياء الكهرباء
قد جاء من اطلالة العام الوليد
هذا الضياء
قد جاء
من خلف اعوام مكدسة على اجفاننا
اني هنا
اجد السماء نظيفة السنا
بالامس كانت فوقنا
سقفا عريضا ، منتنا
واليوم ، قلبا لينا
ليس المساء هنا مساء
ما دامت الفرحه
تركض في البسمة والكلمة والضحكه
اوجهنا تلمع كالمصابيح
هذا الظلام العطر الصبيح
اجمل ما رايت في عمري من الاوقات
هيهات ان يراه من فات
مخلفا وراءه الغبار والآهات
كالفارس الضارب في القفر
هيهات
يا فارسا من الدخان

تهنأ بالنصر
يا مضرم السواد في الخضره
يا مشعل البترول في الزهره
ليس على شجيرة الميلاد زهره
ليس عليها من دم قطره
كما عشقت انت الاف النساء يا امير
انا عشقت واحده
فقيرة ، بنت فقير
واطبقت عيونها ونامت
عند مساء فيه روح الاغنيات فاضت
عند مساء
فيه سمات الامسيات القادمه
هيا ، اهنئي يا نائمة
النوم حتى امس غالي الثمن
واليوم عمر الزمن
اصبح جدا طويل
وتفتحت ازهاره ملء الدنى
ثقلا على الاغصان يزحمه الجنى
مخضلة الاوراق في عصباتها
تسغ من العرق المدمى والضنى
وشجيرة الميلاد غض عودها
من بعد ما ذبح السلام وكفنا
ودم المحبة سال ابيض خابطا
في حمرة الجرح الذي في قلبنا
ماجت على احداقنا
متلألآت بالمنى
خضر الحدائق وانتهى عمر العنا

***

اذا افقنا في الصباح الجميل
سنلمح النخيل .. والعصافير
وساقط الندى على الازاهير
والحلم المنسي في الاساطير
كاللؤلؤ المغبر في المقاصير
نلمحها جميعها تشع في بغداد
في ليلة الميلاد
والعالم المسعد
والامل الابعد .
بغداد تنزع ثوبها الاسود في ميلاد
تموز ذي الاوراد .

موسى النقدي
بغداد



البطولة في أدب الأطفال

بقلم احمد ابو بكر ابراهيم

قد يظن الناس ان ادب الطفولة هين المكانة ، لما يبدو فيه من سذاجة الفكرة ، وقرب الخيال والسهولة المطلقة في الاداء ، وقد يكون اذا قرأوا ما ينطق الطير والحيوان : انها بطولة حقا ولكنها بطولة الديكة والثعالب والغربان يصورها الخيال في دنيا الخرافة ، فما ايسر البطولة اذا قامت بها العجماوات ، وروت احاديثها الطيور والحيوانات .

وقد يستهين النقدة بادب الصغار ، يرونه دون اقدارهم فلا يهبطون الى ميدانه ، اشفاقا منهم ان يتهم نقدهم بالعبث ، ويرمى بيانهم بالضعة والهوان . وهذه الاوهام هي التي صرفت ادباءنا الاعلام عن الاهتمام بامر هذا الادب ، فلم يتناوله منهم الا قلة نادرة : الفوا فيه بعض القصص ووضعوا للابناء بعض المقطوعات التي تناسب ادراكهم . ولكنهم ضنوا عليه بالنقد والتوجيه ، فلم يتعرضوا له مؤرخين ، ولم يبينوا للناس غاياته واهدافه ، ولم يضعوا له القواعد والاصول . تلك الموازين التي تهدى الى ما يصلح منه وما يصلح لمراحل الطفولة المختلفة ، ومن ثم كثر متكلفوه وصانعوه وامتلات مكتبات الاطفال بالغث والسمين والضار والنافع ، ووقف المربون من هذا الانتاج في اغلب الاحيان موقفا سلبيا ، فلم يقطعوا فيه برأى وانما تركوا امره الى الطفل يلتمس منه ما يشاء ، فاصاب من قراءته النفع والضرر والخير والشر على السواء

وعندي ان ادب الاطفال اهم الاداب جميعا اذا كان قياس الادب باثره الباقي في النفوس فهو بذلك يعد الادب الموجه للجيل الصاعد ، وغارس العادات ، ومقوم الاخلاق ، وموضع امل الاباء والمجتمع والامة . بل يعد ادب الحياة الصانع لمستقبل الحياة .

ولست اشك في ان نقد هذا الادب من الصعوبة بمكان على الرغم من السهولة البادية في خياله واسلوبه . ذلك لان احكام الناقد في كل صورة من صوره ترتبط بالدراسات النفسية والاخلاقية اكثر مما ترتبط باصول النقد والبلاغة ، والعارفون لاتجاهات الطفولة يعلمون ان الادب الرفيع قد يكون اسوأ ما يقدم الى الاطفال لانه ببلاغته وبعد مراميه ، يوقعهم في حيرة ويعقد عليهم المسالك ، وقد ينفرهم من الادب مدى الحياة . ولا بد لنا اذا شئنا التأليف الادبي للاطفال او اردنا نقد مايقدم اليهم من آداب ان نتعرف على هذه النفوس الغضة ونلم باتجاهاتها ، حتى يكون عملنا واقعا موقعه من الصواب . ولست مبالغا اذا قلت ان الدراسة النفسية ستقفنا على امر عجيب : سنعلم ان الاطفال شعراء العاطفة، وليغفر لي الشعراء اذا قلت : ان الطفولة تلتقي بالشاعرية في كثير من صفاتها : تلتقي بها في غلبة الخيال ، ورقة الاحساس ، وحدة العاطفة والاقبال على الطبيعة ، والنفور من القيود التي تحد الحرية ، وفي الايمان بالمثل التي يصورها الخيال سامية عالية ، فالطفل شاعر حين يستنطق الجماد ، ويخاطب الطير والحيوان ، وشاعر حين يفر من الواقع الى قصص ينسجها الخيال ، وشاعر بصفاء نفسه التي تنعكس عليها صور الحياة ، : فيتفاءل ويتشاءم ، ويبغض ، ويقبل على الناس وينفر منهم . كل ذلك يهديه اليه قلبه الرقيق الفياض بشتى العواطف .

وانما سقت هذا التشابه ، لابين ما تشتمل عليه هذه النفس الصغيرة من اقبال على الادب اذا نحن احسنا اختياره ، وقدمناه اليهفي ثوب شاعري يتفقوميوله وعندئذ فقط نستطيعان نرسم له المثل العليا التي نريد فيه اطار من الادب يجتذب نفسه الصافية ، فتسير على هدا(ها الى ما نبتغيه من الغايات الكريمة والامال العزيزة .

ادب الطفولة وبطولاته في ادبنا العربي :

لعلنا ندرك بعد هذه المقدمة ان ادب الطفولة ليس هينا يسيرا ـ كما يبدو ـ فالشعوب التي اصطنعت الادب في اعلى صوره البلاغية لم تستطع ان تصل الى الاحسان في ادب الاطفال الا بعد دراسات واسعة ، اهتدت بها الى دراسة الطفولة نفسها ، دراسة كشفت عن اسرارها واوضحت معالمها . ومن اجل هذا لا نكاد نجد في ادبنا العربي قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر اي اثر لادب الاطفال ، وان كنا نجد في ثناياه الوانا قليلة قد تصلح لبعض مراحل الطفولة ، لم يضعها الادباء ـ حين وضعوها ـ للاطفال ، وانما ارادوا بها التسلية او العظة ، او استهدفوا بها العوام من الناس ، فجاءت دون قصد منهم ـ صالحة بفكرتها احيانا وباسلوبها في قليل من الاحيان .

ونحن اذا عدنا بخيالنا الى صحرائنا العربية قبل الاسلام ، نجد هذه الصحراء مليئة بالاحداث ونجد صورا من البطولات تزخربها اشعار الشعراء وقصص الرواة ، وتتردد هذه وتلك في المجتمعات فتتناثر على مسامع الاطفال : يتلقفونها اول الامر دون وعي ، فلا تزال تلح عليهم كلما تقدم بهم الزمن ، حتى تحل في نفوسهم محل العقيدة ، وتدفعهم بتأثيرها القوي في طريق الابطال الذين اعزوا شأن القبيلة واعاوا مكانتها.

ولقد كانت الامهات بما ينظمن من أشعار البطولة أسبق من أدب القبيلة في التأثير ، فقد كن يدللن اطفالهن باشعار الحماسة منذ الصغر ، فتتفتح عيونهم على احاديث الشجاعة ، واباء الضيم ، ولقاء الاعداء وها هي ذي كنزة المنقرية تدلل طفلها شملة بقولها :

فان بك ظني صادقي وهو صادقي ... بشملة يحبسهم بها محبسا ازلا
فيا شمل شمر واطلب القوم بالذي ... أصيت . ولا تطلب قصاصا ولا عقلا

ولا نحسب الطفل في مهده او حداثة سنه يدرك الاغراض البعيدة من هذا الكلام ، ولكنه الايحاء المستمر يواتيه من كل جانب : من امه ومجتمعه وقبيلته ، فينبه احساسه ويلقى بالشرارة الاولى في نفسه فلا تزال تتوهج كلما مر الزمن ، حتى تحيلها آخر الامر الى نار متأججة ، لا يهديء من اوارها الا دم الاعداء في ميدان القتال .

ولماجد كذلك فيما قرات من ادب اسلامي ما يشير الى ظهور هذا الادب ، وانما التفاتة فقط الى تعليم الصغار بما يقدم اليهم من تعاليم الدين ، وآداب تدعو الى الفضيلة والاخلاق وعناية بقصص الابطال يتصدى لها القصاصون في المساجد ، دون نظر الى مستوى السامعين واعمارهم

ثم كانت انطلاقة الفكر في العصر العباسي ، فترجمت كتب على لسان الطير والحيوان ، وجمعت قصص تاريخية وغير تاريخية والفت نوادر للبخلاء والاذكياء وغيرهم ، وجمعت رحلات المغامرين والمستكشفين ، واصبح بهذا وغيره في ادبنا العربي مادة صالحة من ادب البطولة للاطفال ،ولكنها ـكما يبدو ـ لم تستغل في وجهها الصحيح ، ولم يلاحظ في اسلوبها صفات خاصة بهم . وبين ايدينانصائح الناصحين من المربين من عهدابن المقفع الى عهد ابن خلدون وما بعده ، وهي جميعها لا تولي هذه الكتب عناية خاصة . يقول الغزالي ناصحا المعلمين : « عليه (اي المعلم) ان يبدأ بانتقاء الاشعار السهلة ليسهل على الطفل حفظها ، وينبغي ان تكون ذات مدلول خلقي من حث على اصطناع المعروف ، وقرى الضيف ، وغير ذلك من مكارم الاخلاق » . ولقد بقيت بعض هذه الكتب بعيدة عن الصغار بأسلوبها الرفيع ، وبقي ابطالها بمنأى عن دنيا الاطفال ، حتى تناولها في العصر الحاضر مهذبون ، فصاغوها صياغه تقرب ما بها من معان للناشئين ، وقد يكون من المفيد في هذا الصدد ان نسوق هذا الكلام على لسان دمنة ، ليعلم منه ان الطفل مهما تكن سنه ومقدرته لا يستطيع ان يستسيغه او يتلقاه بالقبول : قال دمنة : حدثني الامين الصدوق عندي ان شتربة خلا برؤس جندك . وقال : قد خبرت الاسد وبلوت رايه ومكيدته وقوته . فاستبان لي ان ذلك يؤول منه الى ضعف وعجز ، وسيكون لي وله شان من الشئون فلما بلغني ذلك علمت ان شتربة خوان غدار ، وانك اكرمته الكرامة كلها ، وجعلته نظير نفسك ، وهو يظن انه مثلك ، وانك متى زلت عن مكانك صار له ملكك ولا يدع جهدا الا بلغه فيك وقد كان يقال : اذا عرف الملك من الرجل انه قد ساواه في المنزلة والحال فليصرعه فان لم يفعل به ذلك كان هو المصروع وشتربة اعلم بالامور وابلغ فيها . والعاقل هو الذي يحتال للامر قبل تمامه .

ان هذه الادلة التي سيقت على لسان دمنة فوق ادراك الطفل وليس في القطعة ما يغريه بالقراءة . على ان كل جملة من جمل هذه القطعة يحتاج الى وقفات للبسط والايضاح ، وليس في نفس الناشيء من الصبر والقدرة على الادراك ما يمكنه من الاحاطة بما يهدف اليه هذا الكلام . ولهذا نقول : ان المؤلفين والمترجمين في تلك العصور لم يحاولوا الكتابة للاطفال في مراحلهم المختلفة ، وانما جاء انتاجهم صالحا لبعض هذه المراحل من حيث الموضوع وان ند عن آفاقهم في اسلوبه وتصويره في كثير من الاحيان .

ولا استطيع ان انكر الوانا اخرى من ادب البطولة ظهرت في عهود التأخر ، كان لها شان بين عامة الناس تلك هي الوان القصص الشعبي ، كقصص الظاهر بيبرس وابي زيد واخبار الصالحين وغيرها ، وكان الاطفال يقبلون عليها اقبالا شديدا لما يجدون فيها من حديث الحرب والقتال والضرب والنزال ، ولما يجدونه في اشعارها الحماسية من تلبية لميولهم المتطلعة الى الزعامة وحب السيطرة والمغامرة . يحدثنا الدكتور طه حسين في كتابه الايام عن اقباله على سماع الادب الشعبي فيقول : كان احب شيء اليه ان يسمع انشاد الشاعر ، أو حديث الرجال الى ابيه والنساء الى امه ، ومن هنا تعلم حسن الاستماع ، وكان ابوه وطائفة من اصحابه يحبون القصص حبا جما ، فاذا صلوا العصر اجتمعوا الى واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح واخبار عنترة والظاهر بيبرس ،واخبار الانبياء والنساك والصالحين ، وكتبا في الوعظ والسنة ، وكان يقعد منهم مزجر الكلب وهم عنه غافلون ولكنه لم يكن غافلا عما يسمع ، بل لم يكن غافلا عما يتركه هذا القصص في نفوس السامعين من الاثر ... »

ويقول : « حتى اذا صلوا العشاء أجتمعوا فتحدثوا طرفا من الليل واقبل الشاعر ينشدهم اخبار الهلاليين والزناتيين ، وصاحبنا جالس يسمع في اول الليل كما كان يسمع في اخر النهار » ... الى ان يقول : ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الاغاني والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والاوراد والادعية ، واناشيد الصوفية جملة صالحة . »

ويوضح الدكتور في مكان اخر من الكتاب مقدار حرصه على سماع الشاعر الشعبي بقوله : « ثم يذكر انه كان لا يخرج ليلة الى موقفه من السياج الا وفي نفسه حسرة لاذعة ، لانه كان يقدر ان سيقطع عليه استماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه اخته الى الدخول فيأبى فتخرج فتشده من ثوبه ... الخ » .

وهكذا عاش الاطفال على ادب الكبار ، واريدوا على التماس المثل فيما



لا يدركون في اغلب الاحوال ، فشق عليهم ذلك حينا ، واساءهم حينا اخر ، ووجدوا فيه الغذاء الصالح للنفوس في قليل من الاحيان ، حتى كانت النهضة الحديثة ووجد الادباء والمتصدون للتربية نماذج منه في الاداب الاجنبية : وجدوا قصصا ومسرحيات ، واشعارا يستسيغها الاطفال في حداثة السن ، فترجموا وعربوا والفوا وشهدت مدارس سوريا ولبنان مسرحيات ، فالف خليل اليازجي «مروءة ووفاء» وعرب محمد عثمان جلال «العيون اليواقظ على لسان الطيور والحيوان» ، ووضع ابراهيم العرب كتابه « آداب العرب » في شعر قصصي سهل واقبل المؤلفون للاطفال على خرافات ايسوب يستعيرون من قصصها ما يلائم بيئتنا واتجاهاتنا وعمد محمد عبد المطلب وعبد المعطى مرعي الى التاريخ العربي ينظمان حوادثه مسرحيات . وهكذا عرف العرب بعد ان ظهرت اهمية علم النفس ان للطفل مستواه الخاص ولم يعد رجلا صغيرا كما كانوا يظنون . وادركوا كذلك ان الادب اذا احسن اختياره ، وقدم للطفل في اسلوب مقبول كان مؤثرا في نفسه وملونا لاخلاقه وراسماله المثل العليا في سيرة ابطاله. نعم لم تكن المسرحيات المدرسية الى عهد قريب ملائمة للاطفال ، ولكنها على اي حال كانت خطوة في سبيل التدرج ، والوصول بعد ذلك الى النتائج الطيبة .

نماذج البطولة في ادب الاطفال :

ولست اود ان اخوض مراحل الطفولة ، وما يصلح لكل منها من ادب البطولة قبل ان اشير الى اختلاف واضح بين نماذج البطولة في ادب الرجال ونماذجها في ادب الاطفال . فقد يكون البطل في نظر الصغار آدميا او غير آدمي : قد يكون طيرا او حيوانا ضعيفا او قويا ، بل قد يكون جمادا : عصا تسير ودراجة تنطق ، وهكذا . واننا لنجد من خطل الراي احيانا ان نسوق له الابطال من التاريخ نحدثه عن اخبارهم واعمالهم لانه لا يقدر الزمن ، ولا يدرك حدود المكان فنرى من الواجب تاخير اخبار العظماء ، ووصف الشعراء لمواقع القتال ، وما ينسب الى الاجداد من حماية الاوطان حتى يبلغ المرتبة التي يدرك معها الاسرار التي نبتغيها من وراء هذه البطولات فنقدمها له عالمين آثارها المجدية في نفسه.

ولا نود ان نقف في امثلتنا البطولية عند الشجاعة وحدها ، فهي لون من الالوان ، وانما نعد كل متفوق على نظرائه في الصفات الانسانية بطلا : فالكريم والوفي وذو المروءة والمعين على الشدة ابطال . والصالح والحكيم والصبور ابطال ، والسياسي والمخترع والعالم النافع والذكى وواسع الحيلة ـ ابطال كذلك . نقول ذلك ، لان الطفل يرى في كل هؤلاء مثل السمو والتفوق بل يرى فيهم البطولة والحق التي تستأهل التماس الاسوة والاكبار والاجلال .

وليس من الحكمة في شيء ان نصدر حكمنا على ادب الطفولة دون بيان للمرحلة التي الف لها او يليق لاطفالها : فقد يكون جيدا للاطفال في سن معلومة قبيحا بالنسبة لاخرين ومن اجل هذا رايت الاشارة العاجلة الى مراحل الطفولة مع بيان ما يصلح لكل منها من اداب ، وبطولات .

« اولا » الطفولة المبكرة (من الثالثة الى الخامسة)

كانت الجدة ولا تزال اديبة هذه الفترة من حياة الطفل ، وكاني بها وقد قرسها برد الشتاء قد اتخذت مكانها المختار حول المدفأة ، ثم اخذت ترسل بصوتها المتهدج الى الاسماع قصة الغول ، والشاطر حسن ، واصبح الملك (او عقلة الصباع) والاطفال في سكون لما يتملك قلوبهم من الرهبة حينا ، وعجائب الحياة حينا آخر ، وليس للجدة من هدف فيما تقول الا ان تغري الاطفال بالسماع ، وتحول بينهم وبين العبث قبل المنام : رواسب من

الاجيال السحيقة توارثتها الجدات عبر القرون ، وقد يكون في بعضها متعة واذكا للخيال ، ولكن قد يكون في بعضها الاخر خلق للمخاوف بما يجري على ايدي الابطال من المردة والشياطين واللصوص والفتاكين . وهكذا نصبت الجدة نفسها مربية واديبة دون علم ، ولم تتخل حتى الان عن مكانتها بعد ان انشئت دور الحضانة والرياض ، وبعد ان تولت الاذاعات العربية توجيه الاطفال في هذه المرحلة بالوان من القصص والاناشيد .

وقد استمعت الى القصص التى تلقى من الاذاعة فاعجبني منها اشياء: اعجبني ما فيها من خيال جامح يناسب الطفل في هذه المرحلة ، فالطيور تتحدث ، والحيوانات تغني والجماد يتحرك،واعجبني اعتمادها على التصوير الصوتي لكل هذه الكائنات فان هذا التقليد ينقل الطفل الى جو مثير ، فيخيل اليه انه يستمع الى ذوات الاشياء وان ما يسمعه حقيقة واقعة . وفيها غير ذلك استغلال للغناء ، وهو بنغماته يضفي على القصة من الامتاع ما يملك لب الطفل ويستحوذ على وجدانه . وهكذا تستطيع الاذاعة بهذا التأثير القوي ان تقدم من الابطال والاعمال ما تراه مفيدا لخيال الطفل ، مؤثرا في اخلاقه .

ومن الواجب ان نشير كذلك الى ما تقوم به مدرسات الحضانة والرياض من تقديم الغذاء الادبي في هذه السن المبكرة،غير اني لا اعفيهن ولا اعفي الاذاعة احيانا من الخروج عن مستوى الاطفال : فليكن البطل في قصص الاذاعة والمدرسات دجاجة تتحدث ، او وردة تغني ، او قطا يعاون طفلا ، او عنزا تشتري من الحداد قرنين لتدافع عن ابنها ، وليكن الغرض من كل ذلك تنمية الخيال وتعريف الطفل بمقومات بيئته ، ولينثر القادر في تضاعيف الكلام ما يريد من مثل واخلاق . ولكن الخروج عن البيئة في هذه السن ايذاء : فالاسكيمو ، وسكان الادغال ، ووحيد القرن حقائق اذا نقلنا اليها الطفل قبل الاوان ، كان مثلنا مثل من يقدم الدسم للممعود يزيد من علته ويؤخر شفاءه .

ويجب ان نعلم ان كثيرا من قصص الجدات بلاء اي بلاء اذا كان ابطالها من الاغوال والمردة والسفاكين ، وان قصة الطفل الذي احترق عندما خالف امه وامثالها مما تتورط فيه بعض المدرسات لصغار الاطفال ضارة ، لانها مثيرة لمخاوفه . ولعلنا نعلم ان غريزة الخوف في هذه الفترة من الحياة تبلغ الغاية من الحدة والعنف ، ومن واجبنا ان نهدىء من ثورتها بما نصطنع من قصص نتخير ابطالها من الاطفال الشجعان ، ونجري الاحداث على ايديهم فيرى الطفل انهم لا يرهبون الظلام ، ولا يخشون السكون ، ولا يخافون الحيوانات الاليفة والحشرات الضعيفة ، فيحاول تقليدهم مهدئا من حدة الخوف التي تسيطر عليه .

وقد رايت فيما قرات قلة واضحة في هذا النوع من القصص : وربما وقع القاريء على قصة يجد في بدايتها صلاحا لهذه المرحلة ، فاذا مضى في القراءة وجد في تضاعيفها خروجا على ما يناسب الصغار . وقد يجد في بعضها الاخر اسرافا في الطول يخرجها عن الملاءمة لاطفال في سن الخامسة . هذه قصة مترجمة اسوق منها صورا على سبيل المثال. وجدت في بدايتها المرآة السحرية تتحدث فقلت : انها لاطفال في سن الخامسة . فلما قطعت في قراءتها شوطا وجدت في ثناياها حديثا عن الحسد والغيرة وهي صفات غير مفهومة لاطفال هذه المرحلة ، وقد تضمنت القصة غير ذلك احداثا لا تناسب الاطفال الكبار ، تقول القصة : « وكان عند هذه الملكة

ـ البقية على الصفحة ١٠٧ ـ

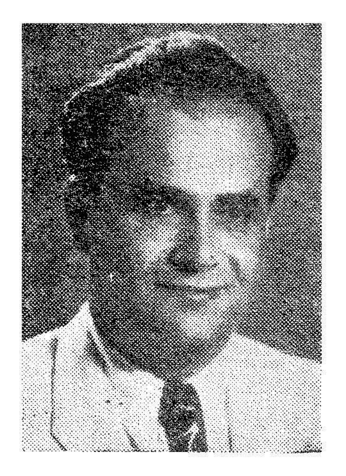
تحية المؤتمر .. من العراق

باسم شعب شامخ يرفع رايات البطوله
والرجوله
باسم شعب هشم السجن وحنى راحتيه
بدم الثأر !
ورؤى ناظريه
بسنى الفجر الذي مزق ليل الظالمين
باسم من ذر الحياه
في بلاد الرافدين
باسم من انقذنا من مخلب الطاغي الاجير
من ايادي الطامعين
باسم الاف من العمال في كد وضيم
واناشيد السعاده
رقدت مشلولة الانغام صرعى
في وجوه البائسين
وشفاه الكادحين
وعيون الجائعين
باسم فلاح ضعيف ذر في الحقل فؤاده
وسقاه ورعاه
واذا بالسيد المخمور يمتص رؤاه
باسم كوخ واهي الاضلاع ، عاري الجنبات
يجرح القصر به مع الحسرات
باسم الاف الضحايا وقرابين النضال
باسم شيخ يزرع الدمعة في ذكرى بنيه
شهداء المعركه
باسم ام عاجز منهوبة الاحلام ثكلى
خمدت اضواؤها في المعركه

باسم هذى كلها
من جموع البشريه
في العراق
ابعث اللحن الجديد
ونشيد الاخويه
للبلاد العربيه
وطني الغالي ، ونبع العبقريه
واعيد الاغنيه
في صباح زاهر الاضواء نشوان طليق
بعد ان كانت سجينه
ودفينة
رغبة للظالم الجاثم في قلب بلادي
واياديه السقيمه
عبثت في الحقل تجتر حقوده
ومضت تغرس في الدرب قيوده
وسدوده
خسئت اماله
لا حدود في ديار العرب
لا سدود تحجز النور عن الارض الحبيبه
فنضال الثائرين
جذوة تلهم ظل المعتدين
وكفاح الوطن المسلوب عنوان شعور الصامدين
ولنا في الدفقة الحمراء في ارض الجزائر
منبر ينشر للدنيا المآثر
ويدوي بالبطولات ، ويشدو بالمفاخر
ذهبت ايامنا السوداء لا رجعة فيها
روعت في ظلها الشمس بدنياها الرحيبه

وخبت فيها امانينا الحبيبه
كانت الاحرف نقمه
شنقوها في ثغور الناس
والناس خرافه
عندهم
عرفهم
ان يهدم المرء شعوره
وضميره
وغلى الوعي باعماق النفوس
فعلت شعلته
شعلة اذكت شعور الصابرين
وغدت تشرق درب الصامدين
في عراقي
وتبدى الفجر عن ثورة احرار بلادي
واذا الاسياد بالامس حطام في الشوارع
وتلاشى الحلم الغارق في خزي المطامع
وبدت في الشعب نشوه
اي نشوة
نشوة النصر على العهد البغيض
« فهي منه »
« الف منه »
في رقاب الشعب للثوار ابطال بلادي
فلكم منه تحيه
ولكم من شعبنا الثائر الاف التحايا الاخويه
ولمن يرفع للاداب شعله
في (شواطى البحر) كالشمس المضيئه

محمد بحر العلوم
النجف



حول البطولة وأدب الأطفال

بقلم رئيف خوري

التعليق المفصل الذي اعده الاستاذ رئيف خوري على محاضرة « البطولة وادب الاطفال » في مؤتمر ادباء العرب بالكويت

ايها الاخوان الزملاء :

وفق محاضرنا اليوم ، الزميل الاستاذ أحمد ابو بكر ابراهيم ، الى ان يجلو لنا جملة من الحقائق التي تتصل بصميم هذا الموضوع الخطير : « البطولة في الادب العربي للاطفال » .

فقد بين ان ادب الاطفال اهم الآداب جميعا وانه يعد الادب الموجه للجيل الصاعد ، بل ادب الحياة لانه الصانع لمستقبل الحياة بالنظر لاثره البعيد الراسخ في النفوس الغضة حين العود طريء والطينة لينة قابلة للانطباع .

ثم بين ان العناية بامر هذا الادب قد كانت وما برحت زهيدة يسيرة ، فلا ادباؤنا الناقدون تعرضوا له مؤرخين ورسموا له الاصول ، ولا ادباؤنا الواضعون اعطونا منه العطاء الخصب الغزير او عرفوا كيف يحكمون انشاءه على هدى وبصيرة من فهم الطفولة وما يصلح لها في شتى مراحلها.

ورد الزميل المحاضر هذا التقصير كله الى وهم وذهول . فالوهم هو ان المجلين من ادبائنا الواضعين قد خيل لهم ان ادب الاطفال في منزلة دون اقدارهم . والذهول هو ان نقادنا لم يفطنوا الى ان الاجادة في ادب الاطفال ترتبط بالدراسة النفسية اكثر مما ترتبط بالقوانين البلاغية المطلقة (١)، فرب ادب رفيع اذا قدم للاطفال نبا عن اذواقهم ولم ينفعهم بل بغض اليهم الادب .

وهذه جميعها حقائق تتصل بصميم هذا الموضوع الخطير . وما اعتقد ان فيها مجالا لجدال طويل .

ومن ثم انصرف الزميل عن هذه المقدمة النظرية العامة الى القسم الذي يصح ان نسميه التوجيه العلمي من محاضرته . وهنا لا نلبث ان نجد بيننا وبينه مواضع الخلاف في الراي . ولا نلبث ان نصادف ثلما كان بودنا لو اتيح له ان يتداركه في البحث عن قواعده ، ويحيط بجوانبه ، ويقرب ثمراته المرجوة .

نحن مع الزميل المحاضر حين ينظر الى الادب العربي من زاوية ادب الطفولة فيخلص الى القول اننا لا نكاد نجد في ادبنا قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر اثرا لادب الاطفال ، وان كنا نجد في ثناياه الوانا قليلة قد تصلح لبعض مراحل الطفولة لم يضعها الادباء حين وضعوها للاطفال.

ولكن اتكون المشكلة التي تجابهنا في هذا الموضوع ان نتصفح ادبنا لننتهي عند هذا الحكم ؟ لا لعمري . وكان الزميل المحاضر نفسه قد احس هذا البتر الذي اراد به تصفية مشكلة كبيرة ، فاردف يقول : ثم كانت انطلاقة الفكر في العصر العباسي فترجمت كتب على لسان الطير والحيوان ، وجمعت قصص تاريخية وغير تاريخية والفت نوادر للبخلاء والاذكياء وغيرهم وجمعت رحلات المغامرين والمكتشفين، واصبح بهذا وغيره في ادبنا العربي مادة صالحة من ادب البطولة للاطفال ، ولكن - كما يبدو - لم تستغل في وجهها الصحيح ولم يلاحظ في اسلوبها صفات خاصة لاطفال . على ان هذا كله لم يدفع بنا قيد انملة في طريق حل المشكلة ، فاذا كانت في ادبنا العربي مادة صالحة لادب الطفولة لم تستغل في وجهها الصحيح ، ولم يلاحظ في اسلوبها صفات خاصة بالاطفال ، فالمشكلة حقا هي كيف تستغل هذه المادة في وجهها الصحيح وما الاسلوب الذي يجعلها سائغة للاطفال على النحو الذي نشتهي ويشتهون ، ولا يكون قوة تشدنا الى وراء ، بل قوة تدفع بنا الى امام ، لان النهضة العربية ليست في الواقع عودة الى الماضي ، وانما هي سفرة الى المستقبل ، ونحن لا نريد ان نخرج في هذه السفرة مبهوظين بما يفيد ولا يفيد من موروثات الماضي.

لن انكر ان الزميل المحاضر قد اثار امورا تدخل في الجواب عن هذه المسائل فيما يتعلق بتراثنا الادبي وتاريخنا القومي بل لا انكر انه قد مس في البحث امورا تتصل بادب الاطفال على اطلاقه . فحذر من ان يكون في المادة التي تقدم للاطفال شيء فوق متناولهم العقلي . واوصى بعلم النفس ليكون واضعو ادب الطفولة على بينة من مستوى الطفل في مختلف مراحل طفولته التي تمتد في رأي الزميل المحاضر من الثالثة حتى سن المراهقة. وطالب بنبذ خرافات العفاريت والجن ودعا للاستعاضة عنها باخبار العلم العصري والعلماء المبدعين، لان خرافات العفاريت والجن تشيع الخوف في نفس الطفل ولا تغذيه. كذلك اوجب الزميل المحاضر ان يحلى ادب الاطفال بروح الفكاهة شرط ان تكون هينة لا يحتاج في ادراكها الى ارهاق تفكير . ونوه بان نماذج البطولة في ادب الاطفال لا بد ان تختلف اختلافا واضحا عن نماذجها في ادب الرجال . ونبه في كل ما يكتب للاطفال او ينظم لهم على ضرورة الاسلوب السهل الذي قد خلا من البيان المتكلف واللفظ المتعسف . ثم لم ينفك يؤكد ان هذا موضوع ، او هذا قالب ، ان صلح لادب الاطفال في سن فانه لا يصلح لهم في سن اخرى ...

الا ان هذا كله لا يوفي ادب الطفولة حقه من الشمول والعمق . ولا يركز البحث على الموضوع المخصص اعني البطولة في ادب الاطفال . وبالتالي ان هذا لا يكفي وحده لانارة السبيل الى ادب بطولي للاطفال يجمع بين التشويق والمزيد من المعرفة ، وبين النفع والجمال ..

(١) هذا لا يعني ان ادب الاطفال ليس له بلاغته الخاصة

ان الزميل المحاضر لم يتخذ له المنطلق الذي كان ينبغي له ان يتخذه في هذا الموضوع الخطير . وفي رأينا ان هذا المنطلق لا يمكن ان يكون شيئا اخر غير توضيح معنى البطولة وتصويرها في جميع صورها ومجاليها .

ايها الاخوان الزملاء :

نحن ننطلق من الحقيقة ان البطولة صفة خاصة بالانسان وحده ، وقد نشاهد ما يحيرنا من احتمال الانسان في احيان ان يبلغ الغاية في التسفل والتدني . لكن مع ذلك فلنثق ان الانسان وحده هو الذي يحتمل ان ينعت بالبطولة . ثمة شيئان لا نهاية لهما : الصعود والهبوط الانساني ! والعربي ، بما هو انسان ، يحتمل ان يكون بطلا ، كما يحتمل التسفل والتدني ، فالوجهان فيه محتملان . وهو في ذلك لا ميزة له ترفعه عن اي انسان اخر ، ولانقص فيه يخفضه عن اي انسان اخر .

وعلى هذا فالبطولة حصيلة تربية ووليدة تنشئة خاصة . وما كانت بنا حاجة الى بحث البطولة في الادب العربي ، والى بحث ادب بطولي لاطفالنا ، لولا ان البطولة هي حصيلة تربية ووليدة تنشئة خاصة ، ولولا اننا نرجو ان يمكننا البحث من انشاء ادب يساعد على هذه التربية والتنشئة التي تصنع الابطال .

ولكن الانسان اذا احتمل بالفطرة الانسانية ، ان يكون بطلا ، فانه لا يكون بطلا الا وهو جزء من امة ، جزء من شعب ، جزء من مجتمع . فالتربية والتنشئة الخاصة التي تصنع الابطال لا تكون اذا الا في امة ، في شعب ، في مجتمع ، باسس واستعدادات ملائمة للغاية المبتغاة ، للادب الذي هو وسيلتنا الى تلك الغاية (اعني صنع الابطال)

ومن هنا لم يبلغ الزميل المحاضر اعماق الاشياء حين اوشك في محاضرته ان يقصر الهم على تقسيم الطفولة وفق السن ليتخذ من ذلك وحده مقياسا يعين به الادب البطولي الذي يصلح للطفل في كل مرحلة ، مكتفيابتوجيهات من علم النفس المجرد ، دون ان يربط الى ذلك كله ربطا وثيقا بالامة ، بالشعب ، بالمجتمع ، وبمطالب الامة والشعب والمجتمع . فالنقص في علم النفس المجرد هو ان هذا العلم ينسى ان النفس لا تتكيف بمراحل السن وحدها وانما تتكيف ، وعلى صورة اعمق ، بما يتحرك في الامة ، والشعب والمجتمع من عوامل فاعلة ، مطورة محررة (او شادة الى وراء) .

ايها الاخوان الزملا :

البطولة لا يمكن ان يكون لها مقومات تتقوم بها او مجالي تتجلى فيها الا تلك التي تشتق لها وتهيأ لها من امتها ، من شعبها، من مجتمعها في عصر او في اكثرمنعصر. والبطل الذي يظهر لنا فردا خارقا انما هو خاق بارز تكون بفعل امته ، بفعل شعبه، بفعل مجتمعه . بل هو حتى بعد ان يتكون بطلا عاجزعن ان يمارس بطولته اذا تقطعت اسباب صلاته الحيوية بامته ، بشعبه، بمجتمعه .

نحن نقول مثلا ان خالدبنالوليد بطل. وهذا صحيح . لكن اقتضاب التعبير ما ينبغي له ان يوقعنا في خطأ التفكير . فخالد بن الوليد ما كان في افضل الحالات ليكون الا خلفا عاجزا لولا قوى حية في الامة العربية في الشعب العربي ، في المجتمع العربي - قوى حية احتشدت حوله استجابة لموقف تاريخي فمكنته من ان يكون بطلا . وليس هذا تقليلا من قيمة البطل ، بل تحديد لدوره وللحدود التي تتكون فيها بطولته فاعلة مؤثرة . وهو تحديد لا غنى عنه كي لا نقع في عبادة البطل التي يسهل تدهورها الى الصنمية وكي لا يعصف الغرور بالبطل نفسه ، فينتهي بنا

- التتمة على الصفحة ١١٨ -

بطولة

أوبريت من شعر نقولا قربان



★ الى نوال التي رفضت ان تكون الا زانية
★ بينما تضج في الشرق اعاصير البطولة

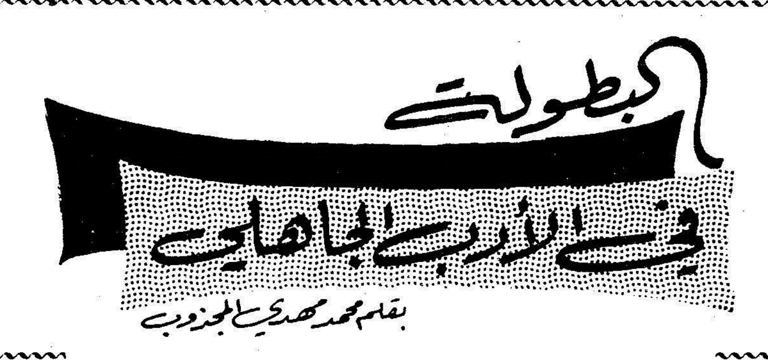
كورس – نوال يا اسطوره
في قارة مسحوره
حيث يطل الشرق
في أبدع صوره
حيث يصلي العطر
وتستدير الشمس في
شدق النموره
ويستفيق الحب
في الف ضفيره
في نار كبيره
نوال يا اسطوره
في قارة مسحوره !..
نوال – من تربة الشرق انا زهره
احمل ذل الشرق لا طهره
مصدورة الايمان والفكرة
هذي انا بنت السراب
بنت الرجال القاطعين الغاب
بنت السبايا الراكعات للذئاب..
بل انني بنت الرذيله
أفعى أنا ، أفعى ذليله
خلقت لا حبا ولا نخوه
أمي دليله
وعمتي أفعى صقيله
في لحمنا سبعون شهوه
سبعون كرباجا ثقيله
وجدتي ام الرزايا
عاشت على خبز الخطايا
قوادة او خادمه
تأكل وهي نائمه
تأكل من لحم البغايا
وتقول اني صائمه ...
كورس – نوال ليس الحزن للقادر
والطامع الحر
أما رأيت الزورق الحائر
يضيع في البحر
أما رأيت الجدول العاثر
يحبو ولا يجري
اما رأيت شهوة القاهر
في مخلب النسر
أما شهدت الموكب الثائر
يمشي مع الفجر
أما سمعت زارة الزائر
في عمقها الثوري
اذ تشعل الشرق منائر
وتوقظ القمري
ليملأ الارض بشائر
بلحنه الخمري ؟
نوال ليس الحزن للقادر !
نوال – بل لي انا بنت الشقاء
لانني كسلى ضعيفه
ماعونة من سبط حواء
وضيعة يخدعني الشعراء
مجنونة القلب خفيفه
اقدس الكذب واجتر الرياء
واهمل الحق واختار طيوفه
اصنع احلامي ، وفي ظل المساء
تموت احلامي على ارض سخيفه
كورس – نوال ها أنت بشدق الضعف
والخوف رهينه
في صوتك المجروح تجديف
وانات دفينه
هذا أنين الموت والاجهاض
رجعت انينه
كأنما اليأس عريس او
اله تعبدينه
او انك الصارية الهوجاء
في اليم سجينه
لا انت مرساة على الشط
ولا انت سفينه
تبقين في ظل الفراغات
بلا نجوى رصينه
عيناك عين من خيانات
واخرى بعض زينه
يصلبك الوقت الطفيلي
وانت تصلبينه
والخوف يشويك مع الحقد
على كف الضغينه !
نوال لا تبقى على الشك
اذا كان عفونه
فالشك يبقى طفلك المعبود
حين ترضعينه
ثم اسمعي صناجة الاعصار
في قلب المدينة
اذ توقظ المرأة من قبر
الفراغ والسكينة
وتخلق النور بقلب الاخت
والام الحنونه
وتجعل الشرق بلادا
للارادات الامينه
يربطها الاخلاص والحب
باوصال متينه
ويغمر الابداع دنياها
بافراح رزينه
ويعتريها شبق الحق
فيعطيها رنينه!
نوال كوني معصم الاعصار
او كوني جبينه
وزغردي اشعاره حين
تربين جنينه
فهو عريسك الذي يبقى
بعينيه رعونه ..
نوال – كيف! وهل انسى ذنوبي الماضيه؟
تاريخ اوهامي ...
واني زانية ؟..
تاريخ أهلي ؟
كان أهلي بعيون مفزعه
يسقون للطفل حليب الضفدعة.

اهلي الذين الهوا كل جراده
وفضلوا حتى الحجر
على الملايين من البشر
التافهين بلا اراده
الجائعين في زمر
ولقبوا هذا عباده ..
اهلي الذين دنسوا اوجه الهلال
اذ صيروه من علامات القتال
وان توارى وانخسف
جاءوا باغصان السعف
وبالوجوه المستعاره
واضرموا النار وقالوا
بلع الحوت القمر !
ثم رموه بالحجارة
او بشرارات النظر
او بالكلام المبتكر !
أولاء اهلي
وانا من جهتهم نطفه
هم اطعموا لحمي الذئاب الكاسره
لحم بلا نار ولا عفه
ابيع منه وكأني تاجره
هم صيروني فاجره
ولسوف ابقى فاجره !..

كورس — اين اعاصير البطوله
تحيا على الشفة الذليله
يا ابنة الشرق الذي
صنع البطولات الاصيله
فالزرع لا ينمو على
ارض الارادات الكسوله
وفرائد الاعمال من
غير طموح مستحيلة
والثورة البشرية
الميلاد الام طويله
وحضارة فيها علامات
التحدي والرجوله
اذ ترفض المراة ان
تشقى باحلام الطفوله
في كنف اليأس وفي
كهف التملق والرذيله
وكأنما اظفارها بعض
الخطايا المستطيلة
وكأنما في قلبها
ماتت جراثيم الفضيله !
ايه نوال الا تصونين
معانيك النبيله ؟!
هذا الصباح يطل من

خلف الجبال فهللي له
يهدل في طلعته الحب
وما احلى هديله
في لثغة عربية
مجدولة مثل جديله :
ان خطيئات دليله
قد كفرت عنها « جميله »
فالمجد للشرق الذي
اصبح يختار البطوله !
نوال يا اسطوره
في قارة مسحوره
حيث يطل الشرق
في ابدع صوره
حيث يصلي العطر
في الف ضفيره
وتستدير الشمس
في شدق النموره
ويستفيق الحب في
نار كبيره
نوال يا اسطورة
في قارة مسحوره !!

نقولا قربان



نسمع الآن ونشهد ، والعالم يسمع ويشهد ، دوي بلاد العرب ، حيث كانوا بالثورة .. والاستشهاد في سبيل حرية العرب .

ان اصرارنا يتوقد ، في خفقة واحدة تنتظم شاطىء الاطلسي في الغرب ، حتى شاطىء العرب في الشرق ، وخضرة اليمن السعيد في الجنوب ، حتى منابع النيل في سواد افريقيا .

نحن نعرف هذه المعارك التي نصلاها اليوم ، نعرفها كما عرفها اباؤنا الابطال وخاضوها مؤمنين ، وخرجوا منها .. وهم اشد ايمانا وعزما ... ياخذون النصر كما ناخذه اليوم قادرين .

عرب هذا شانهم في الماضي والحاضر ، فان لهم بطولة لا تنحسم فهي متصلة بمستقبل الانسان ومصيره ، ورغبته في الحرية والعدالة الامنة .

وعملنـــــا ، ونحن نتحدث باسم البطولة العربية في هذا المؤتمر – هو ان نلقي ضوءا قويا على جوهر هـــذه البطولة ، ونقدم للعالم – اصدقائنا واعدائنا على السواء – نصيبنا الكبير في البحث الجاهد عن الكمال ، حتى تشهد الدنيا من جديد ، سر نضالنا العظيم في سبيل الحرية .

عبادة الابطال

ولا اعطف للناس في هذه الارض من سيرة الانسان الجاهد في سبيل الرقي والتحرر ، فان الناس مفطورون على الحرية الخيرة ، ومثل هـذا الانسان خليق دائما بالحب ، ولذلك يفتش الناس عن امثاله في القصص ، وقد اعتملت اصابع الاغريق فاخرجت له التماثيل ، وعرب الجاهلية قد عبدوا الاصنام لانها كما قيل – صور لاناس فاضلين من الغابرين ، يلتمسها القوم في الاحجار ، والناس اذا فاتهم التعبير بالصور راحوا يؤلفـون الاساطير لاشباع حاجة بشرية .

ولدينا في السودان قصص كثيرة عن الفرسان والصالحين ، الذيـن جرت على ايديهم الخوارق .

وتخليد الابطال انما أريد به رفعهم الى مستوى الآلهة ، وذلك تسليم مطلق بقدرتهم الخارقة .

وانه لما يسترعي النظر ويفعم النفس اعجابا وفخرا ، ان نرى البطولة العربية صورة واضحة الملامح من المروءة والفتوة والفصاحة ، وانها انسانية ذات اهداف ، تقف دائما في جانب الحق .. اديبة فنانة ، اعدت اللغة العربية، ايمانا بها ،لتحمل أمانة الحضارة.. فامتلأت – هذه اللغة الشريفة حماسة للحياة وجاء تعبيرها عنها قويا مثيرا .

ما هي البطولة ؟

ان البطولة تنصرف ، عند الخاطر الاول ، الى الشجاعة وهذا معناها الشامل القديم ولا زال باقيا ، ولكن معناها قد يتطور مع تطور المجتمعات واختلاف نظرتها الى السلوك الانساني .

وجماع القول فان البطولة سمو وتشوف للكمال ، ورياضة للـروح والجسم او تعبير مكتمل عن طاقة قوية متفردة ، والشجاعة – كمـا اسلفنا – على اختلاف معانيها جوهر البطولة الفرد ، وبايجاز فهي صفة انسانية بارزة وقد تكون مادية قاهرة او معنوية دافعة .

البطولة العربية

ان البطولة العربية – على وجه العموم – بطولة حربية ، ولقد كانت القبائل في هذه الجزيرة كالعواصف على الخيل والابل ، تطير بهـا الغارات اما لها او عليها ، ولذلك فقد كانت شغل الشعراء الشاغل ، ولم تكن هذه الحروب خرساء تجمجم بصيل السيوف وصهيل الخيـل ، وانما كانت ملحمة شاعرة تتطاحن فيها السنة الشعراء.

ونحن نزعم ان ايام العرب المشهورة كانت ضرورة لتصفية القيـم ، فلقد اكتمل النظام القبلي بكل مآثره ، ووقفت القبائل وجها لوجه ، تعرض ما لديها في زحمة التنافس ، وفي غمرة هذا التنافس الدائـم قويت ملكة التعبير ، وصفت اللغة واصبح الشاعر ذا خطر عظيم ، ولقد صدقت الحضارة العربية فيما بعد كل رؤاه .

ان الشـعـر – اشـبـه بهـذا الانفعـال ، والنـثـر هنا ليس بذي أثر ، ويوافقنا ان ناخذ برأي أحد النقاد المعاصرين – حينما ذكر عيشة العرب الاولى واسماها بالشعر لانه – كما قال – لغة العاطفة والخيال ، والعصر الجاهلي – وان كان له نثر خاص تقوم عليه الخطابة فهو ليس نثرا فنيا ، فالنثر عماده الكتابة والاستقرار ولذلك فنحن لا نلتفت الى هدير الخطباء ولاسجع الكهانة وانما نصغي – كما اصغت هذه الجزيرة في بهر واعجاب الى الشاعر ونستنجد ، لدى هـذا الرائد العظيم ، ما نبغي من الوان البطولة .

ان الحياة الجاهلية بما فيها من تطاحن ، جعلت الشجاعة راجحـة بالفضائل الاخرى ، ويلي الشجاعة الكرم ، والكرم ضرب من الشجـاعة وهاتان الفضيلتان شرطان اساسيان في البطل الجاهلي يهتف بهما المديح والفخر ، ولقد ارتفع المديح والفخر الى مستوى عال ، فحين لا ينـص المادح او الفاخر على فضيلتي الشجاعة والكرم فنحن نراهما فـي صفات أشمل واكبر ، فالسيد والماجد والكريم والفتى كلها صفات تتضمـن معنى الكرم والشجاعة ، وتعني عند الجاهليين مرتبة فوق مرتبة البطولة، لانهم كانوا لا يطلقون كلمة البطل الا على الشجاع – شجاعة خارقة – في القتال.

ولقد أفادنا صاحب القاموس – رحمه الله – فقال في ذلك : انما سمـى البطل بطلا لانه تبطل عنده العظائم ، ولان الاشداء يبطلون عنده ، وكذلـك الاقران تبطل عنده فلا يدرك ثار لديه ، ونحن نزيد على ذلك ان البطـل العربي – كما يصوره الادب الجاهلي – تجتمع فيه صفات اخرى تجعل منه ذلك الانسان النادر ، من هذه الصفات الكرم والنجدة ، والعفة في مضارب القبيلة وميدان الحرب ، وهو يتقدم على القوم ، ولم يفسده الترف ولا الفقر ، ساهر على قومه ، لا يشغله عنهم مال يثمره او ولد يبغي له الرفعة.

ولقد كان لهذا البطل طراز خاص قلده فرسان النصرانية في العصور الوسـطى .

فالبطولة عند العربي - زيادة على انها شجاعة خارقة وقوة، فهي ضبط للنفس وتنزيه ، واخذ بالاخلاق الكريمة .

ولقد آن لنا - أيها السيدات والسادة - ان نرفع لكم صورا من البطولة تخبرناها من الادب الجاهلي .. وهذه : -

بطولة القبيلة

هذا انسان قد عاش بين قومه رجلا منهم ، يرعى وينتجع الغيث ، ولا شأن لقومه هؤلاء بين القبائل ، وانه ليسمع كثيرا من يغنى بشرف هذه القبيلة او تلك ، انه لم ير تلك القبيلة ، ولم تعد منها عائدة اليه ، انما سمع شعرا ملأ نفسه تقديسا لتلك القبيلة واعجابا .

ويغدو على قومه ذات يوم وقد هتف لسانه بشعر يمجد فيه قومه ، ويرفع لهم تمثالا ضخما بارز الملامح يراه الحاضر والغائب ويراه صناع التماثيل في سوق عكاظ .

وتجد هذه القبيلة المغمورة نفسها ، وتمسك بأستار الليل توقظه ، واذا بنيران القرى ترقص امام الخيام تدعو العابرين ، وتجتمع نساؤها يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الاعراس ، والرجال والولدان يتباشرون ، وها هي القبائل تقبل مهنئة ، لقد نبغ في هذه القبيلة شاعر ، وهي تعرف الان كيف تحمي نفسها ، وتتخذ لها أسلوبا رفيعا من الحياة تعرضه وتباهي به الاخرين .

ولقد ضربنا مثلا - في بحثنا المفصل الذي في ايديكم - بالشاعر الحرث بن حلزة اليشكرى ، ولاحظنا ان معلقته الخالدة صدرت عن مشورة طويلة مخالفين في ذلك من زعموا انها مرتجلة ، ونحن لا نرى فيها شاعرنا الحرث الا من خلال قبيلته الفخمة القوية .

البطل الفرد : -

ولقد قدمنا لكم - ايها السيدات والسادة - بطلا اخر هو البطل الفرد - بحسبه ونسبه ، الواثق من شجاعته وقوته ، العازف عن مواقف الضيم والهوان .. ذلك هو عمرو بن كلثوم سيد تغلب.

والابيات التالية من معلقته الفخمة ، تخرجه من نطاق القبيلة الى آفاق بعيدة يبسط فيها الشاعر سيادته على الارضين والبحار .. فكأنه كان يحلم - وهو في نشوة المجد - بمصير هذه البطولة في المستقبل .

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وماء البحر نملؤه سفينا
اذا بلغ الفطام لنا رضيع ... تخر له الجبابر ساجدينا
لنا الدنيا ومن امسى عليها ... ونبطش حين نبطش قادرينا

زينة البطل : -

وللبطل العربي زينتان ، مادية واخرى معنوية ، اما المادية فهي هذا الجسم القوى التام .

بطل كأن ثيابه في سرحة ... يحذي نعال السبت ليس بتوأم

يحيط به جمال قوي ذو الوان من الخيل والسلاح، وهو يعرض في هذا المجال الرائع قوة جسمه وحربته ، فاذا امتلأ بسحر ذلك كله وفتنته اتخذ له شارة او علامة هي اعلان متحمس عن مكانه في الحرب .

اما الخيل العتاق فهي من اسرة هذا البطل ، وهو يحبها اشد الحب ويرعاها ويديم اليها النظر من كل ناحية وحركة ، وهي تقاسمه السلم والحرب ، وهي حصن متحرك للدفاع والهجوم ، وقد تكون وسيلة للنجاة ، او تكون قيدا للوحش النافر المنطلق ، وهو يسميها كما يسمي اولاده بما يملأ نفسه حبا اذا دعاها .

وقد اوردنا صورة لهذا الحصان الجميل كصاحبه ، ولمثل هذا الفرس الكريم ، الذي لا ينفصل عن حياة فارسه ، ثارت حرب داحس والغبراء .

ولقد عرضنا من زينة البطل المادية الوانا من السلاح الكريم ، فنظرنا في صور الدروع الفضفاضة ، والسيف العتيق ، والرمح الرشيق ، والقوس المرنه فرأينا هذا البطل يكلف بالجمال والقوة والاغراب في كل ذلك ، ويأنس اليهما ويملأ بهما حياته الرائعة .

واذ قد تناولنا شيئا من زينة البطل المادية فلننظر في زينته المعنوية ، فالحماسة والنجدة والحمية التي تحرك جسمه القوى هي ابرز هذه السمات، وهو صاحب روح رياضي ولا يهون منشأن اعدائه اعظاما لنفسه.

فاذا فرغ من الحرب ذهب يتأمل ويشتاق او يصيد فيعاطي الثور الوحش عنفا بعنف او ينصرف على ناقته يجوب الفيافي ويقف على الاطلال.

ان ابطال العرب قد خلعوا من بطولتهم على الحيوان بطولته ، كالاسد والثور الوحش والنعامه والناقة لخالدة ، فتجاوبوا بذلك تجاوبا نشيطا مع الطبيعة ، وكنا نود ان نقيم فصلا لبطولة الحيوان ولكن الوقت لا يتسع لذلك ، وحسبنا الان اشارة عابرة الى تلك البطولة .

تطور معنى البطولة

ولقد ذكرنا في مطلع هذا الحديث تطور معنى البطولة مع تطور المجتمعات واختلاف نظرتها الى السلوك الانساني ، ومما يسترعي النظر ان نجد معنى البطولة قد تطور فعلا في الادب الجاهلي .. ولقد كانت من هذا اشارات معجبات الى مستقبل هذه البطولة .

ففي ظلال البطولات الحربية لمعت بطولات اخرى لها بريق اروع من بريق السيوف عند النصر ، بطولات تخبرنا ان العرب يتحولون ويتطلعون الى مشارق جديدة ، فهؤلاء مثلا نفر لم يهينوا العقل الانساني بعبادة الاصنام ، وهذه زرقاء اليمامه تقيم تمثالا للكشف وحب الاستطلاع الى غير هؤلاء من الذين اعطوا حياة العرب لونا باهرا من الحيوية والتقدم واظهروا البشارة بأمر خطير .

وننتقى لكم من البطولة العربية المتطوره ، صورة جديدة في العصر الجاهلي وهي لبطل السلام

بطل السلام

انه شيخ كثير الروية ، وقد نشأ في بيت شاعر وكانت بلاده من ديار غطفان ساحة للحرب المستحره ، ولكن ليس كغيره من الشعراء يتحيز لقومه ، وانما كان صاحب رأي في الحرب تفرد به بين العرب فصورها دميمة نامية الشر حتى ينفر منها الناس ، ثم دعا للسلام وحسنه ، واشاد بالداعين اليه وجعل منه معروفا من القول وهدى.

ويظهر انه كان رجلا يتسامى بثقافته على الفهم العام بين القبائل العربية ولعله كان يمثل فئة ضاقت بأسلوب الحياة العربية ، وتاقت الى حياة افضل .

وشاعرنا هذا يؤمن بالقانون الالهي ، ولعله فتح سمعه الى هؤلاء المتحنفين كزيد بن عمرو بن نفيل ، او الى هؤلاء الكهان الذين يطرقون ابواب الغيب، او الى هذه الافكار الغريبة التي تطوف بها اليهودية والنصرانية على هياكل الاصنام .

وملاه كل ذلك تفكيرا وتسامحا وعدلا يوافق طبعه السمح ، وعلمه ان العمل المشترك نتيجته الاتقان والجوده ، فلا عجب اذا ان يصنع هذا الشيخ الوقور - وهو زهير بن أبي سلمى القصيدة المذهبة في شهر ، ثم ينفق في تهذيبها او تذهيبها بقية الحول وفي هذا منتهى الامانة .

بطل الكرم :

وننصرف عن شاعر السلام الحكيم الى ضوء نار تشير الينا في اعماق الليل ودونها غلام يؤرثها ، وقدور راسيات ، وقد وقف على هذا الغلام المتمل رجل يحرضه حتى تعلو النار ، صاحب هذه النار هو حاتم الطائي بطل الكرم ، وهو رجل رزين حليم ، محب للناس ابعد الحب ، وهو لهم عاذر لضعفهم وحاجتهم اليه .

وهذا الرجل الصبور – والصبر سر الكرم فيه – لا يستعبده المال ، فهو ينفقه في فك الاسرى واغاثة الملهوف ، وهو يتأفف من اولئك الذين يجمعون المال ، فلا يجدون معه الحرية في انفاقه ، وهو لا يجهل قدر المال وقوته ، ولكنه اقوى من المال ، وهو يحمد الله مسرورا بنعمة الكرم .

وحاتم لا يؤثر الناس بالمال فقط ، بل يؤثرهم بحاجة نفسه تنزيها لهذه النفس الكريمة الابية من الذم . ولذلك فقد جعل عليها رقيبا من رقة شعوره ونبله حتى ولو كان وحده وهذا الحساب الغريب من آثار التدين ، ولا نعرف من اين رسخ في نفس حاتم طي.

لقد بنى خوفو هرما ، وجاء اللصوص فسرقوا جثمان فرعون ، ولقد رأينا الهرم اكواما من الحجارة والالم ، ولكننا لا نعرف خوفو كما نعرف حاتم طي.

اثر المرأة في البطولة

لقد عجبنا على نسوة في بحثنا المفصل منهن زبيبة الحبشية ام عنترة، وعبلة الجميلة ، وليلى الثائرة بنت المهلهل وماوي زوج حاتم .

ولقد آن لنا ان نسأل عن دور المرأة وأثرها في بطولة الادب الجاهلي وهو من غير شك دور خطير ... فلقد كانت هذه المرأة ذات شأن عظيم ، فهي كأم كانت من غير شك تعلم ولدها ، وتلقنه المأثور من مفاخر القبيلة ، وهو اذا نشأ يحب ان يشعر بعطفها عليه ومكانته لديها ، والرجل العربي كامل بنسائه يذود عنهن ويستبسل في ذلك ونساؤه كن يحرصن على القتال كنساء عمرو بن كلثوم وكانت العرب تشهد نساءها الحروب ليقاتل الرجال ذبا عن الحرم .

ولقد كان فيهن بطلات كالشموس التي خرجت على قومها من براش عمليق الداعر فحرضتهم بكلام يحرك الصخر فثاروا على هذا الملك الفاجر والقوه طعاما للسيوف الجياع .

ان هذه الروح التي تجلت في قصة الشموس ما فتئت تتردد عبر القرون حتى رأيناها في فتاة من بادية عربية في غير جزيرة العرب ، وهي مهيرة بنت عبود من بني سوار ، التي حرضت قومها على القتال حين وصلت جيوش اسمعيل بن محمد علي باشا الى بلاد الشليقية من عرب السودان .

ولقد حولنا شعر هذه الفتاة الدارج الى عربيه فصيحة – كما جاء في البحث الذي بأيديكم ولكننا نحب ان تسمعوا صوت هذه الفتاة العربية وذلك بانشاد شعرها الدارج الذي قالته حين اصاب قومها الجزع من مدافع الاتراك وليس لديهم الا الرماح والدرق من جلود افراس النيل – ومهيرة في شعرها هذا تخاطب النساء حتى يكون كلامها اشد اثارة :

الليلة العقيد في الحله متمسكن — في قلب التراب شوفن مجكن
الرأي فاقده لا يشفى لا يمكن — ما تتعجبن ضيم الرجال يمكن

ثم تلتفت الى هؤلاء الرجال وهي تأمل ان تؤثر فيهم : –

أكان فريتويا رفاقتنا — ادونا الدرق هاكم رحاطتنا

والرحط : ازار من جلد مقدد تلبسه فتيات السودان ثم وقد اثارت قومها ورأتهم يتحفزون :

غنيت بالعديله لي عيال شايق — البر شو الضعيف ويلحقوا الضايق

ثم ترضى فتذكر خروج قومها للحرب على الخيل وقد آثروا القتال :

الليله استعدوا وركبوا خيل الكر — وقد امن عقيدن بالاغر دفر
جنياتنا العزاز الليلة تتنتر — بالباشا الغشيمقول لي‌جدادلكر

وبعد – فمهما يكن حال المرأة العربية في الجاهلية فقد كانت عنوانا لكتاب البطولة في الشعر الجاهلي .

والشعراء عامة – بما فيهم من ذكرنا من الابطال – يبدأون الغناء بذكر المرأة في حلها وترحالها ، وهي دائما في قلوبهم وعلى اعينهم حتى في ميدان الحرب ، وهم يذكرونها اذا رأوا السحاب والبرق واذا هب النسيم وهم يذكرونها اذا رأوا كثبان الرمل النواعم ، ويذكرونها ويذكرونها . الظباء السود ، ويذكرونها وبريق السيوف يخطف الابصار ، ويذكرونها اذا لم يكن الا الفرار من القتال او الموت ويذكرونها ويذكرونها.

وقد نسمع صوت هذه المرأة تحرض رجالها في الحرب او تلومهم على الرحلة في طلب المال ، او تعنفهم على المبالغة في الكرم ، وهذه المرأة كانت تحب السلامة لقومها على كل حال .

ولم يتواتر الغزل في اول القصيد الجاهلي اعتباطا ، انما هو غاية لا وسيلة ، فهم لا يحنون الى النساء هذا الحنين العام كما يتبادر الى الذهن ولكننا نزعم انهم في الواقع انما حنوا لامهاتهم فليس العطف عند الناقة الجاهدة ، فهي بدورها تحن الى اعطانها ، وليس العطف عند الفلوات ولا هو عند الممدوح الموسر ولا عند الاطلال الخالية فأين يجد هؤلاء الشعراء الجاهدون هذا العطف ؟ ان الغزل في حقيقته حنين الى هذه المرأة الام ، اذ لديها وحدها يجدون الحماية والامن والسكينة .

ولقد ذكر ((جيب)) في مجلة معهد اللغات الشرقية والافريقية لسنة ٥٠ ، ان هذا الغزل مرده الى Nostalgia الصحراء اي الى الحنين العصبي الذي تثيره وحشة الصحراء وما تخيله ، فهو الذي دفع الشعراء الى هذا الغزل الحنان ، ولكن فات على ((جيب)) ان الشعراء مما يصيبهم من الوحشة والعزلة والضياع انما يرتدون الى الطفولة الاولى فيذكرون معالم البيت الاول ويحنون الى الام والعرب يذكرون المرأة في الغزل فيقولون ((أم فلان))

ولقد كانت حياة العرب مجدبه قاسية ، والغارات تأخذ من اطرافهم ، والصحراء تخدع عقولهم والابصار ، وهم دائما يشعرون بالقلق .

فليس لهم حب خالص الا عند الام التي كانت واحة في الصحراء يتطلعون اليها خلف السراب ويتلهفون ويذكرون آثار بيتها الاول حيث درجوا ، ولقد رمزوا لهذه الام ولبيتها الاول بهذا الغزل في اول القصيد ووجدوا فيه‌راحة وحماية وعبروا فيه عن حنينهم الى‌الاستقرار والسلامه.

من هذا نرى خطر المرأة العربية واثرها البعيد في الادب الجاهلي عامة .

الصعاليك

فاذا خرجنا من القبائل وضربنا في مجاهل البيداء وجدنا فيها شرذمة عجيبة ، انهم أفراد يخشاهم الناس ، ولعلهم كثرت جرائرهم ، وعجزت قبائلهم عن حملها فتبرأت منهم وخلعتهم ، انهم الصعاليك وهم ابطال قد خرجوا عن نطاق التقاليد العامة ، والواحد منهم على خروجه يتخذ لنفسه مظهر القبيله من أمجاد ومآثر ، ولهم في خروجهم هذا وجهة نظر لانهم فقراء ، وفي القاموس : صعلكة افقره ، والصعلوك الفقير ، ولكن الفقر لم يقعد بهؤلاء فهم شجعان ، ولهم انفة وقوة وفتوة في اجسامهم

وكلامهم ، ولم يجدوا مجالا في النطاق القبلي ، وانهم ليحقدون على اهل اليسار فكانت لهم لذة خاصة في تحدي الاقوياء والعطف على الضعفاء ومنهم رياضيون من الطراز الاول ، نذكر بهم أبطال الاغريق ، ولقد امتازوا بشدة العدو وخفة الحركة والخبرة بالمجاهل ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى ، ومنهم تابط شرا ،والشنفري ، وسليك بين السلكة .

ويظهر ان عروة بن الورد كانزعيما لهؤلاء الصعاليك ، ولكنه صعلوك نبيل شريف لا يفكر في نفسه وانما هو انسان كلف باصدقائه وجيرانه ، يحب لهم ما يحب لنفسه ، وهو يؤثر الموت على الفقر .. لان الفقر ينزع الحب من قلوب الناس ويقتل الحركة ، ولذلك فهو يتصعلك حتى لا تنقطع صلاته بالحياة المليئة بالتعاطف والتكاتف ، وحتى لا يعيش وحده في رزق ضيق محدود ، وهو لا يلتذ الا بالمشاركة ولا يكتم علينا ان الايثار ـ على لذته ـ لا يستطيعه الا مثله

اقسم جسمي في جسوم كثيرة واحسو قراح الماء والماء بارد

وهو يعشق السيادة ويرى لها معنى غاية في النبل فهي ليست في جمع المال وتسخير الناس بهذا المال ، ولكن السيادة الحقة هي ان يبذل المال في اعانة من يحتاجون اليه وهو بعد لا يمديده الى مافي ايدي الناس ، وهذه غاية الغايات في الشجاعة والكرم وعزة النفس .

فالصعلكة كما يراها عروه شجاعة في القلب وسماحة في النفس ، ولن تكون اطلاقا صفة لمن طحنه الفقر وعبده ، وانما هي في عدالة لا تتصل بالنظام العام ، عدالة يقبلها عروة ويتخذها له منهاجا ، وليس فيها جناية او ظلم اطلاقا ما دامت تثور على الظلم وتعطف على المظلومين .

وعروة بن الورد رجل اشتراكي النزعه ، لا يقتني المال ، فهو كما نرى في شعره ، وسيلة للمعاني الانسانية النبيلة وهو يشبه من كل وجه شخصية « روبن هود » في تاريخ الشعب الانجليزي ، وان كان الاخير يتخذ من غابة « شيروود » مقرا ومختبأ له ولاتباعه من الخوارج ، فقد كان عروة يمتنع بالفلوات والاودية ، من غير من على خصمه ، ولئن كان « روبن هود » بطلا في الرماية فلقد كان عروة احد حذاق البشر في استعمال السيف ورياضة الخيل .

ولقد كانت ثورة « روبن هود » خروجا على السلطان الجائر ، كما كانت ثورة عروه وجماعته احتجاجا ملحا على التقاليد الجائرة ، والرذائل الانسانية كالجبن والبخل والذل .

ونحن لا نسمع صوتا لبطولة « روبن هود » اما بطولة عروه فهي صورة متحركة ناطقة نراها ونسمعها في شعره .

ولعل عروة في ايمانه بالصعلكة كان يحلم بنظام يتساوى فيه الناس وان لم يعرف كيف يدعو اليه بغير هذا الاسلوب المتفرد .

صعاليك السودان

وعلى ذكر الصعاليك ففي بادية السودان نهاضون شعراؤهم نفحات باقيات هناك من مآثر الجاهلية ، والنهاض بلغة السودان الدارجة هو الشجاع الذي ينهض للغارة فلنستمع الى هذا النهاض السوداني حيث يقول : ـ

الولد البدور يشكر يبعد رده في بلد العدو يتوكر
اما جابرضا البهماللهيجومسكر واما ابطلعهفوق ضلاعه تيتلوسكل

وهذا معناه ان على الولد ـ اي الفتى الشجاع ـ الذي يحرص على بعد الذكر وحسن الاحدوثة ان يتوغل في بلد العدو فاما ان يرضى بذلك البهم اللهيجو مسكر اي النساء حلوات الثغور واللهجات كالسكر بالمال والرغاب ، واما ان يقتل فهو ملقى بالعراء يختال لصقر الاضلع فوق اضلاعه ويصرخ

اليس يشبه هذا الكلام شعر عروه ؟

وكلام اخر : ـ

دعيني اطوف في البلاد لعلني افيد غنى فيه لذى الحق محمل
هيء قلوصك وارم الليل عن عرض بذي سبيب يقاسي ليله خببا
حتى تصادف مالا او يقال فتى لاقي التي تشعب الفتيان فانشعبا

مقارنة عامة

وبعد ، لقد اشتعلت حرب طروآده من اجل امراة جميلة واشترك فيها الالهة ، وفحوى القول هو ان هؤلاء اليونانيين قد ارتفعوا بالبشر الى مستوى الالهة وقد ينزلون بهؤلاء الالهة الى منزلة البشر ، ولذلك فقد لعبت الاهواء بهولاء الارباب ، وكان نصيبهم في الملاحم اكبر من نصيب البشر .

وشبت حرب البسوس من اجل امراة ، والبسوس صاحبة الناقة او صاحبة هذه الحرب ليست جميلة كهيلين طرواده ، ولكنها عربية ابيه وناقتها في القدر مثل كليب وائل ، وليس يعنيها ما دام انفها العربي مصونا ان يهلك الرجال .

ثم اشتعلت حرب داحس والغبراء من اجل رهان ذهبت به الخديعة وعجزت عن رده السيوف .

والسبب في حرب الناقة والفرسين مرده الى الكرامة الشخصية ولكن الابطال في هذه الملاحم العربية الشاعره لم يستعينوا كما استعان ابطال اليونان بآلهه وانما استعانوا بسيوفهم والمآثر .

وبطولة العرب اذا قابلناها بالبطولة اليونانية ، رايناها واقعية تمثل طبيعة العرب احسن تمثيل واروعه .

والبطولة العربية ارجح ميزانا فلقد وقفت هذه البطولة بكل امجادها على سفح جبل في مكه تنظر الى غار في هذا الجيل ، فلما سمعت صوت السماء من ذلك الغار المنتظر خرجت من الجزيرة العربية واتصلت بمصير العالم وما زالت تعمل عملها الى اليوم .

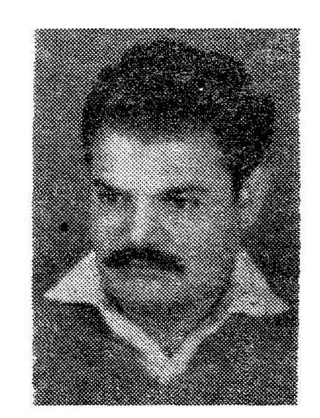
محمد المهدي مجذوب

***

قصة من المغازي

(الى ... طلاب الثار ـ واحبابه ... والى معسكر .. اللاجئين .. بالمغازي ..)

***



في المغازي .. ، يعرف الليل دروب النازحينا
وهو ينساب عليها ... راعش الخطو .. حزينا
اسودا .. يرمي جناحيه .. شمالا ، ويمينا
الف الاكواخ ... والاكهف ... والمستضعفينا
صامتا ، يصغي الى آهاتهم ، يحصي الانينا
وهمو في صمته ، روحا .. وقلبا وعيونا
شربوا من كأسه المر .. شهورا وسنينا

***

في المغازي .. يحلم النزاح بالارض السليبه
ويغنون مع الليل ، اناشيد العروبه
لا ينامون على الظلم .. على هول المصيبه
شهدوا في الاكهف السوداء احداثا رهيبه
بعثرتهم مزقا دامية الخطو خضيبه
اينما ساروا تلاقيهم ، اعاصير غضوبه
وهمو في وجهها ، يشدون للارض الحبيبه

***

في المغازي ، اقبل الليل .. على كهف شريد
قائم في عدوة الوادي ، على جنب الحدود
سكنت من حوله الارياح في صمت عنيد
فيه ام رقدت تحنو على طفل وليد
قطعة منها تغنيها .. اناشيد الخلود
ومع الليل ، وفي لحظة صمت وركود
مزقتها هي والطفل .. رصاصات اليهود

***

وانى الغائب .. والفجر على الافق يلوح
عاد حمدان .. وفي عينيه وقد وطموح
عاد فلترتعد الارض .. وترتج السفوح
كهفه في مدرج المرج على الارض ينوح
انه حمدان يا للهول .. والهول طريح
زمجرت في سمعه الثارات نادته الجروح

***

وخطا يا ليته ضل .. عن الكهف وتاه
اي يوم .. اسود هذا الذي لاح سناه
عمره ، ايامه ، كل امانيه هنا كل رجاه
وخطا والرعشة السوداء قد شدت خطاه
جحظت عيناه .. وارتج وفاضت مقلتاه
زوجه قد فارقت ـ من قبل ان يأتي .. الحياه
وابنه يسبح .. ياللهول في بحر دماه

***

وقف الفارس .. مذهولا ... وبالباب تسمر
وشرار .. الثأر من عينيه يجتاز المعسكر
مزقوه .. مزقوا اسرته .. الله اكبر
ايها الحقد تقدم ،... ايها السلم تقهقر
جن حمدان .. فيا لله ... اذ دوى .. وزمجر
خلت ان الارض ، كالبركان راحت تتفجر
رجت الارض .. كأن الارض للشهداء تثأر

***

ومضى حمدان .. وانضم الى الصف فدائي
ثابت الخو .. يدوس الارض مشبوب الرجاء
دافعا منكبه الحر عريق .. الكبرياء
يتخطى جبهة الشمس ، الى اعلى سماء
اين يمضي .. ؟ انه في الدرب .. درب الشهداء
نسي الدنيا وما فيها .. سوى صوت الدماء
صاخبا .. يدفعه قدما بعزم ومضاء

***

ومشي والاخوة الاحرار .. يجتاز الحدودا
مرحبا .. يا زعقة الثأر .. اتيناك جنودا
نحن في الصف الامامي .. نغنيك النشيدا
سوف لا نترك .. في موطننا الحر يهودا
سوف نذروهم .. كما تذرو الاعاصير الحصيدا
زغردي يا ارضنا .. يا ارضنا شدى البنودا
لوح الثأر فلبينا جنودا وحشودا

***

وتلقتهم فلسطينهم .. الام النبيله
ترعش البسمة في ذرواتها ثكلى ذليله
ابسمي يا ربوات الثأر ، يا ارض البطوله
دق حمدان على بابك .... حمدان الرجوله
واتى .. مدفعه الجبار .. يجتث الرذيله
يصعق الظلم بايمان .. ويغتال فلوله
انه حمدان في الدرب مشى يشفي غليله

***

وتوالت وثبات الفارس الحر المقاتل
اينما دب ففي الارض هدير وزلازل
اينما سار ففي الافق دخان وقنابل
وحصون .. تتهاوى وقلاع .. ومعاقل
انه الثأر الذي يدعوه .. والثأر يناضل
زوجه .. ابنه الطفل .. نداءات الارامل
كل ما في عرقه ... يصرخ يا حمدان قاتل

***

ذعرت من يومها ... مستعمرات المعتدين
لم تنم .. منذ اطل الزحف وقاد الجبين
دافقا يهدر في انحائها لا يستكين
لم تنم ، لم تعرف النوم عيون الغاصبين
منذ أن دقت على الابواب ايدي الزاحفين
تتخطى كل ما شادوه ، من حصن حصين
انه التصميم ، والتصميم هيهات .. يلين

المغازي — **هارون هاشم رشيد**



بقلم الدكتور ناصر الدين الأسد

مقدمات هذا الموضوع لا تقل قيمة عن الموضوع نفسه ، بل هي منه في الصميم ، ولا يستقيم وجه الحديث عنه الا بها . واذا كان بعض المقدمات نافلة وفضلة يستكثر بها الباحث لامر لا يتصل بجوهر البحث اتصالا وثيقا ، فان الترابط المتين بين مقدمات هذا الموضوع والموضوع نفسه يجعل التجاوز عنها اخلالا بالمنهج وانتقاصا من البحث .

وفي هذا الموضوع قضيتان لا بد من التلبث عندهما ، تتمثلان في طرفي العنوان : « البطولة » و « الادب الجاهلي » ، ولكل منهما حديث طويل نجتزيء منه هنا بالقدر الذي لا يخرج به عن التقديم والتمهيد .

* *

اما « البطولة » فنحسب ان لها من تعدد المعاني ما يقتضي التوضيح والتحديد ثم اختيار المعنى او المعاني التي قد يشملها عنوان هذا البحث ويدور عليها الحديث .

واول ما يعرض من معانيها ان يقصد بها « بطولة الحرب » وما ينطوي فيها من الفروسية والقوة والغلبة . ولهذا المعنى ، او « المضمون » ـ كما يحب المحدثون ان يقولوا ـ صورتان من التعبير :

اولاهما ـ ما اطلق عليه الباحثون الغربيون اسم « الشعر القصصي » او « شعر الملاحم » ، وهو ما يجتمع لشاعر نظم قصيدة طويلة يقص فيها ضروب البطولة التي تمثلت في رجل فرد ، او في عدد من الرجال الابطال ، او يؤرخ فيها حوادث امة في فترة بعينها من تاريخها ، فيصوغ ما انحدر اليه ممن سبقه من اخبار الوقائع وصور الحوادث ، ويتسلسل بها في اسلوب قصصي متتابع .

والصورة الثانية من صور التعبير عن « بطولة الحرب » هي التي اطلق عليها العرب القدماء اسم « شعر الحماسة » وهي هذه القصائد والمقطعات المتفرقة التي ينظمها شعراء متعددون ، يفخرون فيها بانفسهم او بابطال قبيلتهم وقومهم ويشيدون بما ابدوا من ضروب القوة والفروسية ، وما اتيح لهم من اسباب النصر والغلبة . فيدور قصيدهم حول شتيت من المعاني المتفرقة لا ينتظمها اسلوب قصصي متتابع ولا استقصاء لاجزاء الحوادث والوقائع ، وبذلك ، لا يتم لها استكمال صورة واضحة المعالم لسير موقعة أو لاعمال فرد او لحياة امة .

اما المعنى الثاني للبطولة فيتسع حتى يشمل « بطولة النفس » في كل ما يتمثلها به المجتمع الذي يعيش فيه الانسان ، فيصبح البطل مثلا يحتذى في : الصبر على الشدائد ، وتحمل المشاق ، ونجدة المضاف ، واغاثة الملهوف ، وبذل ما في الوسع ـ وفوق ما في الوسع ـ قرى للضيف ونائلا للسائل ، وفي : الحكمة ورجاحة العقل وسداد الراى والمنطق ، والحلم عن قدرة ، والوفاء بالعهد ، والحفاظ على الذمام ، واباء الضيم ، والترفع عن الدنايا ، والتحلي بكل ما يراه مجتمعه فضيلة في النفس والخلق .

وثالث هذه المعاني ان يقصد بالبطولة معنى اصطلاحي في النقد الادبي حين يكون البطل في الاثر الفني هو « الشخصية الاولى » او مجموعة « الشخصيات الرئيسية » التي يرمز بها لتصوير صفات بعينها تمثل جوانب في حياة الناس والمجتمع ، يكون فيها الخير والشر والقوة والضعف ، والوفاء والغدر ، والحب والبغض ، فتدعو الى الاعجاب والمحاكاة ، او الى الازدراء والنفور .

* *

اما القضية الثانية من مقدمات هذا الموضوع ، وهي التي تتمثل في الشق الاخير من العنوان ، فهي قضية « الادب الجاهلي » . والحديث عن هذه القضية حديث عن مصادر هذا البحث واصوله ، وبيان لقيمتها التاريخية والفنية . ولهذا الحديث جانبان :

اولهما ـ الشعر الجاهلي : واحسب ان قضيته قد فرغ منها بعد ان صححت الدراسة العلمية الحديثة موازينه ، وهدأت الضجة التي افتعلت من نحو ثلاثين عاما ، وتكلف اصحابها من العناء والمشقة في قسر النصوص وتحميلها ما لا تحتمل من الدلالات وفي تعميم الاحكام الجزئية تعميما واسعا يبعد بها عن الصواب ـ تكلفوا في كل ذلك ما اثار حولها وحولهم غبارا كثيفا لفت الانظار وغشاها حينا ، ثم انقشع ولم يبق منه ـ في مقاييس العلم الصحيح ـ شيء سوى آثار يسجلها مؤرخ الادب حين يعرض لهذه الحقبة من تاريخنا .

ولا نحسب ان باحثا جادا يتتبع ما جد من الدراسات الحديثة في هذا الموضوع ، ثم يستقرىء اصوله القديمة استقراء قائما على الفهم والبصر والمعرفة بحياة القوم ، لا نحسب ان باحثا هذا شانه الا وهو يدرك ان الدراسة الحديثة بشقيها : الداخلي الذي ينقد النصوص نقدا فنيا ، والخارجي الذي يتتبع مصادرها تتبعا تاريخيا ، قد أثبتت لهذا الشعر ـ في مجموعه ـ الصحة والاصالة ، وان كان عرض لبعضه ما يعرض ـ مع التفاوت ـ لاداب الامم كلها في جميع العصور من وضع لبعض الشعر او نحل ، ومن اضطراب في نسبة بعضه وفي روايته لاسباب تاريخية معروفة .

والجانب الثاني للادب الجاهلي هو : النثر . ولا نقصد به هذا القدر من العبارات القليلة التي بقيت من تراثنا ، من مثل : سجع الكهان ، والتلبية والحكم ، والامثال ، فهذه كلها قد تزود الدارس باشارات ودلالات يستخلصها منها ويرتب عليها بعض الاحكام ، ولكنها في مجال هذا البحث ليست بذات غناء .

وانما نقصد بالنثر هذا التراث الخصب الذي خلفته لنا الجاهلية من سير رجالها ونسائها وحوادث قبائلها وايامها ، وصور مجتمعها وحياتها، بادق تفصيلاتها واوضح معالمها ، وتناقله الافراد والاجيال ـ كما يتناقل

التراث القومي في كل امة ـ الى ان دون بعد زمن ، فبقى لنا في طيات كتب الادب والتاريخ والنسب ، وامتلات به صحائف مما كتب ابو عبيدة على النقائض ، ثم الجاحظ والمبرد وابن قتيبه والطبرى ، ثم ابن الانبارى في شرحه على المفضليات ، وما جمعه لنا ابو الفرج في اغانيه ، وابن عبد ربه في عقده ، وغيرهم .

* *

ومن هنا نتلمس بداية الطريق ، فهذا النثر الذي تاخر تدوينه قرنا وبعض قرن هو ميراث الجاهلية في مادته كلها ، تناقلته الجاهلية تناقل الحفى به ، والحريص عليه ، الحافظ له. كانوا يتناشدون شعره ويقصون نثره في مجالسهم ومواسمهم واسواقهم وسمرهم ، يتنافرون ويتفاخرون ، وينقطع لرواية الشعر والاخبار رواة يتفرغون بعينه فينسبون اليه ، ورواة من القبيلة لا يقتصرون على شاعر منها وانما يجمعون بين شعرائها كلهم ، يروون من شعرهم واخبار ذلك الشعر مفاخر القبيلة في وقائعها ومحامدها ، ومضوا على ذلك رواية بعد رواية وجيلا بعد جيل ، الى ان قيض لهذا التراث التدوين والتسجيل . وذلك شان كل تراث قومي في كل امة كذلك كانت الالياذة والاوديسة ، وكذلك كانت المهابهارتا والرامايانا تناقلها الرواة وتناشدها الناس ، ثم مضت على ذلك ازمان الى ان دونت .

ولو اخذنا ايام العرب في الجاهلية يوما يوما ، لوجدنا في كل يوم من الاخبار القصصية ومن الشعر الحماسي ، وما يطوي في ثناياه خصائص الملاحم كما عرفتها الامم الاخرى :

فاولاها ـ انه ادب قصصي ، يحكي في تسلسل وتتابع قصة واحدة اصلية قد تتشقق عنها قصص تتصل بها وتوضح بعض جوانبها .

وثانيتها ـ ان هذا الادب يقص وقائع وحروبا تقتتل فيها قبائل ، ويصطرع فيها ابطال ويسقط فيها صرعى وتسيل دماء ، وتظهر فيها آيات من البطولة والشجاعة والقوة .

وثالثتها ـ ان هذا الادب يصور في كل يوم من ايامه نماذج بشرية ذات ملامح واضحة وقسمات بارزة سواء أكان ذلك في شجاعتها وقوتها ام في فضائل نفسها وخلقها .

ورابعتها ـ ان هذا الادب لم يصطنعه واحد بعينه في زمن متاخر ، كما فعل فرجيل في انيادته ، والفردوسي في شاهنامته ، وملتون في فردوسه ، وانما جرى في النفوس مع الوقائع ودار على الالسن مع الحوادث ، فهو ميراث الامة كلها ، وهو تراثها الشعبي كما نقول اليوم ، وكذلك كانت الملحمتان اليونانيتان والملحمتان الهنديتان .

وثمة امر لا بد من تدبره وادارة الحديث عليه ، وهو اننا لا نحب ان نتكلف لهذا الادب تسميته «بالملاحم» ـ بالمعنى الاصطلاحي ، على اجتماع خصائص الملحمة له وتوافر عناصرها فيه . وليس بمجد امة ان تتزيد وتستكثر في ادعاء امور استكملت صورتها على وجه محدد عند امم اخرى ، واستقامت لها دلالات اصطلاحية استقرت معالمها في التاريخ الادبي . وليست لكل امة ملحمة ـ بهذا المعنى ، ولا ضير عليها في ذلك ، فليس يشين امة الا يكون فيها ما كان في غيرها ، ولكل امة ـ في نشاتها وتطورها ـ بيئة طبيعية وظروف اجتماعية واصول للفكر والتصور والتعبير ـ مغايرة ما لغيرها ، وبذلك تتغاير صور النشاط الفكري والفني في الامم ، وكلما تقاربت بيئاتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية واصول فكرها وتصورها وتعبيرها تشابهت صور نشاطها الفكري والفني ، وامكنت اذن الموازنة والمقارنة . اما اذا اختلفت المقدمات فلا بد ان تختلف النتائج ، وحينئذ لا سبيل الى تعسف الطريق وقسر الالفاظ والدلالات لمجرد التشابه العام الطبيعي في العقل الانساني والوجداني البشري والتطور الحضاري .

وهذا الميراث الادبي الذي خلفته لنا الجاهلية ليس «عملا فنيا» ذا وحدة مترابطة متصلة . حقا ان فيه شعرا كثيرا ولكن اطاره العام الذي يمسكه من حوله ويجمع اطرافه ويصل حلقاته هو النثر ـ وكذلك كان شان تراثنا الشعبي الى عهد قريب حين كان الشاعر على ربابته يقص حكاياته ، وكان يلقيها نثرا تتسلسل معه القصة ، وحين يصل الى مواقف بعينها ينتقل من القصص النثري الى الانشاد الشعري ، وكذلك هو ادبنا الشعبي المدون من مثل قصة « عنتر » و « ابو زيد الهلالي » و « والف ليلة وليلة » . ولعل هذا الادب كان في الجاهلية كذلك حين كانوا يقصون اخبار وقائعهم وايامهم ، ولعل هذا الذي وصل الينا منه كان عندهم عملا فنيا ذا وحدة متصلة ، ولكنه يقينا ليس كذلك كما هو الان بين ايدينا ، ولم يقصد الرواة والعلماء الذين جمعوه ودونوه في القرن الثاني ـ الى ان يكون ذا صفة فنية ، وانما كان هدفهم جمع الشعر ، ثم كان كل هذا النثر القصصي لشرح الشعر وبيان غامضه وتفسير اشاراته التاريخية .

* *

وبعد

فمن هذا التراث الجاهلي الخصب : شعره ونثره ، نستطيع ان نستشف صورة « البطولة » كما عرفوها واحسوا بها ، ونستطيع ان نرسم ملامح « نموذج » البطل الذي كانه العربي الجاهلي . هذا النموذج الذي ما زلنا حتى الان ـ على اختلاف العصر وتغير المعالم والمظاهر ، تهتز له نفوسنا ، ونتشوف له ونتشوق . ويبدو ان هذا النموذج العربي الجاهلي بلغ من الاصالة وعمق الحياة في نفوس هذه الامة مبلغا جعل نماذج البطولة في الادب الشعبي جاهلية ، على ما اضيف اليها من ظلال والوان متعددة في كل عصر : فسيف بن ذى يزن ، وعنتر ومهلهل وكليب ـ كل هذه النماذج جاهلية ، انحدرت اصول قصصها ومعالم شخصياتها من الجاهلية ، وانسربت في القرون قرنا بعد قرن ، ترتدي في كل مرحلة غلالة جديدة تنسجها حياة الناس في ذلك العصر ، ولكنها لا تكاد تخفي اصولها العربية الجاهلية الاولى .

ولصورة هذا « النموذج » من البطولة العربية خطوط عامة عريضة ، نكتفي ـ في هذا المجال ـ بالاشارة اليها ، وندع تتبع اجزائها واستقصاء تفصيلاتها الى دراسات مستقلة تختص كل دراسة باحد خطوط هذه الصورة : تسبر اغواره وتستشف دلالاته ، وتستشهد له بما يكفل توضيحه من الشعر والنثر ، ويكون لها مجال اخر غير ما نحن فيه في مؤتمرنا هذا الذي يجدر به ان يقتصر على ارساء الاسس وتاثيل الاصول ليستهدي بها ـ بعد ذلك ـ عند التطبيق في مجال البحوث الجزئية والدراسات التعليمية .

* *

واول ما يظهر للباحث من قسمات هذه الصورة خط كبير اصيل ، يتصل بجوهر البطولة العربية الجاهلية واساس كيانها . فليست بطولة العربي في الجاهلية بطولة غيبية خرافية ، يصور مصادر القوة فيها الوهم ، ويهذى

ـ التتمة على الصفحة ١١٧ ـ

نسيان



***

لقيتك امس ، ولكن عيني
انكرتاك فلم تعرفاك
ورحت اسائل قلبي عنك
وهل مر حقا عليه هواك

***

تلمست جدرانه علّ فيها
بقايا ظلال : بقايا صور
فما نبضت من غرامك ذكرى
هناك ولا لاح منه اثر

***

وحين بسطت يديك الي
تصافحني ، كنت اي غريب
ورحت امد اليك اصابع
مات الشعور بها واللهيب

***

وحين تعثر اسمك في –
شفتي وارسلته في صعوبه
بدا باهتا فارغا لا جمال
يلونه ، لا صدى ، لا عذوبه

***

احقا حببتك يوما ؟ وكيف
ام كنت طيفا بحلم عبر
وهب كنت طيفا تعشقته
فكيف تلاشى الهوى .واندثر
اما من بقايا ؟ اما من اثر

***

تذكرت ، كنت رفعتك يوما
الى قممي الشامخات المضيئه
وقد ضاع وجهك بين زحام الوجوه
– بافق حياتي المليئه

نابلس

فدوى طوقان

البطولة في الأدب العربي

منذ سقوط بغداد حتى فجر النهضة

بقلم الدكتور شكري فيصل

حين كان ابن الاثير يكتب تاريخه الكامل يقص فيه سيرة هذه الامة التي خرجت من الجزيرة تحمل دعوتها ولغتها ورسالتها الى الناس ، وتنشر مثلها الرائعة وقيمها الكريمة ، حيث كانت تحل من الارض ، وتخرج من اسار العبوديات الثكيله وتطلقهم في آفاق الحياة الحرة ، وتنفخ في وجودهم المتداعي روح الوجود الحق الذي يربط الانسان باسمى ما في الانسان ، بعقله ، ويربط عقله بابعد آفاقه ، بالله .. وتفجر اقوى ما فجرت الانسانية من قوى ، قوة الفكر .. حين كان ابن الاثير يمر بهذا التاريخ ، واحداثه ووقائعه ، صفحة بعد صفحة ، وسنة بعد سنة ، كان يحرص على ان يكون عرضه وتناوله سليما نقيا .. يجتهد في تحري الصواب ، ويسند الحادثة التي تستحق الاسناد الى اصحابها .. وكان في اكثر اجزاء تاريخه حريصا على ان يقف من الوقائع والاشخاص والاحداث موقفا موضوعيا .. وقد يتأثر بهذا العامل او ذاك ، وقد ينفعل هذا النوع من الانفعال الملائم او ذاك من الانفعال المعاكس ، ولكنه على كل ذلك كان حريصا على ان لا يدع لهذا الانفعال ان يكون له انعكاسه فيما يروى او ينقل .. انه ، بمعنى اخر ، حرص على ان يقف من الاحداث موقفا حياديا .. فاذا انت تقرأه حين تقرأه فلا يصدمك فرحه وحزنه ، رضاه او سخطه .. وما اكثر الاحداث التي مر بها ، والوقائع التي عرضها ، وما اغنى هذه الاحداث والوقائع .. منذ نشأت هذه الامة العربية الجديدة ... ولكن ابن الاثير هذا حين بلغ الحديث عن قصة اعنف غزوة همجية سربلت العالم ، والتهمته كما يلتهم حوت هائج سمكة وادعة جميلة ، ترقص اجنحتها السحرية المذهبة رقصة الحياة السعيدة ، حين بلغ هذا كان مجرد ذكرى هذه الغزوة يثير عنده الهول والفزع .. ومن المؤكد انه احس الجفاف في حلقه ، وان قلمه ذا الشباة المنطلقة المرهفة التي كانت تنفرج عن الحديث الشهي الطيب رجف في يديه رجفة الاشفاق ان يسطر قصة هذا السيل الهمجي الغاشم الذي اتى في طريقه على كل معالم الحضارة التي صاغتها الحياة العربية من الق عيون ابنائها ذرة بعد ذرة، من توهج الابداع وبريق الحدس، من صوب العقول، وحصاد الذهن البشري الذكي ، حين يجمع الى ثقافته كل الثقافات التي سبقته ، والى تجاربه كل التجارب التي تقدمته والى حماس الرغبة قوة الارادة وجلد البحث ، وداب العمل وسهر الليل الطويل في سبيل الحرف والرمز والكلمة والفكره .. وفي سبيل الخط والرقم والمعادله ، وفي سبيل الصبغ واللون والتركيب .. حتى كان من كل ذلك هذه الحضارة التي انتشلت ماضي الانسانية ، وانقذت الفكر القديم من وهدة الجهالة التي آل اليها ، ثم اغنته ، ورفدته ، واضفت عليه واضافت اليه ، وشقت له طريق المستقبل ، هذا الذي يعيش فيه اليوم .. اجل لقد رجف القلم في يدي ابن الاثير .. ما ارتضى ان يكون هو الذي يسطر للاجيال ، لكل الاجيال الانسانية من بعده ، هذه المأساة .. فاغفل الحديث عنها سنة بعد سنة ودافعه عاما بعد عام .. حتى اذا لم يجد متأخرا بدأ حديثه عن سنة سبع عشرة وستماية بهذه الصفحة التي صاغها من دموع عينيه ومن دموع قلبه على السواء .. هذه الصفحة التي كانت كانما هي دفعة اهات حرى .. ولو كان لها ، هذه الصفحة ، ان تحيا في وجدان شاعر لصاغ منها اروع اناشيد الالم في تاريخ الانسانية منذ كانت .

تمنيت ايها السادة لو قرأت عليكم هذه الصفحة.. انها تصف كيف خرج التتار كالسيل الهادر يجرف كل ما في طريقه، فاذا الاشجار احطاب وخضد والبيوت احجار ، والمدن خرائب .. واذا العاصفة تذور كل شيء ، واذا هؤلاء المنطلقون كانهم جن اسود ، قد انشعبوا هنا هناك كاقدام اخطبوط مسلطه في كل وجه ، فاتوا على المدن كما يأتي سرب من جراد على جنة ارض ، فيجعلها جذوعا يابسه ، لا ثمر ولا شجر .. والى ذلك ال امر كاشغر وسمرقند ، وتعالت السنة النار في بخارى ، وقودها كل ثمرات الفكر وقطع الخارجون خراسان تخريبا وقتلا ونهبا ، ثم تجاوزوها الى الري وهمذان ، والجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ... اما اذربيجان فقد قتل اكثر اهلها لم ينج الا الشريد النادر .. ثم قصدوا القفجاق « القفقاس » فقتلوا كل من وقف لهم وهرب الباقون الى الفياض ورؤوس الجبال ، وفارقوا بلادهم واستولى عليها هؤلاء التتر .. ومضت طائفة اخرى منهم الى غزنه وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها ما فعلوا في غيرها ، وانطلقوا في كل صوب لا يمنعهم مانع .. والتقى على هذا الوطن الكبير خطر هؤلاء التتار من نحو ، وخطر الصليبيين الذين قصدوا دمياط من نحو اخر ، واشرفت ديار مصر والشام وغيرها على ان يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم كما يقول ابن الاثير . اما الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق ..

تلك كانت الصورة الكالحة لوطننا الكبير في هذه الفترة : خطر خارجي محدق ، واطراف مهددة ، وفتن داخلية مضطرمة .. لقد تقدم التتر واستقام لهم هذا الامر لعدم وجود المانع على حد تعبير ابن الاثير .. اجل ايها السادة لم يعد هناك هذا المانع الذي يقف لهذه القوى الخبيثة، المهاجمة ، المفاجئة .. لم يعد هنالك مانع مادي ، فقد تبددت القوى وتكسرت الوحده واخذت تتآكل اطراف هذه الدولة الكبرى مع الاحداث حتى لتوشك هذه الاحداث ان تنال القلب .. بل انها نالت فعلا بغداد مع التتر ، واطراف الشام وسواحله مع الصليبيين ، .. وضاقت على هذا القارب العربي الذي كانت الافاق البعيدة ادنى حدوده ، ارضه من حوله ، واختلف فيه الملاحون وعزفت الامواج على المجاديف نشيد الموت .. لولا ان الشعلة التي انطلقت من الجزيرة كانت لا تزال تتألق كالشموع

« الآداب » بالاقليم الشمالي

بسبب ارتفاع فرق العملة بين الليرة اللبنانية والليرة السورية ، اضطرت ادارة « الآداب » الى رفع ثمن العدد في الاقليم الشمالي من ١٠٠ قرش سوري الى ١٢٥ قرشا سوريا .

وسيسري هذا التدبير ابتداء من العدد القادم ، عدد فبراير (شباط) ١٩٥٩

في بعض النفوس الصافية ، تغالب ظلمة الليل وتنهض وحدها لجيوشه السود تكشفها وتفضحها ، وتحمل خفقاتها معنى القلب الذي لا يزال ينبض بالحياة .. ولولا ان القارب لم يعدم بعض ملاحيه كنور الدين وصلاح الدين والظاهر كانوا ينذرون ارواحهم لحمايته ، ويقف الواحد منهم وراء الاخر في سلسلة الاحداث اروع ذكيا كجبل شامخ يستعلي على كل ما في الوادي والسفح ، يعرى ذراعيه وقد بدت عروقهما ، يحرز السفينة ويسير معها وسط الضباب والموج من مسرب الى مسرب حتى ينتهي بها الى الامان .

في هذه الفترة وفي فترات حولها ، قبلها وبعدها ، كانت البطولة التي تكشفت عنها الروح العربية في ذلك الحين تعني المقاومة والتكبر على الاحداث .. اريد ان اقول تعني نشأة المقاومة وتكونها وتجمعها حتى تقف بالاعصار الآتي من الشرق والاتي من الغرب على السواء للاعصار التتاري والاعصار الصليبي ، وبدت هذه البطولة في دفع الصليبيين مرة بعد مرة حتى خرجوا عن مصر والشام ، وارتدت القدس مدينة من مدن العرب وحرما مقدسا من حرمات الاسلام .. وانكشف الدخلاء عن الساحل والداخل ، وتبدت كذلك في هزيمة التتار ، والوقوف بمدهم هذا الطاغي في معركة عين جالوت حين رد الملك الظاهر جيشهم العاتي واذاقهم طعم الهزيمة بعد ان كانوا لا يعرفون الا حلاوة الانتصار ... وكانت بطولة جيش الظاهر لا تحمل معناها المادي ، فلعل معناها المادي هذا ان يكون اضعف ما فيها .. وانما تحمل معناها البعيد في صيانة الحضارة المدنية وثمرات الفكر ان تكون طعمة للنار يوقدها رعاة الاغنام والابقار والخيل .

والمقاومة : روح المقاومة وخلق المقاومة ، وايقاظ معاني المقاومة والحيلولة بين الناس وبين ان يغرقهم الاستسلام ويتملكهم اليأس واثارة كل ما في نفوسهم من امجاد وقيم ، وشدهم الى مثل اعلى هدفه ان يدفع الدخيل الخادع وان يمكن للاصيل المؤمن .. هذا كله ابرز معاني البطولة في جزء كبير من هذه الفترة التي حدثتكم عنها .. انها لم تكن بطولة مادية فحسب وانما كانت بطولة راي وكفاح من دون هذا الراي ، وبطولة تجرد وجهاد في سبيل هذا التجرد .

ولقد تعودنا ايها السادة ان نجد معاني هذه البطولات اول ما نجدها في عصر من العصور عند شعرائنا .. لان شعراءنا كانوا بحكم انهم من ابناء هذه الامة من نحو وبحكم صلاتهم بالسلطان من نحو اخر ـ كانوا اقدر الناس على ان يعبروا عن هذه المعاني وان يحسنوا صياغتها .. كان فيها التعبير عن انفسهم وكان فيها كذلك تحميل اصحاب السلطان مسؤوليتها مما وضعهم امام مسؤولية التاريخ والزمان .. ومن هنا ايها السادة كان شعر المديح جديرا ان ينظر اليه في تقويمنا للتراث الشعوري وفي دراستنا الادبية نظرة اخرى .. انه ليس دائما خور استجداء وذلة استعطاء .. اننا نظلم روح المتنبي الدافقة وشموخ ابي تمام المستعلي وتمكينهما للقيم الاصيلة في النفس العربية حين نعد شعرهما في المديح مديحا فحسب .. بل لعل المديح ان يكون ثوبه الظاهر قالبه او شكله الخارجي او مناسبته العارضة .. ان الروح ، روح تقديس ، الاستشهاد عن نصر او هزيمة هي التي املت على ابي تمام رائيته في رثاء محمد بن حميد الطوسي .. وهدير الروح العربية العميق كهدير المياه الجوفية تنبجس من نبع متدفق هي التي كانت تدفع المتنبي ان يقول مؤمنا بسيف الدولة او كافرا بكافور .. ومن ذا الذي يزعم ان العطاء وحده هو الذي كان يدفع القيسراني الى ان يقول مهنئا وزير نور الدين « جمال الدين ابو جعفر الجواد » بفتوح مدينة الرها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة .

أما آن ان يزهق الباطل — وان ينجز العدة الماطل
الى كم يغب ملوك الفلا — ل سيف باعناقها كافل
فلا تحفلن بصول الذئاب — وقد زار الاسد البازل
هو السيف الا تكن حاملا — لبزته بزك الحامل

الى ان يقول يستعجل فتح القدس واستخلاص السواحل .

فان يك فتح الرها لجة — فساحلها القدس والساحل

وهل كان العطاء وحده هو الذي يدفع القيسراني ان يقول مهنئا نور الدين باستقرار امر دمشق له ، نافضا بين يديه احلام الناس وامانيهم

كاني بهذا العزم لا فل حده — واقصاه بالاقصى وقد قضي الامر
وقد اصبح البيت المقدس طاهرا — وليس سوى جاري الدماء لمطهر

اليس هذا الذي كان يقوله هؤلاء الشعراء في هذا العصر المتاخر او ذاك المتقدم انما يعبرون به عن روح الجماعة المنطلقة .. عن آمالها التي تتحرق ـ اعماقها اندفاعا للوصول اليها ؟ .. الم يكن هؤلاء الشعراء في هذا لهاة الناس .. لسانهم ..؟ .. ليكن ما يكون من امر هذا القالب الخارجي الذي صيغ فيه هذا الشعر ..ليكن المديح قالبه ، وطلب العطاء بعض ما فيه ، فليس ذلك شيئا امام روح الامة التي كان يعبر عنها الشعراء بهذا الشعر .. وقد ان لنا بعد ان نسمي الاشياء باسمائها البعيدة وان نطرح عنها هذه الاثواب الزائفة التي كسيت بها .. آن لنا ان نقول ان ما نسميه هجاء او مديحا ليس الا طرفا عارضا في القصيدة ، وان القصيدة من قبل ومن بعد ليست حين تكون في موضعها الحق من الصدق النفسي والتجاوب مع مطامع الجماعة والتعبير عن مطامعها والتمثيل لتطلعها ليست الا روح هذه الجماعة وتصويرا لمثلها الاعلى وتعبيرا عنه .

***

واذا كان هذا حقا في اكثر فترات الازدهار في حياتنا الادبية ، تدل عليه القصائد ، وتنبيء عنه الاشعار .. فان فترات الانحطاط بعد سقوط بغداد تؤيد ذلك تأييدا سلبيا .. ذلك لاننا ننظر في الشعر الذي قيل في هذه الفترة ، في مرحلتيها المتميزتين مرحلة التتار ومرحلة العثمانيين ، فلا نجد شعرا ذا بال ، بله ان نجد القيم البطوليه التي يعبر عنها الشعر او يبشر بها ، نجد قصائد ومجاميع ، وتطالعنا مختارات ودواوين ، ولكننا لا نجد الا في النادر الشعر الذي يعبر عن روح الجماعة ويمثل تطلعها .. اننا نجد موسيقى الشعر ووزنه ولكننا لا نحس حرارته ، ولا يتوهج في اعيننا القه .. كل مظاهر الشكل نلمحها ، ولكن ابرز سمات الروح تخفى علينا .. فما الذي حجب عنا اصالة الانتاج الفني شعرا كان او نثرا ؟..

ما الذي رد هذه الزهرات الندية زهورا اصطناعية جافة جامدة لها شكل الزهر ، ولكن ليس فيها النسغ الروحي الذي فيه ؟! وبالتالي ما الذي حجب القيم الكريمة في اعماق الروح العربية ؟!..

ان تفسير ذلك لا يبدو عسيرا .. ان الروح العربية ـ كائنا من كان اولئك الذين ممثلوها خلال هذه الفترات قبل سقوط بغداد ـ فعلت كل الذي استطاعت فعله .. صدعت بالدعوة ، وحملت الرسالة وطلعت الى الناس بعد جاهليتها بروح انسانية عريضة تجعل من الانسان المؤمن مركز الحياة في الارض، وتسخر له كل شيء في الافاق.. ولكن هذه الروح العربية بالذي انتدبت له من امر هذه الحضارة الانسانية العريضة التي ارادت ان تبنيها ، لقيت كل العراقيل ، فجاهدت وعملت ، وعلمت وعلمت ، حتى اذا ادركها بعض الاعياء اثرا لهذه السلسلة من الارواح الخبيثة التي وقفت في طريقها ، روح العصبية فيها ، وروح الثار عند الذين اجججوا الفارسيه، وروح التسلط عند الذين بعثوا التركيه وروح الخراب مع هذا الاجتياح المغولي ، وروح التعصب والحقد في هذا الخطر الوافد من الغرب .. الروح العربية السمحة حين لقيت كل هذا وقفت عند الذي اشاعتــه واشعته ثم تركت لهذا الخليط المضطرب ان يفعل ما يشاء ، فاذا العصبية المنحرفة تفسد المعنى القومي السليم ، واذا الفارسية تفسد الــروح الاسلامية التي تقوم على المساواة ، واذا التركيه تفسد روح الدولة ، ومع ذلك فقد ظلت الروح العربية تغالب ذلك كله بحضارتها وثقافتها ورسالتها ولغتها ، غير ان بدائية المغول وعصبية الصليبيين الغربيين تستنزف في هذه الفترة الزمنية التي نتحدث عنها ما بقي في روحنا الاصيلة من قوة. فاذا نحن ننزاح عن مكان الريادة ، ولا يكون للعروبة الصافية بمعناها الذي خرجت به من الجزيرة موضع القيادة وانما تتتابع على القيادة هذه القوى المختلفة الهرمة والشابه ، ولكنها كلها لا تملك الاصالة وعمق الروح وتعمق المثل الاعلى القدر الذي كان للاجيال الاولى ، ولذلك لا يكـون لها في دفع الركب البشري في طريق الحضارة الصاعد الا دور ثانوي ، وان كان توفر لبعضها من القوة ما فرض به وجوده ، وشيد ملكه ، واعطى الشرق معنى الهيبة في نظر اعدائه الغربيين.

ومع خمود الروح الاصيلة خمد الشعر منذ سقطت بغداد .. كـان صوت صفي الدين الحلي اخر الاصوات التي نفخت فيها هذه الــروح مزاميرها ، وقال صفي الدين شعره تتخلل ثناياه نفحات من الروح العربية المنتفضة .. حرض على المغول وحذر منهم وكان ذوو السلطان حولـه يفقهون قوله لانهم كانوا بقية من هذه السيوف العربية التي سكنت اغمادها بعد ، او بقية من السيوف التي طبعت على غرارها السيـوف الايوبية ومن اتصل بها متاثرا خطاها .. ولذلك نجد كثيرا من شعر صفي الدين معارضات ، ونجد عنده مثل الفخر الذي قراناه في العصـور الاولى .. ولكننا ندرك بوضوح ، ونحن نقرأه، اننا لسنا امام الشاعر الذي كنا نعرفه ، لسنا امام حسان او المتنبي او ابي تمام ، وان كـان يلبس مسوح المتنبي ويكتسي اثواب ابي تمام ،ويستعير اوزانهما وقوافيهما. ان شعره صورة باهتة للشعر في معناه السليم .. ولقد خيل الي وانا اقراه كانما انا احيا في الكهف الذي ترتسم على جداره ظلال الاشياء .. ولكنـــي لا احيا مع الاشيــاء ذاتهــا ... ان صوتــه يرتفع احيانا كما يرتفع صوت الشعراء ولكنه لا يحمل دفقة قلوبهم ودفء عواطفهم ، وتلك هي التي تهب الاصوات عادة رنينها المتميز .

وفي الوسع ان نعتبر صفي الدين من هذا النحو في المشرق خاتمة

ـ التتمة على الصفحة ٨١ ـ

العيون

كتابة في عين ماء
غيم يذوب في السماء
رسائلي ، بوحي ، حياتي قصة خرساء
تقصها العيون
لانني اعيش في ميناء !
احار في تعدد الاجناس ، واللغات، والازياء
فارقب الحياة صامتا ،
مكبل الحنين
كأنما بيني وبين الناس قضبان
كأنني سجين !
اشير ، احلم الحياة ، لا اعيشها ،
افتح عيني ، اصلب الاشواق في البياض والسواد
واعرف السهاد !

*

الحزن نظرة بلا اهداب
كسيرة ، جبانة يخنقها الضباب
ولحظة السرور حينما تمر ،
تزهر في عيني بنفسجه ،
ندية ، يهيج في عروقها الشباب
لو ضوأ الليل مباهجه
لكن حديث العين دائما يضيع
فحين تطفأ الشموع ،
ويمطر الضباب ، حين تنزل الدموع
تنطمس الحروف في العيون
وتغلق الابواب !

*

الصمت ، والجدران ، والظلام
آلهة البيت الذي به انام
آلهة .. لا تعرف الكلام
اجسادها مرشوقة عيون
اذا سهرت راقبتني ساخرة
ولو خنقت في السرير ضجة الانوار
رايتها قد غادرت اجسادها ،
وطوقت حولي
تعيد في عيني مناظر النهار
واول الليل
فلا انام !

*

يا جارتي !
عيناك امي وابي
عيناك في الشباك تطلبان مثل مطالبي
تبتسمان ان اتيت
تغنيان
وان بكيت تبكيان !

*

يا طالما واجهت هذه العيون
عين على شرفه
السور والعيون بيننا
هل استطيع ان ارى اعماقهما
من هذه الوقفه !
عين معي تقول اغلق بابنا
لكنني اطلقت ساقي للدجى
سميت جبنى يومها عفه !
عين تقول غير ما تعطى الشفاه !
عين زجاج لا ترى في قاعها معنى
عين ترى للخلف لا ترى سوى جدرانها
تمر بالقتيل لا ترف فوق راسه رفه!

*

يا اصدقائي اقبلوا .. اني حزين !
تحسسوا جرحى، وانصتوا لسيال الدماء
صوت دمائي في الرمال مثل خافت البكاء
يا اصدقائي اقبلوا .. صبوا العزاء
صوت حبيبي عالم من الصفاء
صوت حبيبي جنة خضراء ، عصفور يغني في الضياء
يا اصدقائي اقبلوا . .
بابي لكم ، قلبي ادخلوه
تزاحموا من حوله فالبرد يأكل الوجوه
غنوا معي .. اني حزين !
يا اصدقائي ما لكم لا تسمعون !
ومالها شفاهكم ، تمضغ قولا لا يبين
هل بيننا الهواء !
ام غاضت الالفاظ من فمي !
فلم يبن الا دمي !
يا اصدقائي حولوا عيونكم ،
ان قلت ما لا تفهمون
عيونكم قيد فمي !
عيونكم دقات مسمار يشد في الطليب معصمي !
عيونكم شيخ ، وقسيس ، وتاريخ دفين
عيونكم يا اخرون !

*

لو انني افصحت عما في العيون
عريت قوما من ثيابهم !
لو انني جسدتها قولا سحابات الظنون
لاغلق الناس العيون
لهول ما يشاهدون !

احمد عبد المعطي حجازي
القاهرة

---

* من ديوان « مدينة بلا قلب » الذي يصدر للشاعر قريبا عن دار الاداب .

الفلاح والثورة العربية في الجزائر ...

بقلم عثمان سعدي

ان ابرز سمات الثورة العربية بالجزائر ارتباطها بالارض . فالارض هي الاطار الذي يبرز النضال ، والارض هي منبع مقاومة جيوش الاحتلال، وهي المصدر لكل الانتفاضات التي قام بها شعبنا هناك ، هذه الانتفاضات التي تطورت الى ثورة اعتبرت معجزة في تاريخ نضال الشعوب ضد الاستعمار .

واذا تفحصنا تاريخ الجزائر بمجهر النزاهة العلمية والانصاف الموضوعي، وجدنا ان العنصر الديناميكي الفعال الذي لعب دورا رئيسيا في المقاومة والثورات هو الفلاح ، الفلاح هو الذي قاد المقاومة ضد جيوش الاحتلال الفرنسية والتي استمرت (من سنة ١٨٣٠ الى ١٩٠٣) فمن الفلاحين كون عبد القادر جيشه الذي قاد المقاومة مدة سبعة عشر عاما من (١٨٣٠ الى ١٨٤٧) والفلاحون هم الذين قاموا بثورة ابي بغلة سنة ١٨٥١ ، وهم قاموا بثورة بني سناسن سنة ١٨٥٩ ، وهم الذين قاموا بثورة اولادسيدي الشيخ الاولى سنة ١٨٦٤ ، والفلاحون هم الذين كون منهم البطلان الخالدان مقران والشيخ حداد جيشا ثوريا ١٨٧١ اضطر فرنسا الى ارسال ربع مليون جندي لاخماد هذه الثورة بعد ان خسرت فيها ٦٠٠٠٠ جندي من زهرة ابنائها . والفلاحون هم الذين قاموا بثورة اولاد سيدي الشيخ الثانية سنة ١٨٨١ عقب احتل فرنسا لتونس مباشرة ... والفلاحون مع البدو هم الذين حاربو جيوش فرنسا بصحراء الجزائر من سنة ١٨٨٩ الى سنة ١٨٩٢ والفلاحون هم الذين قاموا بثورة اوراس سنة ١٩١٧ .

لكن لماذا كان الفلاح بالجزائر عنيفا في مقاومته للاحتلال الفرنسي ، في الوقت الذي نجد فيه شقيقه بتونس ومراكش لم يقم بدور نضالي يذكر ضد الوجود الفرنسي ؟ اليس الفلاحون في المغرب العربي من طينة واحدة ؟ الا يجري في عروق فلاح الجزائر نفس الدم الذي يجري في عروق فلاح تونس والمغرب الاقصى ؟

ان الارض هي السبب الرئيسي في عنف مقاومة الفلاح بالجزائر للاحتلال . فتوزيع الارض بالجزائر الذي يكاد يكون الوحيد من نوعه في تاريخ الاقطار الحديث ، هو الذي ولد هذه الطاقة الثورية في نفسية الفلاح .

عندما دخل الفرنسيون في الجزائر وجدوا انواعا من الملكية العقارية .

١ ـ ملكية الدولة (البايليك)

٢ ـ اراضي الحبس الموقوفة على المنشآت الدينية والجمعيات الخيرية .

٣ ـ اراضي القرية او القبيلة (اراضي العرش) وهي عبارة عن ملكية جماعية .

٤ ـ اراضي الملاك الافراد .

وتنعدم من الخمسة اسداس الخارجة عن نطاق الحكم التركي (١)،الملكية الفردية وتنتشر الملكية الجماعية ، التي نجدها بقلة في السدس الواقع تحت النفوذ التركي ... والقبائل بالجزائر لم تعرف الملكية الفردية الا بعد دخول الفرنسيين . لقد كان لكل قرية ارضها الخاصة بها ،يستغلها سكانها استغلالا جماعيا ، يعين شيخ القرية كل سنة ، جزءا من الارض للاسرة تستغله ، وتضم مجموعات من الاسر الاراضي المخصصة لها ، بعضها الى بعض ، ثم تزرعها ، والفرد والاسرة لهما حق الاستغلال وليس لهما حق الملكية .

كانت القبائل لا تعرف بيع الارض قبل دخول الفرنسيين ، واذا استثنينا السدس الواقع تحت نفوذ الاتراك ، وجدنا ان هذا النظام الزراعي الجماعي لم يتح للاقطاعية ان تنشأ ، وخلق نوعا من الحياة الديموقراطية تتخذ العدالة الاجتماعية قاعدة لها . فالارض ملك للجميع ، والفرص متاحة للجميع ، وما على الفرد الا ان يكد ويعمل حتى يحصل على الانتاج الذي يحفظ له كرامته الانسانية . وقد شهد بهذا القادة العسكريون الفرنسيون انفسهم عندما دخلوا الجزائر ، ووجدوا بها حياة ديموقراطية افضل من الحياة السائدة في فرنسا نفسها ، مثل الكونت دي هيرسون الذي كتب يقول: «اني اشك في شرعية احتلالنا لهذه البلاد ، فأن للقبائل حق الاولوية ـ الذي لا جدال فيه ـ من المعيشة بين منازلها كما هو حالها من اجيال مضت . ويبدو لي ان العرب لم يسيئوا التصرف في معيشتهم ، ما داموا يحكمون انفسهم بقوانين ديموقراطية صالحة .. ونحن انما نقسو عليهم لا لشيء الا لاننا اقوى منهم » .

ويقول الكولونيل (فوري) : « لم ار قط ولم اكن اتوقع مثل هذه الكثرة من السكان ، ومن ضخامة المراكز التي تجمعهم كما رأيت في جبال (بني بو عايش) و (بني مالك) . فهنا تجد المساكن المنعزلة كثيرة ، ولكن تجد ايضا مداشر وقرى ، شبيهة بالتي عندنا في فرنسا ، وفي احسن واجمل ما تكون من المواقع . كلها محاطة بالبساتين والجبال المشجرة العاتية العظيمة بزياتينها .. لقد وقفنا كلنا مشدوهين مذهولين لهذا الجمال الطبيعي الذي لا يكاد يحد . ولكن الاوامر هي الاوامر ... وقد كان اعتقادي انني اقوم بواجبي كأكمل ما يكون ، عندما لا اترك قرية واحدة قائمة ، ولاشجرة واقفة على ساقها ، ولا حقلا عامرا . وان الشرور التي اقترفها جنودي كانت لا تحد ولا تحصى . ولكن هل ذلك شر ؟ ام هو خير ؟ انني اعتقد شخصيا ان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لحمل السكان على الاستسلام والهجرة .»

(١) كانت الجزائر في العهد التركي مقسمة الى قسمين ، قسم يقع تحت نفوذ الاتراك وهو عبارة عن بعض المدن الكبيرة ومساحة لا تتجاوز سدس القطر الجزائري ، اما الخمسة اسداس الباقية فقد بقيت محكومة بواسطة جمهوريات قبلية .

ونتيجة لهذه الحياة الجماعية العادلة ، كان الفلاح يتمتع بمستوى من المعيشة حسن ، اثر في بنيته وصحته. وها هو الجنرال (فالازيه) يشهد بذلك في احد تقاريره : « كان هؤلاء البدو والسكان في القرى والمداشر يمارسون بعض الالعاب الرياضية البدنية جعلت منهم — مع ما كانوا يتمتعون به من الهواء الطلق والرخاء الحقيقي في المعيشة — رجالا كاملي الرجولة ».

ورخاء المعيشة ، والحياة الديمقراطية ، وسلامة البنية ، جعلت من الفلاح بالجزائر نموذجا كاملا للانسان الثائر . فهو لا يعرف سوى الحرية ويجهل كل انواع العبودية ، له نفس تأبى الضيم وتعاف الذل ، جبار اذا ما شعر بأن كرامته مست ، اسد اذا اعتدى عليه . اذا ثار فهو صامد لا تلين له قناة، له اصرار على الوصول الى الهدف يبلغ الى حد العناد. هذا النموذج الكامل للانسان الثائر في شخصية الفلاح العربي بالجزائر هو الذي جعل الجنرال (بوجو) (مؤسس الاستعمار الفرنسي بالجزائر) يصيح صيحة ملؤها الاعجاب ، قائلا : آه ، لو لم يوجد العرب في الجزائر او لو كانوا يشبهون تلك الشعوب النائمة التي في الهند... لما نصحت بلادي بان تكون جالية الى جانب العنصر العسكري. ولكن وجود هذه الامة التي بلغت من شدة المراس والاستعداد للحرب ، حدا ارفع بكثير مما هو عند الجماهير الاوروبية ، يضطرنا اضطرارا الى ان نضع امامها وحولها وفي وسطها ، سكانا يكونون على اوفر ما يمكن من القوة.»

هذه الصلابة ، هذا الثبات ، هذا الاصرار ، هذه البطولة الاسطورية التي امتاز بها الفلاح بالجزائر هي التي جعلت ضابطا فرنسيا اخر اسمه (فيستي) يصرخ بالاعجاب ، وهو يروي لجنراله ، في احد تقاريره حادثة رجلين اتهما بقتل ضابط تركي يعمل في الجيش الفرنسي... وحكمت عليهما السلطة الفرنسية بقطع يديهما . قال الضابط الفرنسي: « حزم ذراع كل منهما عند الزند ، وشد على شرايينهما بحبل ، ثم وقع جز اليد بتمهل وبطء ، ثم رميت اليدان على وجهيهما . ولكن يا سيدي الجنرال ، لقد رأيت هذا بعيني ، انه لم يظهر على الرجلين اثناء العملية — اي شعور بالالم . لقد كان وجه كل منهما طبيعيا لا اثر فيه للتوتر او التقلص . ثم تناول كل منهما يده الملقاة على الارض بيده السليمة وسار الرجلان جنبا الى جنب يتحدثان بهدوء عجيب ... ان رجالا من هذا الطراز قادرون على ان يفعلوا شيئا عظيما ورائعا ... »

وبالرغم من ان جيش الاحتلال استعمل كل وسائل الرعب والابادة ، والتقتيل الجماعي، والتعذيب ، فقد بقي الفلاحون صامدين لم يستسلموا ابدا. قال ضابط يدعى (كاروبير) : «تجولنا طويلا لكي نحرق ونتلف ونسحق القبائل بين البليدة والشلف ، وفي ضواحي شرشال . وبالرغم من ان الرعب الذي نشرناه كان عظيما ، فان الهدف الذي كنا نريد تحقيقه وهو استسلامهم ظل بعيدا »..

وثورات هؤلاء الفلاحين العزل ، الذين احرقت قراهم ، واتلفت مواشيهم وهدمت مزارعهم هي التي اصبحت تهدد الجيش الفرنسي ذا الماضي العريق في تاريخ العسكرية بالابادة . قال الدوق دوليان « ان هؤلاء الرجال ذوي الحمية والبأس ، قد اذاقوا الفرنسيين متاعب لم يعرفوها في كامل حروبهم الامبراطورية ، وساهموا — اكثر من اي جيش نظامي اخر في تدمير الجيش الفرنسي .. لقد كانوا يمنعون الجيش ان يذوق النوم طعما ، وانما يضطرونه للبقاء على قدم التحفز الذي لا يهدأ » .

لقد فشلت كل الوسائل التي اتخذها الفرنسيون زمن الاحتلال ، لاخماد ثورات الفلاحين بالقوة . اذن فما هو الحل الناجع لايقاف هذه المقاومة الجبارة ؟ لقد توصل الفرنسيون اخيرا الى الحل وهو كما يقول (موريسيار) « لكي نحقق تلك الغاية ، يجب ان نستورد مزارعين أوروبيين ، لاننا لا يمكننا ابدا ، ان نثق ثقة كافية بالاهالي، الذين لن يترددوا في القيام بثورة عند سماعهم لاول بادرة للحرب ، فبين الغزو والاحتلال الحقيقي ، لا يكون استسلام العربي الا مرحلة لا بد منها . ان السكان المسيحيين (الفرنسيين) المزارعين هم وحدهم الكفيلون بان يحققوا املنا في استقرارنا يوما من الايام في الجزائر . يجب علينا ان نعمل على احضار اكبر عدد ممكن من المزارعين المعمرين ، ونشجعهم بان نقتطع لهم الارض ونملكهم اياها ، ازداد عددهم » .

اذن فالحل الذي توصل اليه الفرنسيون للقضاء على مقاومة الفلاحين هو تجريد هؤلاء من مصدر هذه القوة الجبارة وهذا البأس السحري. تجريدهم من الارض التي كيفت شخصية الفلاح وابرزتها الى الوجود كشحنات من الطاقات الثورية الرهيبة ...

وهكذا صار العقاب الذي يسلط على القبائل الثائرة تجريدها من ارضها وطردها منها . فمثلا فرضت على القبائل التي قامت بثورة سنة ١٨٧١، غرامة قدرها : « ٣٦ مليونا من الفرنكات » ، مع تجريدهم من املاكهم التي قدرها المؤرخون الفرنسيون بنصف مليون هكتار (الهكتار يساوي فدانين ونصفا) .

ولجأ القادة الفرنسيون الى اغراء المجندين في جيش الاحتلال بمنح كل جندي او ضابط اوروبي حصته من ارض القرية المقهورة . وهكذا صارت ارض القرية تقتطع للضباط الذين يخمدون ثورتها ، ويجلونها عن ترابها . اما السكان فكانوا يطردون الى المناطق النائية عن العمران . قال احد الضباط الفرنسيين . « اما وقد عجزنا عن اخضاع الجزائريين فلنرم بهم بعيدا كالوحوش الضارية ، التي تطرد من الاماكن المأهولة .علينا ان ندفع بهم امامنا مع تقدم العمران حتى نرميهم في الصحراء ، ونبقيهم هناك الى الابد .. »

وانتشرت المضاربة باراضي القبائل السليبة بين الضباط الفرنسيين . قالت زوجة الجنرال برو PRO في خطاب ارسلته الى احد اصدقائها سنة ١٨٣٤ ، « تسألني ايها الصديق عما وصلت اليه اعمال الاستعمار هنا . والحق انها اقتصرت حتى الان على الاستيلاء والمضاربة بالممتلكات. الناس يضاربون على الاراضي كما يضاربون في الاسواق المالية على النبيذ والبن . وقد تدهش ، اذا قلت لك ان اراضي (بليدة) قد بيعت ، الى الاف من الافراد قبل استيلاء جيشنا عليها . ويجد المشترون مسرة في تركيب نظاراتهم المقربة في اعلى الهضاب على بعد ثلاثة فراسخ من(بليده) لتنعم اعينهم بمشاهدة الاراضي التي دفعوا ثمنها ، ولما يستول الجيش عليها . ويتوجه الكثيرون الى مكان التوفيق يشترون مساحات من الارض على اساس الوعود فقط . » وهكذا نجد ان سهل (متيجة) وهو مستنقع يبلغ طوله خمسة وعشرين فرسخا ، وعرضه نحو اثني عشرة فرسخا ، قد بيع عن آخره مقدما ، ولم يبق للمشترين الجدد الا ان يدفعونا للتقدم نحوه ، فنقتل او نقتل في سبيل الحصول عليه ».

لكن بعد مدة اكتشف الفرنسيون ان هذه الوسيلة لم تجد ، مع صلابة الفلاحين ، مع هذا العنصر الديناميكي المنتج . فبعد ان يطرد الفلاحون من ارضهم ، يتجهون الى مناطق اخرى يستقرون بها ويستصلحون بورها ويستثمرونها بطريقتهم الجماعية التعاونية ، ثم سرعان ما يتخذونها قاعدة للهجوم على جيش الاحتلال من جديد . لقد تكلم (مالارمي) عن جماعات في شرق محافظة قسطنطينة ، وقعت ضدهم عقوبات ، قال — « ثم اعاد اولاد يحيي تنظيم شملهم .. وسنعمل على افقارهم ، لان ذلك هو

الضمان الوحيد بالنسبة للمستقبل ».

والحل الثاني ، الذي توصل اليه الفرنسيون ، لاخماد ثورات الفلاحين هو استعمال التشريع كسلاح يسير جنبا الى جنب ، مع عمليات اغتصاب الارض من الفلاحين . ففي ٣١ يوليو (تموز) ١٨٧٢ صدر امر بان يضم الى املاك الدولة مجموع الاراضي الخالية من العمران ، والتي لا يستطيع اصحابها تقديم سندات تثبت ملكيتهم لها قبل تموز (يوليو) سنة ١٩٣٠ (السنة التي وقعت فيها الحملة الفرنسية على الجزائر) وبطبيعة الحال كانت الملكية الجماعية هي السائدة آنذاك وهي لا تحتاج الى سندات يحصل عليها الفلاحون لتثبت ملكيتهم للارض .

وما دامت الملكية الجماعية هي السائدة ، ما دامت الارض ملكا للقبيلة، وللفرد حق الاستثمار فقط ، وليس له حق البيع ، وهو نظام تعاوني يخلق جوا من الانسجام والتعاون بين افراد القبيلة ، ويجعل منهم كتلةمتينة منسجمة ، ما دام هذا النظام هو السبب الرئيسي في قوة جبهة الفلاحين وتماسكها ، فلتسن قوانين تستهدف تفتت هذا النظام الجماعي ، وتمزق هذا التكتل المنسجم ، وتقلب كتلة القبيلة او القبائل المنسجمة الى مجموعة اسر وافراد متشاحنين متخاصمين ، بالقضاء على الملكية الجماعية ، وبتوزيع ارض القبائل بين اسرها وافرادها ثم اجازة بيعها .. وصدر قانون بالاستيلاء على الارض الجماعية هذا نصه . « اليست الاراضي الشائعة التي تملكها القبيلة ملكية جماعية، قبل كل شيء ملك لله ، واذن فهي ملك للبابليك اي للدولة ، وهي تمثل الله على الارض ،اليست القبائل تملك هذه الارض ملكية جماعية لاستيلاء العرب عليها بالقوة من قبل ؟ ومن جهة اخرى ، الا يجب ان تنتج اكثر من انتاجها وهي على هذه الحال ؟ اذن فلتعتبر القبائل مستأجرة لهذه الاراضي من الدولة ، وليس هناك ما يمنع الدولة من ان تقسمها وتديرها ادارة حسنة ، وتصدر فيها سندات ملكية .»

الا ان اخطر قانون على جبهة الفلاحين كان قانون سنة ١٨٧٣ وتبدو لنا فظاعة هذا القانون من خلال تصريح لاحد فلاحي قبيلة (اولاد ارشاش) عندما قال ـ معلقا على تطبيق هذا القانون ـ : « ان الفرنسيين قد تغلبوا علينا في حقول السبيخة (اراضي هذه القبيلة التي طردت منها) ، وقتلوا شبابنا وفرضوا غرامات وضرائب، لكن كل هذا هين ولا يعد شيئا، والجراح لا بد لها ان تلتئم .. لكن ، انشاء الممتلكات الفردية الخاصة ، والترخيص لكل فرد ببيع الاراضي التي تكون من نصيبه بعد اقتسامها ، معناه اصدار قانون باعدام القبيلة . فبعد عشرين عاما من بدء تنفيذ هذا القانون ، سيكون اولاد ارشاش ، قد انقرضوا عن آخرهم ».

ان قائل هذا الكلام ليس هو بخبير اقتصادي ، ولا بفيلسوف اجتماعي، وانما هو فلاح بسيط في الجزائر تعود على الحياة الجماعية ورأى انها هي الوحيدة التي حافظت على الفلاحين من الانقراض امام سياسة الابادة ، والتجويع التي اتبعها الفرنسيون ، وهي وحدها التي ستجعلهم يستردون قواهم ثم يأخذون ارضهم من ايدي المحتلين. وما دام الفرنسيونقدتنبهواالى نقطة القوة في القبيلة،وعملوا على حلها ، فقبيلته ستنقرض بعدعشرين عاما.

وهكذا توصل الفرنسيون المستعمرون الى هدفهم ، فحلوا الملكية الجماعية ، وبحلهم لهذا النوع من الملكية ، توصلوا الى تفكيك جبهة الفلاحين،وخلق منازعاتبينهم تطورت الى حروب بين القبائل من اجل الحدود الفاصلة بين الملكيات ، روى لنا اجدادنا البعض من فظاعتها . وكان الفرنسيون يغذون هذه الحروب ويزيدون من هذه الخصومات

★

تكلمنا عن دور الفلاح في المقاومة . والان نريد ان نتكلم عن دوره في تطور الوعي الثوري ، الذي تجسم في ثورة تشرين الثاني (نوفمبر)١٩٥٤.

ابتدأت تنحدر مقاومة الفلاح لجيوش الاحتلال نحو الغروب ، بعد ثورة ١٨٧١ . ولم يكد يحل العقد الاخير من القرن التاسع عشر حتى كانت هذه المقاومة الايجابية قد « لفظت اخر انفاسها » . ثم جاءت فترة صمت دامتما يقرب من ثلاثين سنة،لم يسمع خلالها صوت يعلو بالاحتجاج او يطالب بحق.

وفي اوائل العقد الثالث للقرن العشرين ، قطع هذا الصمت صوت ضابط جزائري في الجيش الفرنسي، ينتمي الى عائلة من العائلات البورجوازية الكبيرة ، هو الامير خالد (احد احفاد الامير عبد القادر بطل المقاومة) وبدأ ينضم الى حركة خالد ابناء الطبقة البورجوازية الصغيرة . الا ان تأييد هؤلاء لخالد لم يستمر طويلا ، فما ان بدأ اضطهاد السلطات الفرنسية لحاملي هذه الفكرة الجديدة حتى تخلوا عنه ، وبتخليهم عنه القي عليه القبض ثم نفي خارج البلاد . وودع الامير خالد الجزائر وهو يلعن ابناء طبقته .

الا ان دعوة خالد لم تمت بل ظهرت بعد سنوات عديدة ، في منظمة « نجم شمال افريقيا » بين اوساط العمال الجزائريين بفرنسا سنة ١٩٢٦. ولم يكد يدخل العقد الرابع للقرن العشرين حتى تالف حزب الشعب الجزائري على انقاض « منظمة نجم شمال افريقيا » ثم عقب تاليفه ظهور احزاب معتدلة اخرى كجمعية العلماء الجزائرين ، و (حزب البيان) و (الحزب الشيوعي)(١)

ونحن لا ننكر دور جمعية العلماء وحزب البيان في تطور النضال ، ونشوء التجمع الوطني ، وانما الذي يهم بحثنا هو « حزب الشعب » . فهذا الحزب هو الذي حدد الاتجاه الثوري السليم في اول برنامج يصدره وهو المدرسة الثورية التي تخرج منها شبابنا الثوري الذي اوقد الشرارة الاولى للثورة ، ولا زال الى الآن يقودها في الجبال .

الا ان الاتجاه الثوري ، لم تتح له فرصة الممارسة الثورية في اول الامر، بل جمد على اثر الانتكاسة الوطنية في ٨ ايار (مايو) ١٩٤٥(٢) ـ بواسطة

(١) ان وصفي (الحزب الشيوعي الجزائري) بالاعتدال يبدو غريبا . لكن الحقيقة هي ان لتاريخ الحزب الشيوعي في الجزائر مرحلتين . المرحلة الاولى كان فيها عبارة عن شعبة تابعة للحزب الشيوعي الفرنسي لان اعضاء اللجنة المركزية لهذا الاخير كانوا يعتبرون الجزائر ثلاث محافظات تابعة لفرنسا فيما وراء البحار ، ولا يؤمنون بكيان الجزائر المستقل . المرحلة الثانية : امام ضغط جماهير شعب الجزائر وتذمرها ، اضطر قادة الحزب الشيوعي الفرنسي ، الى الموافقة على تأسيس الحزب الشيوعي الجزائري . الا ان هذا الاخير بالرغم من انفصاله عن اصله ، بقيت سياسته تخطط في باريس على ايدي شيوعيين فرنسيين ، وتراعي ظروف فرنسا اكثر من مراعاتها لظروف القضية الجزائرية . فالحزب الشيوعي الجزائري الذي لم ينبع من صميم مجتمع الجزائر ، ولا استمد معطياته النضالية من واقع الجزائر ، لم يعبر في يوم من الايام عن حاجة الجزائر . وهذا هو الذي جعله يبقى على هامش القضية الجزائرية .

(٢) مؤامرة دبرها المستعمرون وعلى رأسهم ديغوال ، وقضوا على ٤٥ الفا من عرب الجزائر في مدة ثلاثة ايام ، عندما خرجت مظاهرات سلمية يوم امضاء اتفاقية الانتصار على المانيا ، تذكر فرنسا والحلفاء بوعد الرئيس الامريكي الراحل (روز فلت) لمنح استقلال الشعوب المستعمرة التي شاركت في الحرب ضد النازية . والغريب ان وزير الطيران لحكومة ديغول في هذه الفترة ، كان شيوعيا اسمه لا فروكس Lafroux وعندما محا الطيران الفرنسي اربعين قرية جزائرية لم يحرك الوزير الشيوعي ساكنا وبقي في منصبه كان شيئا لم يحدث .

الا ان الفلاحين بالجزائر شذوا عن هذه القاعدة ، فهم يحتقرون ساكن المدينة ويسمونه (البلدى) ومضمون كلمة (البلدى) في ذهن الفلاح خليط من الميوعة والبخل والانحلال وضعف الشخصية . لقد كان الفلاحون يحبون الاستماع الى كلمة الاستقلال من هؤلاء (البلديين) ولكن كانوا يسخرون من وسائلهم للحصول على هذا الاستقلال ويؤمنون ايمانا راسخا بان الاستقلال ياتي على ايدي الفلاحين. والفلاحون وحدهم هم الذين يملكون الوسائل التي تمكنهم من طرد فرنسا بجيشها وبوليسها من الجزائر ...

كنت اوزع في احدى الجولات الانتخابية على الفلاحين ، نشرات الدعاية لمرشح وطني ، وكنت الاقي من الفلاحين - في معظم الاحيان - سخرية من الانتخابات ، واحتقارا للاحزاب التي شاركت فيها . الا انني لن انسى ابدا حادثة وقعت لي مع فلاح عجوز : « ناولته الورقة وشرحت له كيف يضع هذه الورقة في الظرف ثم يلقيها في صندوق الاقتراع . ثم القيت عليه خطبة حول اخلاص المرشح ووطنيته ، وكيف سلخ سنوات من عمره في السجن ، وعن مواهبه الخارقة وجدارته في تحقيق الاستقلال بسرعة. واستمع الي الفلاح العجوز في هدوء لم تتحرك اثناءه عضلة واحدة من عضلات تقاسيم وجهه ، ثم رفع الي عينيه الخضراوين ، وقال وهو يضع التبغ في الورقة ويلفها : « ان هذه الورقة لا تصلح الا للف (الشمرة) اي التبغ » . واردت ان اثور في وجه هذا الفلاح الذي اهان مرشحي البطل .... لكن الفلاح العجوز اوقفني باشارة من يده ، « وقال وهو ينفخ اول خيط دخان من فمه ، ويتابعه بنظراته ويشير اليه بسبابته الخشنة : « ان كل مجهوداتكم هذه تتلاشى مع خيوط هذا الدخان الازرق في الفضاء الواسع ... اذا اردت الاستقلال فاعطني بندقية ، وانا كفيل بان احضر لك هذا الاستقلال واطرد الفرنسيين من الوطن » ثم انطلق الفلاح العجوز وتركني جامدا في مكاني اتابع ببصري خيوط الدخان المتلاشي في الفضاء الواسع ، واضغط على رزمة المنشورات في يدي بعصبية .

ان شهامة الفلاح جعلته ينظر الى فشل اول جولة في الانتخابات ، كصفعة وجهها اليه ساكن المدينة ، لقد صدق اسطورة الانتخابات في اول الامر ، ولكن سرعان ما تركها ، واعتبر دعوة ساكن المدينة لها المستمرة سلسلة من الاكاذيب والسخرية .

وثارت تونس في سنة ١٩٥٢ ، اي قبل ثورة الجزائر بسنتين ، وتبادرت الى اسماع الفلاحين حوادثها محاطة بهالة من الاسطورة المحببة لدى الجماهير البسيطة ، فانطلقت افواج هؤلاء الفلاحين تخترق حدود تونس الى معاقل جيش التحرير التونسي ، لتحارب جيش الاستعمار . وكفاكم ان تعلموا ان (الازهر شريط) احد ابطال معارك الجرف الخالدة ، وقائد منطقة الجبل الابيض ، كان يحارب في صفوف جيش التحرير التونسي ، قبل غرة تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٤ .

لقد اعتبر الفلاحون بالجزائر تقاعس شعبهم ، في الوقت الذي تثور فيه تونس ومراكش ، لطخة من العار . وكثيرا من كان الفلاح يصرخ عند سماعه اذاعة صوت العرب عن انباء تونس والمغرب الاقصى . « السنا رجالا ؟ هل التونسيون والمراكشيون ارجل منا ؟ »

وفي اوائل سنة ١٩٥٤ ، عندما بدأ شبابنا الثوري في اعداد الثورة في القرى ، وجدوا الفلاحين يغلون كالبراكين ، ويترقبون اشارة الانطلاق ليثبتوا للملأ ان في الجزائر ابطالا. وما ان اعلنت ساعة الصفر حتى انطلق هذا الفلاح البسيط يمنح الفعالية لا لثورة الجزائر فقط ، بل وللثورة العربية في جميع اجزاء وطن العرب. وراح الفلاح يفتح الواجهات الجديدة ، دون ان ينتظر امرا عن القيادة ، ولم تمض بضعة شهور حتى كانت جبال اوراس واللمامشة وشمال قسنطينة وجرجرة تطلق بحمم الثورة الممزوجة بالحان الحرية .

ان الفضل في استمرار ثورتنا وتجاوزها للعراقيل ، تجاوزها للستار الحديدي الذي ضربه الاستعمار حول ثورتنا ... ان الفضل في انتصار ثورتنا على سياسة التجويع ، والابادة الجماعية ، والتشريد ، يرجع كله الى الفلاح والى الفلاح وحده . فالروح التعاونية السائدة بين الفلاحين جعلت جيش التحرير لا يحتاج الى لباس ولا الى مواد غذائية . والغريب ان المناطق التي اصبحت محتاجة الى مواد غذائية ، نفد من عند كل سكانها الزاد في لحظة واحدة . كان الاغنياء ومن لهم احتياطي مخزن من الحبوب او النقود يتقاسمون مع بقية سكان القرية لقمة العيش ، الى ان طلع عليهم يوم واكياس كل سكان القرية غنيهم وفقيرهم ، ملاكهم ومعدمهم ، فارغة .

كان الفلاحون في الوقت الذي يشاهدون فيه فلذات اكبادهم يتضورون جوعا ، يرسلون الوفود الى قادة جيش التحرير ليقولوا لهم بالحرف الواحد « اياكم ان تتوهموا ضعف معنوياتنا فتراودكم نفوسكم على التنازل ، استمروا في الكفاح ، اثبتوا على الاستقلال الكامل ، والله معنا .... »

وحكى لي احد زعمائنا هذه القصة : قابلت مرة احد الفلاحين ، وشكا لي حاله ، وكيف قتل الفرنسيون كل ابنائه . ودمعت عيناه فسالته رايه في الاستقلال الداخلي ، فاجابني والدموع تنهمر من عينيه - ان هذه الدموع لا تجففها سوى راية الاستقلال التام -

لقد ادى شعبنا بالجزائر واجبه كاملا في ثورة العرب بالجزائر ، وابيد منه حتى الان مليون نسمة ، دمرت قراه واتلفت ثرواته ، اعتدى على شرف بناته ، مثل به اشنع تمثيل ، ولا زال الى الان صامدا كجباله مستعدا لان يباد عن اخره في سبيل نجاح ثورته (١)

الكويت **عثمان سعدى**

(١) محاضرة القيت في « نادي الاتحاد الكويتي بمناسبة الذكرى الرابعة لثورة الجزائر .



الى نجمة الغروب

" الاغنية الثانية "

صديقتي يا نجمة الغروب :
الليل حولي ساكن رطيب
والصمت حولي شاحب كئيب
والنور ، نور الشاطىء البعيد
مختلج في ظلمة المغيب
وانت عن عينيَّ يا صديقتي
بعيدة بعيدة
خفية الطيوب
وفي الفؤاد لهفة
ندية الندوب
تذيب في عينيَّ الحانا
عجيبة الوجيب
تجرِّح السكون والظلام
ولا تني تلوب
ولا تني تلوب

**

صديقتي ...
صديقتي تلوح
في جفن عيني همسة اختلاج
ترجفها الدموع في السكون
خفية
خفية اللحون
تحار في العينين كالضباب
تلوب في قرارها تلوب
وفجاة
تنصب في السكون
في بحره المستسلم المحزون
واحدة كالجوهر المكنون
تدق قلب الليل والضياع
وتخرق السكون كالشعاع
ترى افي الضياع دمعتي تروح
ام في الدجى
دوائرا دوائرا
ترسم اصداء ...
وتبتني قصائد ! ..

**

يا دمعتي تصاعدي
تصاعدي الي السماء
غمامة رهيفة
لا تحجب الضياء
مجمرة في القلب لا تني تصعِّدك
بخور شوق ، متململ العبق
تصاعدي تصاعدي
ولفِّعي النجوم
بعطرك المنغوم
وفتشي عن نجمة الغروب
ووشِّحيها بالحنين .. بالالم
فوسط حالك الظلم
سيزدهى ضياؤها الريان
بالحب ...
بالحنان

**

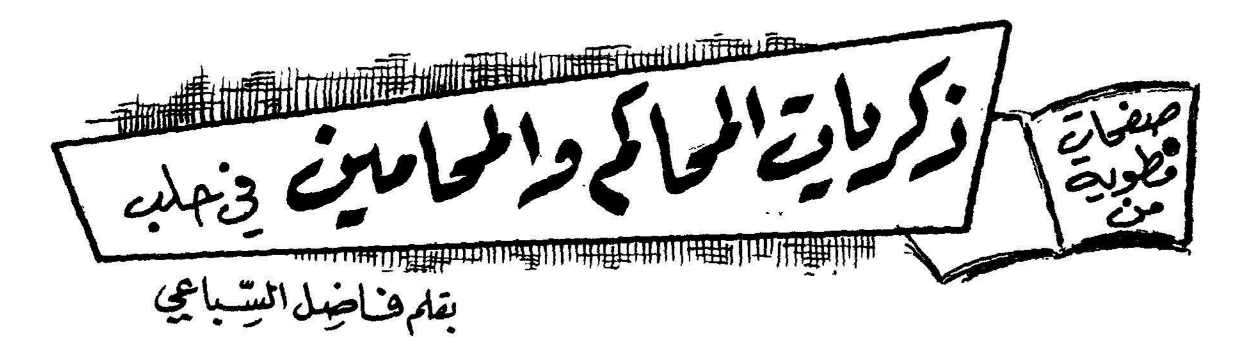
صديقتي يا نجمة الغروب
صديقتي عن وجهك الحبيب
تفتش العينان في الظلام
عن قطرة من الضياء ...
عن لمحة ندية من الصفاء
لكن صديقتي ..
في غربنا جدار
يحول بين ناظري
ووجهك الوضيء
فالتجي صديقتي
للشعر
للنداء

**

وددت يا صديقتي
لو ارتقي اليك
وفي ازار الليل اختفي
يدلني عليك
وعندما ـ صديقتي ـ يؤودني الكلم
ويصمت النغم
امرِّغ الخد .. على ضيائك الوديع
واقبس السلام
والامن والحنان
فلا يذودني الدجى
عن ركنك الامين
في الغرب يا صديقتي ...
في ... حيث تسكنين (*)

القاهرة — **ملك عبد العزيز**

(*) من ديوان « اغاني الصبا » الذي يصدر قريبا



بقلم فاضل السباعي

صدر في حلب مؤخرا كتاب قيم عنوانه « من ذكرياتي في المحاماة في سوريا » (١) للمحامي فتح الله الصقال . وتجتمع في المؤلف صفات ثلاث بارزة : محام ، وكاتب ، وانسان كبير القلب .

فهو محام له الصولات المشهودة في عالم القضاء في مصر وسورية ، وكم له من فتح جديد في اجتهادات قضائية انارت السبيل لدعاوى مشابهة لاحقة . وهو كاتب اديب سليم الحس سخي القلم يجمع شوارد النفس في قطع ادبية يتوج بها جيد مجلته « الكلمة » (١) . وهو ، بعد هذا ، انسان كبير القلب لا ينطوي الا على محبة الناس والشغف باعمال البر وهو الذي يرعى « جمعية مشاريع الكلمة الخيرية بحلب » (٣) .

هذه الصفات الثلاث البارزة في « صاحب الذكريات » ، قادت اليه يوما كرسي الوزارة (٤) . ولما كان اديبا كاتبا يضن بتجاربه الكبرى ان تظل طي نفسه ، فقد انشأ كتابا وسمه بـ « من ذكريات حكومة الزعيم حسني الزعيم » (٥) ، وطلع به على الناس ليقرأوا كلمة حق تعلن في ذلك العهد الذي انطوى وباد .

ولقد شعر ، في العشر السنين الاخيرة ، بحاجته الى الراحة بعد وعثاء العمل بذله في ريعان الشباب وصدر الكهولة . فخلد الى الراحة في دارته الجميلة الهادئة في « شارع السبيل » يستعيد ذكرياته عن المحاكم والمحامين سعيدا بما ادى من واجب وما حقق من نجاح . الا ان قلمه المعطاء ابى الا ان يصوغ تلك الذكريات ادبا ممتعا وتاريخا حقيقا بالدرس والمراجعة ، فكان ان طالعنا بهذه « الذكريات » (٦) مرآة صادقة من نفس اديب محام اخلص للقلم والمحاماة معا بما صور من ذكريات واسرار عن المحاكم والمحامين في حلب الشهباء خاصة .

واراني معنيا بهذا الكتاب عنايتين : فهو كتاب ادبي اولا ، وهو ثانيا يحكي شئون المحاماة ، المهنة التي هجرتها بالامس غير آسف ، فاذا بي اشعر بالاسى الشديد على فراقها وانا اطالع هذه الذكريات ... ان صاحبها قد اهله نبوغه لان يقع عليه الاختيار للدفاع عن الزعيم الخالد ابراهيم هنانو يوم قبض عليه الفرنسيون فقدموه للمحاكمة قصد سوقه الى ساحة الاعدام .

(١) نشرت الكتاب مجلة « الكلمة » في ٣٦٢ صفحة وقدمته هدية لقرائها ، وطبع طباعة فاخرة في مطبعة « الضاد » في العام ١٩٥٨ .

(٢) مجلة شهرية ، صدر عددها الاول في العام ١٩٢٩ ، وما تزال .

(٣) اسست هذه الجمعية « مستشفى الكلمة » بحلب ، الذي يعتبر بحق من مفاخر الاعمال الخيرية في الشرق العربي جميعا .

(٤) تسلم وزارة الاشغال العامة والمواصلات في العام ٩٤٩ ـ عهد الزعيم حسني الزعيم .

(٥) نشر دار المعارف بمصر في العام ١٩٥٢ .

(٦) جرى وضعها في الفترة ما بين ١٤ نيسان (ابريل) حتى ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٥٨ .

كان هنانو قد غادر سورية الى فلسطين فرارا من مطاردة الفرنسيين له بعيد استيلائهم على البلاد السورية . ولما عقدت السلطات الفرنسية في سورية مع السلطات الانكليزية في فلسطين اتفاقا في العام ١٩٢١ بتبادل المجرمين في كلا البلدين ، قدم الانكليز هنانو لقمة سائغة الى الفرنسيين متخطين بذلك العرف الدولي الذي لا يجيز تسليم اللاجئين السياسيين . وفي شهر آب من ذلك العام شاع في حلب ان هنانو قد وصلها موقوفا وانه في السجن العسكري المعروف بـ « خان استانبول » في « السويقة » .

واختير صاحب الذكريات ، المحامي الشاب (٧) ، للدفاع عن هنانو زعيم الشعب .

كانت التهم المنسوبة الى هنانو سبعا ، ترتكز كلها على تهمة واحدة : تشكيل عصابات من الاشقياء للفتك والسلب !! فتجلت صعوبة المهمة التي القيت على عاتق وكيله الشاب .

وقام صاحب الذكريات يدافع ، تحدوه امنيتان : نجاح دعواه كمحام ، وانقاذ راس زعيم شعبه كوطني غيور .

وجاء في مدافعته الابتدائية الاولى امام محكمة عسكرية اعضاؤها الخمسة من الفرنسيين ، انه ليس للمحاكم العسكرية حق النظر في هذه القضية ، لان البلاد في حالة سلم لا في حالة حرب ، وليس للمحكمة العسكرية ان تحاكم في حالة السلم الا العسكريين ، وهنانو ليس عسكريا .

واختلت المحكمة ، لتعلن باجماع الاراء ردها المدافعة وصلاحيتها للنظر في قضية هنانو (٨) .

ومما جاء في المدافعة الابتدائية الثانية ان تسليم ما يسمى بالمجرمين السياسيين لا يجوز بحال . وانما قصد في الحقيقة ، من عقد اتفاق تبادل المجرمين ، تسليم هنانو بالذات ... واختلت المحكمة ، لتعلن رد المدافعة باربعة اصوات من خمسة ، وقد كان رد الاولى بالاجماع (٩) .

ثم دخلت المحكمة في اساس الدعوى . وجعلت تستجوب الزعيم .

قال رئيس المحكمة :

ـ انت متهم بتشكيل عصابات من الاشقياء للفتك والسلب !

اجابت هنانو بملء الجراة :

ـ انا ثائر ادافع عن وطني . ولم تكن غايتنا الفتك والسلب ، والا لقاومنا الشعب وسحقنا سحقا . انني متهم سياسي . ولو كنت مجرما عاديا ، لما فاوضني ممثلكم الجنرال جوبو لعقد هدنة ومبادلة الاسرى اني ثائر سياسي ، واتبرأ من كل مجرم سفاك .

ـ فانت تتنصل من المسؤولية ؟

ـ ان من قاوم الانتداب الفرنسي لا يتنصل من المسئولية !

(٧) كان صاحب الذكريات اذ ذاك ابن سبعة وعشرين ربيعا .

(٨) الكتاب : الصفحة ٨٦ .

(٩) الكتاب : ٨٩.

ـ ومن اضطرك الى ان تحارب ؟
ـ عندما اهاجم ، اغدو مضطرا للدفاع عن نفسي .
ـ لو بقيت آمنا في منزلك ، لما وقفت هذا الموقف !
ـ هذا اجتهاد خاص . ولي اجتهادي . ولا يلام المرء على اجتهاده (١٠).

واستمعت المحكمة الى شهود الاثبات وشهود الدفاع طوال خمسة ايام متواصلة .

وكان ما ختم به النائب العام مطالعته : « لو كان لابراهيم هنانو سبعة رؤوس بعدد جرائمه السبع ، لطلبت اعدام رؤوسه السبعة ... (١١) . وطالب باعدامه .

وقام صاحب الذكريات يدافع عن زعيم الشعب ، وقد تعلقت به اعين وقلوب . نفى عن موكله ان يكون قد قام « باتفاق جنائي » مما يعاقب عليه القانون ، فركنا الاتفاق : المادي والمعنوي ، غير متوفرين في هذه القضية . ثم خلص الى القول :

ان هنانو قائد ثورة اعتنق رفاقه مبدأها . ولو كان من « الاشقياء » ـ كما قال النائب العام ـ لما اجرى معه القواد العسكريون الفرنسيون المفاوضات الرسمية ، ولما دعاه الجنرال جوبو الى تناول طعام الغداء على مائدته . وعندما ابلغ الكولونيل فوان هنانو رغبة الجنرال جوبو بالاجتماع به ، عرض ان يبقى رهينة لدى رجال هنانو ريثما تتم المقابلة بسلام ، فكان من نبل هنانو وسمو اخلاقه ان رفض الرهينة قائلا انه واثق بالشرف العسكري الفرنسي ...

لقد قام هنانو بثورته « مدفوعا بعاطفة وطنية نبيلة ، تماثل العاطفة التي هزت فرنسا ، من اقصاها الى اقصاها ، حينما احتلت المانيا في حرب ١٩١٤ ، بعض البلاد الفرنسية ، فابى الفرنسيون ان تداس ارض الوطن ، وهبوا يقاتلون ويستبسلون في الكفاح ، حتى خرجت فرنسا من حومة النضال منتصرة ظافرة « ... » ان الوطنية ليست وقفا على فرنسا وابنائها ، وانما هي عاطفة طبيعية متغلغلة في اعماق النفوس ، تشعر بها كل امة من امم الارض ، ومنها الامة السورية » ....

« وقبل ان يعود صوتنا الى السكوت ، نتقدم اليكم برجاء اخير ، وهو ان تنسوا لحظة واحدة ، انكم ضباط فرنسيون ، وان تتجردوا لحظة واحدة ، عن بزاتكم العسكرية ، الانيقة ، وان تعودوا رجالا عاديين ، وان تقدروا المسئولية الثقيلة الملقاة على كواهلكم ، وان تخوضوا الى اعماق ضمائركم ، ثم تصدروا قراركم » ، ولن يكون الا البراءة ، « لان شرف فرنسا يابى الا ان يراعي ما قطعته لهنانو من تعهدات صريحة » (١٢) .

وسئل هنانو عن قوله الاخير ، فقال :

« انني واثق بعدالتكم ، بالرغم من الخصومة القائمة بين بلادكم وبلادي . واذا كانت فرنسا تتغنى بالحرية والعدالة ، فان سورية تنشد الحرية نفسها ، والعدالة نفسها » (١٣) .

واختلت المحكمة للمذاكرة ، والامل في البراءة ضئيل ضئيل ، لتنعقد بعد ذلك وتعلن البراءة ... باكثرية ثلاثة اصوات ضد اثنين (١٤) . ودوت قاعة المحكمة بالتصفيق الحاد . وسرت الهتافات في ارجاء دار العدل سرى الكهرباء . وجعلت النساء يزغردن ، على طول الطريق المؤدية الى دار الزعيم في « باب الجنين » ، ويمطرن الموكب ، من الزعيم ومحاميه والصحب من المجاهدين ، بماء الزهر وعطر الورد (١٥) .

*

فيخريف العام ١٩١٢ نهد صاحب الذكريات الى القاهرة قصدالتحصيل في كلية الحقوق الفرنسية . وعمل في الوقت ذاته ، مضيا مع هوايته الادبية ، محررا في جريدة « البورص اجبسيان » ، ثم في جريدة «البيراميد » التي كانت تصدر باللغة الفرنسية ايضا . وفي مدينة « ايكس » القريبة من مرسيليا ، قدم امتحانه الاخير في كلية الحقوق عام ١٩١٥ . ثم انتسب الى سلك المحامين في القاهرة ، وتمرن في مكتب المحاميين الكبيرين الاخوين محمد رمضان وعلي رمضان الكائن في بناية جريدة الاهرام . وظل يترافع امام محاكم مصر طوال اربع سنوات . حتى اذا اغتذي من ارض الكنانة عوده ، وآذن ربيع ١٩١٩ بالحلول ، شد رحاله الى ربوع الوطن الام : حلب الشهباء .

(١٠) الكتاب : ٩٠ و ٩١ .
(١١) الكتاب : ٩٣ .
(١٢) الكتاب : ٩٤ ـ ٩٩ .
(١٣) الكتاب : ١٠٠ .

(١٤) مما يجدر ذكره ان السلطة الفرنسية العليا سرعان ما اوعزت الى الاعضاء الثلاثة الذين صوتوا بالبراءة ، بالرحيل الى فرنسا فورا !
(١٥) كان ابراهيم هنانو زعيما للشعب بلا منازع ، واميرا للمجاهدين ايام النضال الحق ، عهد ان كان المستعمرون في قلب مدننا وشوارعنا . قارع الفرنسيين غير مرة . ووافته المنية في العام ١٩٣٥ ، ودفن في مدخل حلب الغربي الذي عرف فيما بعد بـ « قبر هنانو » .

وصاحب الذكريات يملك ذاكرة واعية وملاحظة ثاقبة . فهو يستحضر في كتابه احوال المحاكم والقضاة في حلب ذياك العهد بصدق فني ما اشد حاجتنا اليه فيما نقرأ من كتب الذكريات تدون بعد مضي عقود من السنين.

كان القضاء في مصر متقدما عما كان عليه في حلب ، والمحاكم منظمة ، والقضاة والمحامون يرتدون ثوب المحاماة فيملأون النفس تهيبا واحتراما ولم يكن الامر كذلك في الشهباء التي كانت تغط في سبات ظل الحكم العثماني . وعندما عاد صاحب الذكريات الى حلب ، قام بجولة في ارجاء دار العدل ، فشاهد ما لم يكن يتصور وهو الذي مارس المحاماة امام قضاء كان حريصا على حسن النظام ... راى ، في غرفة صغيرة مهملة في « السراي القديمة » ، رجلا مسنا عاري الراس عليه قميص ملون بلا ربطة عنق ، وقد طوى ساقيه تحت جسده ، وامامه منضدة صغيرة من نصف متر حافلة بالاوراق المبعثرة ، والى جواره اركيلة يتلذذ بها : كان الرجل « حاكم الصلح » (١٦) ... « ورحب بي اجمل ترحيب ، وامر لي بكاس من السوس ، ملأها سواس كان يدخل الغرفة ويخرج منها ، بين الحين والحين » (١٧) .

ولندع صاحب الذكريات يسترسل ، فيقول :

«وانتقلت الى غرفة اخرى ، تطل على الباحة الكبرى ، وكان يجلس على منصة القضاء فيها ، شيخ وقور ، وكانت هذه الغرفة اكبر مساحة من الغرفة الاولى ، وفيها مقعد طويل يجلس عليه المستمعون .

« جلست استمع ، فعلمت حالا ان الجلسة جزائية ، والحاكم يستجوب رجلا ، متهما بسرقة بعض الخراف من جاره . فانكر المتهم . فقال له الحاكم : اذا بقيت مصرا على الانكار ، فستساق الى المشنقة فورا . ولكن المتهم اصر على الانكار ، فصاح الحاكم بالمحضر : اذهب وهيء المشنقة ، حتى اذا تم نصبها ، قمنا بتنفيذ الحكم .

« فلما سمع الرجل بذلك ، خارت قواه ، وانهارت اعصابه ، واعترف بالجرم المنسوب اليه . فقال له الحاكم : لقد رحمتك هذه المرة ، وحكمت عليك بالسجن ستة اشهر فقط ، واذا عدت الى السرقة ، فليس امامك الا المشنقة .

« وفهمت ان الشيخ الحاكم مشهور بنكاته الظريفة ونوادره الطريفة ، وكان له في استجواب المتهمين اسلوب خاص ، يوصله الى معرفة الحقائق بسهولة » (١٨) .

ولعل اطرف ما في هذا الباب قول صاحب الذكريات عن ذلك الزمان الغابر :

« ولما رغبنا في ان نزور بعض الزملاء للتعرف بهم ، فهمنا ان فريقا من اخواننا المحامين يجتمعون في غرفة واحدة ، اتخذوها مكتبا لهم في احدى الخانات ، وان فريقا اخر منهم ، يستقبلون زبائنهم في دكاكين ، بعضها في باب الفرج ، وبعضها الاخر في شارع الخندق ، وفي باب النصر (١٩) .

(١٦) « القاضي الجزئي » بالاصطلاح القانوني المصري .

(١٧) الكتاب : ٥١.

(١٨) الكتاب : ٥٢.

(١٩) نرجو الا يحسبن القارىء ان الوضع في حلب ما زال على ما كان عليه . فان حال المحاكم اليوم على غاية من النظام والتنظيم ، وان للمحامين مكاتبهم التي لا تقل فخامة عما هو عليه في ارقى العواصم العربية وهم والقضاة يرفلون في ثوب العدالة بمعنييه .

« هنالك ، ذكرنا مكاتب المحامين في القاهرة ، وتمثلنا ما فيها من رياش انيق ، ومكتبات عامرة بانفس الكتب الحقوقية ، من قديمة وعصرية ، حتى ليخيل الى من يزور هاتيك المكاتب ، انه في وزارات رسمية ، والحق ،انه كان في كل مكتب من مكاتب المحامين البارزين ، من خمسة الىعشرة محامين معاونين ، وطائفة من الكتبة المساعدين » (٢٠) .

ولما اتخذ المحامي الوافد من مصر مكتبا له دارا من اربعة غرف في حي « قسطل الحجارين » وجهزه بالرياش على شاكلة مكاتب المحامين في القاهرة ، قال له احد كبار المحامين اذ زاره مازحا : « لقد فتحت علينا بابا جديدا ، وسنضطر الى ان نحتو حذوك ... » (٢١) .

ويستطرد صاحب الذكريات فيصور ، في تضاعيف كتابه ، جوانب من العواطف التي تنطوي عليها النفس البشرية : من خير وحب ، ومن شر وطمع وبغضاء . ان المحامي ، بحكم مهنته ، متاح له النفاذ الى اعماق هذه النفس العجيبة وسبر غورها حيث تصطرع عواطف الخير والشر . ولعل صورة من هذا الصراع ان يعمد موسر عجوز الى التنازل عما يملك ، وتقدر قيمته بمائتي الف ليرة عثمانية ذهبا ، الى كل من ابني اخيه المتوفي نعوم ونصري ، حارما بذلك ارملته ماري وثالث ابناء اخيه اميل .

وكان من الطبيعي ان يراجع المحرومان القضاء ، موكلين في ذلك صاحب الذكريات . فتنشب في ساحة القضاء معركة قانونية تستغرق ثلاثة اعوام ويشترك فيها كبار المحامين من حلب وبيروت والقاهرة وباريس ..

(٢٠) الكتاب : ٥٤.

(٢١) الكتاب : ٢١.

تنتهي الى ابطال صك التنازل ، والى تطبيق احكام الارث في الشريعة الاسلامية على تركة المتوفي لا احكام القانون البيزنطي (٢٢) .

وكان بعض الناس ممن غرر بهم الطمع يلجأون الى الاساليب الاحتيالية لاغتصاب اراض من وقف غني يسمى « وقف العثمانية » (٢٣) . فلما عهدت الاوقاف الاسلامية الى صاحب الذكريات باقامة الدعاوى على مغتصبي اراضي الوقف بغية استردادها ، واحس المغتصبون بالطوق يحز رقابهم ، عمدوا الى اغراء المحامي ، خصمهم الالد ، بخمسة الاف ليرة عثمانية ذهبا ليقوم باجراء ما ينجيهم من رد الاراضي الى الوقف ، فخاب فالهم (٢٤) .

ولما ردت الاراضي المغصوبة الى الوقف (٢٥) ، داعب الطمع مدير الاوقاف نفسه ، فاوفد الى صاحب الذكريات من يجس نبضه ويقول : « ان مدير الاوقاف يرغب في ان يعرف مقدار حصته من الاجرة الكبيرة التي ستدفع لكم ، فاجاب قائلا : « اننا لم نتعود ان نشارك احدا في اجرنا ، فان كنا نستحق اجرا ، قبضناه غير منقوص » .

ولم يرق الجواب لمدير الاوقاف . فامتنع عن صرف الاتعاب للمحامي عن جهد بذل في ساحة القضاء فاستغرق سبعا من السنين . وقاد من وراء ستار حملة موجهة في صحف حلب تندد باطماع نسبوها الى محامي وقف العثمانية .... وذلك لقاء خمس وعشرين ليرة سورية قبضها محرر كل جريدة لشن هذه الحملة المأجورة (٢٧) .

واطرف ما قرأنا ان رئيس احدى المحاكم ، واسمه المسيو شارير ، قام بينه وبين صاحب الذكريات شيء من عدم الانسجام . ومرة ، قدم المحامي استدعاء (٢٨) بطلب حجز . فرده الرئيس تحت تأثير اهوائه الشخصية فاوعز المحامي الى موكله ، حرصا على مصلحة هذا الاخير ، ان يوكل محاميا غيره لاعتقاده بان المحكمة ستقرر الحجز اذا تسلم الدعوى محام اخر .

وفي اليوم التالي تقدم المحامي الجديد الى المحكمة . فقبله الرئيس ، وسمع اقواله دون ان يسأله عن وكالته ، واصدر في الحال قرارا يقضي بالحجز المطلوب .

« فاعتبرت هذا التصرف الشاذ ، اهانة فادحة لي ، ولمهنة المحاماة مما ورأيت ان اطلب الرئيس شارير الى المبارزة ، فكلفت صديقي ، الدكتور كبريل شفالييه ، رئيس جراحي مستشفى القديس لويس بحلب ، والمسيو رينه سالندر ، نائب قنصل فرنسا ، ان يتصلا بالرئيس شارير ، وان يطلبا منه ان يختار شهوده ، وان يحدد زمان المبارزة ومكانها . فقام كل من الدكتور شفالييه والمسيو سالندر بهذه المهمة ، وقابلا الرئيس شارير ، فرفض المبارزة . ووفقا للقواعد المتبعة في مثل هذه الحال حرر بتاريخ ٢٣ ايلول ١٩٢٧ ، ضبط سجل فيه الرفض (٢٩) .

تلك صفحات مطوية من ذكريات محام حلبي عن المحاكم والمحامين فيها ذياك العهد ، وعن قوى الخير والشر تصطرع ابدا في النفس البشرية .

الحق ، اني ما شعرت بالاسى على فراقي المهنة شعوري به وانا اطالع هذه الذكريات . لقد شهد احد الاطباء جلسة ترافع فيها الاستاذ فتح الله الصقال صاحب الذكريات وافصح وبان ، فاذا الطبيب يتقدم اليه في ختام المحاكمة ويهمس في اذنه :

ـ اذا عدت الى الدنيا مرة اخرى ، فسأختار مهنة المحاماة ... (٣٠)

الا احبب بمهنة يستطيع صاحبها ، ان هو اخلص ، ان يأخذ بيد المظلوم وينسل القوادم من جناح الظالمين .

حلب

فاضل السباعي

(٢٢) لعل من الشائق ان نذكر ان الاستاذ الصقال ، وكيل كل من الارملة وابن الاخ اميل المحرومين ، قد تقاضى من موكليه في ختام الدعوى التي تكللت بالنجاح ، الاتعاب المتفق عليها وهي عشرة بالمائة مما تحكم لهما به المحكمة ، وقد حكمت بمائة الف ، فكان نصيبه عشرة الاف ليرة عثمانية ذهبا ... فقط .

(٢٣) نسبة الى عثمان باشا حاكم حلب التركي في القرن الثامن عشر الذي وقف كل ما يملك من اراضي واسعة واملاك على عمل البر ونشر الثقافة . وقد شيد على نفقته الخاصة جامعا يعد من اجمل جوامع حلب واروعها فنا وهندسة ، وبنى بجانبه مدرسة واوصى ان يسكنها ثلاثون تلميذا يتناولون طعامهم فيها بدون مقابل ، لا يفرق بينهم مفرق سواء اكانوا حلبيين او غير حلبيين ، وعين للمدرسة وللجامع خطباء يتقاضون مرتباتهم من ربع الوقف .

(٢٤) الكتاب : ١٩٨ .

(٢٥) قدرت قيمتها في حينه بـ ١٤٤٢٥٧ من الليرات الذهبية .

(٢٦) كان محامي الوقف قد ابرم مع الاوقاف اتفاقا يتقاضى بموجبه عشرة بالمائة من قيمة كل ارض يحكم بردها الى الوقف .

(٢٧) الكتاب : ٢٣٤ .

(٢٨) اي « عريضة » بالاصطلاح القانوني المصري .

(٢٩) الكتاب : ٣١٥ .

(٣٠) الكتاب : ١٤ .

صيّاد والذباب

تافها كنت وكان الصحب اتفه
ما الذي قلناه ؟ .. ثرثرنا طويلا
وتحدثنـــا سياسه ،
ونقدنا قصــة مات البطل
في ثناياها لان امراة خانت هواه
وتضاحكنا ، .. وراقبنا الزبائن ،
وشربنا القهوة السوداء ، واجتحنا الدخائن ،
وتغامزنا على عاهرة مرت ، وندت الف آه . .
وتصفحنا وجوه الفتيات
يتثنين على الدرب بلطف وكياسه ،
وتلفظنا عبارات غزل
عبر زفرات النراجيل ، وحاربنا الملل
بقصيده ،
قالها الشاعر في (فسطان تفتا) .
وتداولنا جريده
فقرأنا كل اخبار النهار ،
وتأففنا من الحر ومن عسر الحياه .
وطردنا طفلة كانت تبيع اليانصيب .
اننا نعرف اصحاب الحظوظ السعداء
ولذا نحن طردنا طفلة كانت تبيع اليانصيب ،
وتذكرنا الذي قال في المال الامام :
«رضينا قسمة الجبار فينا لنا علم وللجهال مال!» .
وحرقنا ست ساعات بلامعنى وجدنا الشراب
وسمعنا جرس المقهى فادينا الحساب
ثم قمنا
وتواعدنا اللقاء
ومضينا .

***

كلنا يملك غرفه
سوف يلقاها كما غادرها عند الصباح :
كتبا صامتة خرساء ، افكارا ، واكوام وريقات حزينه ،
وحكايات شرود ، وضياع وعذاب ،
وسرايا قلق تقتاتنا من دون كلفه

***

وغدا نرجع للمقهى ، لنجتر روايات جديده ،
وغدا نحرق يوما في احاديث بليده .
ويضيع العمر في زاوية المقهى على
طاولة بلهاء او في صمت غرفه
تافها كنت وكان الصحب اتفه !

دمشق : خليل الخوري

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ – تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا – راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان
او ٥ دولارات

في اميركـا : ١٠ دولارات
في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

*

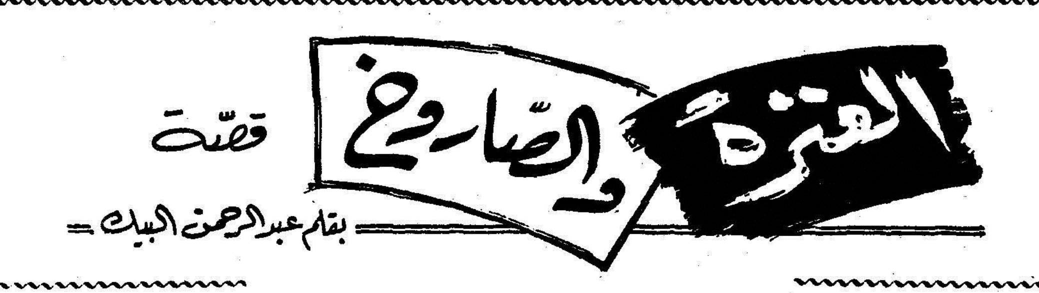
الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣



كان لاحد العلماء عنزة صغيرة ، بيضاء الشعر ، يصطحبها معه الى ساحة التجارب ، حينما يذهب ليجرب صاروخا ، او الى مكتبه حينما يذهب لينجز ما يوكل اليه من اعمال .

وكانت هذه العنزة شديدة الذكاء تحفظ في مخيلتها كل ما تراه من اعمال صاحبها المخترع العالم ، وتتعلم كل شيء يقوله امامها . حتى اتسعت ثقافتها ، وكبر افق مداركها . فغدا رأسها الصغير مستودعا ، انتهت فيه معلومات جمة عن صنع الصواريخ والاسلحة الرهيبة .

وفي ذات ليلة ، دخلت برج القيادة في احد الصواريخ ، فلعبت بالالات ، طبقا لما كانت تحفظه في مخيلتها اثناء ملاحظتها لاعمال صاحبها المخترع . واذا بالصاروخ ينطلق من قاعدته شاقا عنان السماء في سرعة تتجاوز الادراك .

ولعبت العنزة بعد حين وجيز بمفاتيح لوحات التلفزيون ، فنقل اليها الاثير صورا غير ثابتة ، تعيش وتموت . واخيرا وضحت تلك الصور ، واذا بها تشاهد الارض في شكلها الكروي ...

عندئذ خاطبت العنزة الصاروخ :

ـ ايها الصاروخ العظيم ... اذهب بي بعيدا .. فانني اريد ان اصل الى النهاية هربا من صميم الحياة ..

فسالها الصاروخ متعجبا :

ـ ولماذا ايتها العنزة الجميلة ؟

ـ ذلك ان لي جديا صغيرا ... قتله ذئب وافترسه ..

ـ هذا عمل بسيط .. انك تجهلين بان هنالك ذئابا تفترس بعضها بالملايين .. هل قص عليك صاحبك المخترع قصة الانسان ؟.

ـ كلا .. ولكني اعرف عنه النزر اليسير ـ هذا معقول.. اذن انظري الى يمينك .. تشاهدين قنبلة هيدروجينية معطلة .. ان هذه القنبلة هي ناب الذئب .. سلي صاحبك ما يروم ان يصنع بها .. انه يريد ان يقذفني الاف الاميال ، لاسقط هذه القنبلة فوق رؤوس الملايين، اليس هذا العمل هو من قبيل الوحشية ..

ـ صحيح .. انا اصدق مقالك ..

ـ لا .. ليس الامر بهذه البساطة كما تظنين .. فانا بالذات لي مشاعري الخاصة .. كما لك مشاعرك الخاصة .انك تشتكين من ذئب افترس جديك ، اما انا فاشكو من انني سافترس وساكون ضحية بذات الوقت..

سئمت العنزة من حديث الصاروخ فقالت له :

ـ ارجوك .. هلا غيرت مجرى الحديث فانني ما صعدت بك السماء ، الا لاسلو همي ، واروح عن شجوي .. دعني قليلا ، لامتع ناظري بصنعة هذا الكون الفسيح ..

ـ اعذريني ايتها العنزة ان كنت قد حملتك بعض الهم ، ولكن اريد ان ابثك مشاعري كي تكوني رسولة السلام بيني وبين صاحبك المخترع.

اخذت العنزة تسبح بابصارها خلال الاثير .. فتنظر الى النجوم والكوكب نظرات الاعجاب ، والصاروخ ما يزال يشق بها عنان السماء ..

عندئذ سالته العنزة :

ـ هل انت ابن العصر والمكتشفات ؟ فضحك الصاروخ وقال :

ـ بلى .. بلى .. ولكني اشعر بانني مخلوق منذ ملايين السنين ... ان سلالتي هي هذه المعادن المختلطة بالاتربة .. انني موجود قبل ان يوجد شكلي الظاهري .. من اجل ذلك انا مؤمن بالله ..

عجبت العنزة لهذه الفكرة فقالت :

ـ أتعرف الله ايضا ؟..

ـ اجل اعرف الله تمام المعرفة .. اغبياء اولئك الذين يظنون بانهم يسخرونني من اجل الحروب .. فالخالق لا يعرف الحروب ، انظري نجومه وكواكبه . انها بمثابةالمدن والدويلات ... الا ترين ما اعظم هذا السلام المستتب بينها ..؟

ـ صحيح ! فلكم اتمنى ان ارى مثل هذا الهدوء على الارض .

لم يحر الصاروخ جوابا ،بل طفق يجتاز الفضاء في سرعة هائلة ، ثم ما لبث حتى قال :

ـاخشىان ينفد الوقود ايتها العنزة وعندئذ تكون الطامة ... انني اريد ان اموت .

ـ تبا لك من عنزة .. الا ترين معي ان اعود بك الى الارض ، لتجعلي جميع المخلوقات ابناءك ...

ـ وهل هذا معقول ؟

ورفضت العنزة ان تعود الى الارض ، فاعترى الصاروخ ذعر شديد .. فسالها :

ـ ما مقدار الوقود في الخزانات ؟ اجابت العنزة في ياس :

ـ انه في تناقص مستمر ..

ـ اذن فعلينا ان نعود .. الا تعلمين ان صاحبك العالم سوف يطلقني في الصباح ، لاختبار الاشعاعات الكونية

ـ اعلم ذلك ..

ـ اذن فما عليك الا ان تجعليني اعود الى قاعدتي

ـ حسنا ، فما دمت تروم الاذعان الى اوامر المخترع ، فانا ساذعن لك ايضـا .

ـ يبدو انك تحبينني..

ـ كل الحب ..

واحمر وجه الصاروخ خجلا ، وكذلك احمرت جوانبه اثر مقاومة الهواء لهبوطه نحو الارض ، عندئذ سأل العنزة :

ـ انظري في عداد الوقود .. كم بقي منه .. هل يكفي لاتمام الرحلة..

فقالت العنزة بصوت مرتعش :

ـ ان الوقود نفد منذ دقائق

ـ وما الذي يقودني نحو الارض .؟

ـ الحب ...

ـ الحب ؟.. اراك جعلت من المزاح حقيقة .. فما هو هذا الحب الذي بيننا .. ارجوك ؟

ـ ان الحب بيننا ، يتمثل في حقيقة ادراكنا للمأساة المنتظرة التي ستحل بالارض . فبعد ان اقنعتني بان اسلو حزني على جديي الصغير، لاني اجد في باقي المخلوقات بديلا عنه ، لم استطع ان امحو من مخيلتي مخطط الافكار الاجرامية التي يصنع بموجبها العلماء قنابل هيدروجينية واسلحة رهيبة لتدمير المعمورة ... ان العلاقة التي هي الحب، اوشجت قلبي بقلبك ، وجعلتني اؤمن بانك ما انصعت لايدي العلماء ، وما توافقت عناصرك امامهم ، الا لانك تفيد في مجالات غير التي يعدونك من اجلها . فلقد رأيت من نافذتك دقة هذا الكون ، وتفوقت فن صنعته ، فآمنت بان هذه الوحدة المتماسكة انما هي دليل وحدة الله .. انك جعلت مشاعري تتسامى وتترفع .. وهذا الاتجاه اسمى الاتجاهات التي يجب على الجميع ان يسلكوها .

فعجب الصاروخ من حال العنزة فقال :

ـ يا لك من عنزة نبيلة .. انما انت تستحقين مدالية من النجوم .. ولكن كيف قلت لي ان الوقود نفد منذ بضع دقائق ..

ـ او تظن انني مازحة ..

ـ لا ادري بعد ..

ـ اذن ! انتظر لنرى.. اننا الان قمنا برحلة طويلة ، قطعنا خلالها خمسين الف كيلومتر .. والوقود كما هو معلوم لا يكفي الا لمسير اربعين الف كيلومتر ...

ـ اذن كيف يمكنني ان اصدق دعواك ؟

ـ ستعلم بعد قليل .

هبط الصاروخ على قاعدته ، فهدأ هديره ، وانطفأت محركاته. عندئذ سأل العنزة عن سر طيرانه بلا وقود . فاجابته العنزة :

ـ لقد جعلتك تحلق بي اكثر مما يجب ، فاختل مقدار الوقود اللازم للعودة.ربما انك اخبرتني بضرورة وجودك على القاعدة قبل بزوغ الشمس فانني فضلت الا اوغل في السماء ، مراعاة لصاحبي العالم ، لانه اذا حضر الى قاعدتك دون ان يراك .. فلسوف يجن جنونه .. ثم انني اردت ان اعود الى الارض على جناح السرعة ، كي اخبر صاحبي المخترع بحقيقة مشاعرك تجاه الخطط التي يرمون منها الى استخدامك فيغير صالح البشر.

عندئذ شكر الصاروخ العنزة ، فلما ان ضرب لها موعدا ليطارحها الغرام في الليلة التالية ، تحت اشعة القمر ، هاله ان وجدها لا تقدر على النطق، فلما ان حاول معرفة حالها .. شاهد يدها تقطر دما قرمزيا .. ثم شاهد ذلك الدم يجري نحو الخزانات .. حيث يذهب منها الى حجرات الاحتراق فيتولد منه طاقة ، جعلته يطير مسافة سبع دقائق .. فصاح :

ـ ايتها العنزة .. ايتها العنزة ..

ولكن العنزة عجزت عن الكلام . فما كان منها الا ان توجهت نحو الباب اللولبي ففتحته ، ثم نزلت سلما امتد نحو الارض من تلقاء نفسه . وعلى بعد عدة خطوات ترنحت ثم سقطت ميتة .

بكى الصاروخ كثيرا ، ثم فكر فيمن سينقل مشاعره الى المخترع ، كي يصحح افكاره ... فلما ان عرف بان رسولة السلام ماتت ... فكر في عمل يخلص فيه من شر المخترع خصوصا وان عشيقته ذهبت ضحية من اجل تقويم افكار المخترع ، بغية الحفاظ عليه .

وهنا لمس الصاروخ ، مدىالحب العميق الذي كانت تكنه له العنزة. فاحترق قلبه وجدا وهياما . ولم تعد الحياة تساوي في نظره شيئا .

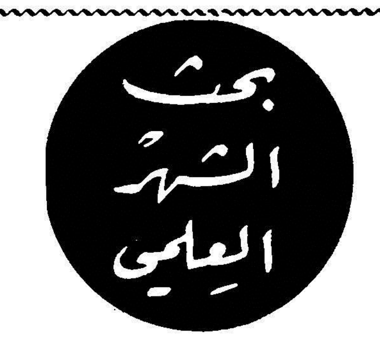
وبعد قليل ، تقدم المخترع من الصاروخ مع معاونيه ، وتهيأ لاطلاقه .. فاسترعت انتباهه حبيبات تسيل على جوانبه . فقال المخترع لمعاونيه :

ـ انظروا ماذا فعل الضباب بالصاروخ .

فقال الصاروخ في ذاته « تبا لك من انسان ، ان دموع الحب تسميها حبيبات ضباب . .»

عندئذ اطلق المخترع الصاروخ . ولكن الصاروخ الحزين ابى ان يطيع المخترع فانفجر ، وتناثرت شظاياه في كل مكان . وما كان من رأس الصاروخ الا ان تدحرج ونام الى جانب العنزة قرير العين .

حلب عبد الرحمن البيك



الاشتراكية الحرفية

بقلم ج. هـ. كول
ترجمة ماهر سعيد وصفي

ولد البروفسور ج.ا.هـ. كول عام ١٨٨٩ وهو كاتب اقتصادي وسياسي له مؤلفات عديدة في السياسة والاقتصاد . وقد انضم الى رابطة الحرفيين واصبح من ابرز اعضائها ، كما انتخب في المجلس التنفيذي للرابطة عام ١٩١٥ . وقد كان في بداية حياته يؤمن بمباديء الجمعية الفابية التي اصبح رئيسا لها الان . وقد قام اخيرا بتاسيس الجمعية الدولية للدراسات الاشتراكية .

اخذت نظرية الاشتراكية الحرفية Guilds Socialism وقد يسميها البعض بالطائفية ، نسبة الى طائفة من العمال ، اخذت هذه النظرية تمد جذورها في اوائل القرن العشرين واصبح لهذه الافكار اثر بالغ في الفكر الاشتراكي البريطاني .

— المترجم —

الاشتراكية الحرفية التي اتكلم عنها هي شكل من اشكال الاشتراكية وهي لا تناهض التفكير الاشتراكي كما انها ليست مفهوما جديدا يظهر فجاة ليصارع الحركة الاشتراكية . بل انها نظرة جديدة للاشتراكية ومحاولة لتكامل الحركة الاشتراكية فهي اقرب الى الواقع واكثر اتصالا بالديمقراطية وتهدف الى ان تجعل من الديمقراطية حقيقة اقتصادية وسياسية . ان هدف الاشتراكية الحرفية ليس في ايجاد مدرسة جديدة او تنظيم جديد بل توجيه الحركة الاشتراكية والحركة النقابية الى هدفها الصحيح ، والى بلورة النظام الذي جاء به الحرفيون داخل مباديء الحركة الاشتراكية ومفاهيمها كما تهدف الى توجيه الفكر النقابي لا الى هدمه .

هذه هي سياسة الاشتراكيين التي طالما نادوا بها ، انهم لا يحاولون ايجاد تنظيم منافس بل كانوا دائما يناضلون من اجل خلق منظمات صغيرة للدعاية لهدفهم ضمن التنظيم الاشتراكي العام .

ان ايماني العميق هو ان العوامل التي تهدف الى تحقيق الحركة الاشتراكية الحرفية في هذا البلد هي نفس العوامل التي تعمل داخل الاقطار الاخرى. واذا نظرنا مليا الى اوروبا وجميع البلدان الصناعية في العالم اليوم ، وفي كل مكان نجد هذه الفكرة تحفز العمال الصناعيين وتشجعهم على تغيير النظام البلدي والحكومي . وفي روسيا في تجربة التنظيم المصنعي . وفي امريكا في مشروع رجال سكة الحديد . وفي كل اجزاء العالم تاخذ الحركة النقابية على عاتقها توضيح اهدافها ورغبتها في الحصول على حصتها في السيطرة على الصناعة . هذا الطلب ياخذ اشكالا مختلفة ويسلك طرقا متباينة في مختلف بلدان العالم . ولكن هناك فكرة اساسية واحدة تدفعها قوة واحدة : اننا لا نريد نفي الاطر المذهبية للحركة في البلدان المختلفة ، بل نريد مبدأ اساسيا واحدا يدفع الطبقة العاملة الى الامام في جميع انحاء العالم ، كما نريد ان ياخذ هذا المبدأ تعابير مختلفة واشكالا متباينة حسب البناء الاقتصادي لمختلف المجتمعات والامزجة المختلفة للشعوب . ان ما نطلبه هو تنظيم مختلف الديمقراطيات والطبقات العمالية بشكل يؤدي الى تعاونها تعاونا فعالا . وان هذا التنظيم يجب ان لا يتم داخل نظام عالمي جامد يتناسى الفروق القومية بل في نظام حركي حي .

انني لا انظاهر كما يتظاهر الحرفيون بان الاشتراكية الحرفية هي الطريق الصحيح لجميع شعوب العالم لمعالجة مشاكلهم الاقتصادية . فان التعبير الصحيح للاشتراكية هو اعتبار الزمان والمكان ، ويجب ان تتضمن مفاهيم حيوية لا للقطر الواحد فحسب بل للعالم الصناعي . وان هذه المفاهيم يجب ان تطبق باساليب تناسب التطور الاقتصادي والروح القومية . ان الاشتراكية الحرفية ليست عقيدة مغلقة على نفسها وذات مفاهيم ثابتة تطبق في كل مجتمع . ولكن الحقيقة التي نعتقد بها هي وجود فكرة اساسية ووجود نظرة واضحة عن الخطوات التي نخطوها والتي هي ضرورية لتحقيق العقيدة . ونحن نعتقد بان الاشتراكية الحرفية كما نضعها في الكتب وكما نصفها عند الاجابة على الاسئلة لا تتحقق بنفس الاشكال التي وصفناها بالضبط . لان المجتمع لا يتطور بنفس الاسلوب . وان تصور نظام ومحاولة تطبيقه سيجر حتما الى خطا ذلك النظام . لان عامل الزمن قدقام بفعله في تطوير المجتمع بشكل يجعل ذلك النظام غير قابل للتطبيق . ولكن نعتقد ان محاولة ادراك الاشياء بوضوح وتوقع التنظيم المقبل لها ليس لاجل تحقيق الشكل الذي توقعناه بل لان توقعنا للاشياء سيفتح امامنا المجال لايجاد المخارج لمشاكلنا التي نواجهها وان اتخاذ خطوات سريعة لن يكون لها اثر ايجابي عند مواجهة المشاكل الانية ومعالجتها كلما برزت لنا . بل يجب مواجهتها بنظرة شاملة مسبقة لتحقيق الغايات القائمة في الذهن ، وان النظر الى الغايات يساعد على حل المشاكل المستعجلة ، وربما يتهمنا البعض بالمثالية ونحن نعتقد ان مثاليتنا ليست نظرة حقيقية لمستقبل المجتمع بل تسهل علينا مواجهة مشاكل اليوم .

أريد ان اقول ان الاشتراكية الحرفية ليست نظرية صناعية خالصة . انها - على ما اعتقد اخذت الشكل الصناعي بصورة عفوية . والسبب الذي يجعلنا نتكلم عن التنظيم الصناعي هو انّ الصناعة اذ تبرز وتتعزز يصبح من الصعب التكلم عن غيرها . ولهذا فان مفاهيم الحرفيين الوطنيين تبرز اساسيا كمباديء للتنظيم الصناعي. ولكن النظرية التي تقوم عليها مفاهيم الحرفيين هي اوسع من اية نظرية صناعية صرفه . انها تعتمد اسياسيا على مفهوم ديموقراطي يختلف اختلافا جذريا عن الفكرة الديمقراطية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر . ان مفهومنا للديمقراطية هو هذا : ليس من المنطق ان نقول ان شخصا يمثل شخصا اخر او جماعة ، فليس هناك تمثيل من قبل شخص لشخص اخر ، لان طبيعه الانسان بحد ذاته لا تحتمل التمثيل . ولكن هذا لا يعني مناهضة اساليب التمثيل الحكومي المتعارف عليها . اذن ما هي الاهداف التي يجب على التمثيل الحكومي تحقيقها حتى يكون تمثيلا حقيقيا؟ ان الطريق الوحيد لتحقيق تمثيل صحيح هو ان يكون النائب ممثلا لا لشخص بل لجماعة تضم اشخاصا لهم اهداف مشتركة ومعينة ... ولا نعني هنا وجوب وجود شخص معين ممثلا لاشخاص اخرين . ولكن اذا كان لهؤلاء الاشخاص اهداف معينة ومشتركة ككونهم صناعيين او فريق كره قدم او اي مجال اخر ... فانه يصبح قانونيا وجود شخص من صنفهم ينفذ او يعمل على تنفيذ اهدافهم المشتركة . وهذا يعني ان التمثيل الصحيح الكامل ليس تمثيل اشخاص بل تمثيل اهداف مشتركة . او بكلمة اخرى التمثيل الصحيح هو بالضرورة تمثيل وظيفي . واذا كان هذا صحيحا فان التنظيم الاجتماعي - ليكون ديمقراطيا - يجب ان ياخذ بهذه المباديء الوظيفية . وان تحقيق مجتمع ديمقراطي يتم عن طريق التمثيل الوظائفي لمختلف الوظائف التي تمارس داخل المجتمع . لذلك يجب معاملة المشكلة الصناعية كمشكلة واحدة وتنظيمها على اساس وظيفي . وكذلك الحال بالنسبة للمشاكل التي تبرز داخل المجتمع حيث تكون اصولها الاجتماعية قد نظمت على اسس ديمقراطية . وعلى هذا الاساس فقط نستطيع بناء مجتمع ديمقراطي. ان المجتمع يحاول دائما التعبير عن نفسه عن طريق التمثيل ، ولكن هذا التمثيل كثيرا ما يحرف ، فنحصل على تمثيل مشوه بدلا من نظام برلماني صحيح . ان المجتمع ككل يحاول جعل جميع الاجزاء ديمقراطية والحصول على افضل النتائج من اجل تحقيق الديمقراطية . وان النظرية التي تعمل الان على جانب واحد من التنظيم الاجتماعي - وهو الاساس الراسمالي - لم تسمح بوجود فرص متساوية للجميع. فما دام هذا الخلط في المدار الصناعي موجودا وما دام الرجال والنساء يعيشون في اسلوب حياة الاسلوب الصناعي الحالي ، وما دامت حالة الحرب قائمة بين مختلف الاقسام التي كان من المفروض تعاونها في النشاط الانتاجي ، فليس من الواقع ان نطلب تعاونا بين اجزاء المجتمع والعمل بانتظام لتحقيق الديمقراطية . ذلك ان الانحراف القائم في الجهاز الصناعي هو ضد الانتظام والتعاون بين اجزاء المجتمع . لذلك فهدفنا يتركز على توضيح الجهاز الصناعي وجعله متماشيا مع المباديء الديمقراطية الصحيحة ومن ثم ادخال هذه المفاهيم وتطبيقها في الاجزاء الاخرى من المجتمع .

★

كل هذا يقودنا الى السؤال : ما معنى الحرفة ؟ الحرفة تعني نظاما يقوم على النقابة العمالية ولكنه يختلف عنها مبدئيا في ناحيتين : الاولى هي انه حتى ولو كانت النقابة تعني اتحاد صناعيين - اي ما يهدف الى ضم جميع العمال في صناعة معينة - فانها مبدئيا جهاز غير معقد . لانها في ضمها او محاولة ضم جميع العمال الصناعيين فانها تستثني الموظفين او العمال الفنيين المرتبطين بالصناعة . وفي حالات خاصة فان النقابات تضم محترفين وفنيين الى جانب عمال اخرين - مثال ذلك جمعية كتبة السكك الحديدية او الى بعض الحدود الاتحاد القومي لرجال السكك الحديدية - وفي حالات اخرى نجد للموظفين العمال الفنيين نقابات خاصة . وهم يعملون من قريب او بعيد مع الاتحادات التي تمثل العمال العاديين . وفي الوقت الحاضر ليس هناك تنظيم نقابي يمثل تمثيلا صحيحا صناعة تضم جميع المرتبطين بالمجال الصناعي او الذين لهم قوة فعالة في المجال الصناعي فاذا اردنا تحقيق اداة صناعية فعالة فيجب ان نحصل بالدرجة الاولى على تعاون الطبقة العمالية . وان سبب انهيار التنظيم الصناعي هو عدم تعاون الفئات العمالية . وان وعيهم المتزايد للحقائق الواقعية وادراكهم للنظم الحالية يدفعانهم الى رفض التعاون داخل التنظيم الصناعي الحالي. وكلما ازداد وعي العمال لمصلحتهم الطبقية ، تعذر التعاون المنتج واصبح الميدان الصناعي عديم الفعالية .

ان التنظيم الصناعي يتطلب في المجال الاول وجود عمال يدويين. ولكن تحقيق عمل صناعي فعال يتطلب توافر مختلف الصفوف من الاشخاص والخبرات الفنية تتحول تدريجيا الى مشكلة هندسية ، وان مهندس المنجم اصبح تدريجيا شخصية هامة . والمشاكل العلمية لهندسة المناجم، اخذت تزداد اهمية وهذا يعني ان هندسة المناجم والصناعات الاخرى التي تعتمد على الفنيين المهره اخذت تزداد اهمية بالنسبة للعمال الاخرين في الصناعة . ومن ناحية اخرى فان الحرفة تختلف عن النقابة بكونها تضم جميع المشتغلين سواء بالفكر او اليد او الفنيين بالاضافة الى جميع العمال اليدويين من مختلف الصفوف - جميع العمال الضروريين لسير الصناعة سيرا فعالا للخدمة العامة . ان نظرتنا للحركة النقابية تتم من خلال اطار معين . فنحن نحاول خلق شكل من التنظيم ليست مهمته القضاء على الراسمالية فقط - وهذا بحد ذاته عمل بسيط نسبيا - بل وضع نظام يحل محله . وهذا هو العمل الشاق . لذلك نعمل على ادخال جميع فروع نقابات العمال اليدويين في خط صناعي واحد ، وكذلك نعمل على تقريب هذه النقابات بقدر الامكان في علاقة مع نقابات المفكرين والفنيين ، نحو تحقيق هدف اعلى هو ضم جميع الفئة العاملة على اختلافها في منظمة واحدة تاخذ بنظر الاعتبار الوظائف المتباينة والامكانيات وتعتمد على اعتراف جميع العمال اليدويين لمختلف الوظائف الفكرية والفنية واعتراف الاخرين بحقوق العمال اليدويين . فليست المحاولة هي اهمال الاختلافات الوظيفية بين الفنيين والعمال الاخرين بل توضيح الاختلافات وتنظيمها تنظيما كاملا في كلا الجانبين . ففي الوقت الحاضر هناك التباس في كلا الجانبين - ان العامل الفني يعتقد بانه يستطيع ان يعمل من دون العامل اليدوي. والعامل اليدوي يعتقد انه يستطيع العمل من غير مساعدة الفنيين حيث ان العامل الفني هو المرشد في العمل . وللحصول على اكبر قدر ممكن من التعاون الفعال بين العامل اليدوي والعامل الفني يجب التغلب على جانبي هذا الالتباس من اجل تحقيق تنظيم حرفي .

الجانب الثاني الذي يختلف فيه التنظيم الحرفي عن النقابة في الوقت الحاضر هو ان التنظيم الحرفي لا يهتم اوليا بتحقيق مصلحة اعضائه بالمفهوم الاقتصادي بل بتقدم الصناعة . فالعمل الرئيسي في التنظيم الحرفي

ينصب على الانتاج لا المساومة الجماعية او حماية المستوى المعاشي للعمال . انه يهتم بالانتاج وادارة المصنع بشكل فعال ، وادارة الصناعة ادارة فعلية . ويظهر من ذلك ان التنظيم الحرفي يختلف اختلافا كبيرا عن النقابة في الوقت الحاضر . انه تغير كبير ولكنه في الوقت نفسه قد سبقته دراسة واعية وتحضير . فالنقابات عندما حصلت على القوة والسلطة الكافية اخذت تبسط يدها على الصناعة وتسيطر عليها . وهذا لم يكن شيئا جديدا بل هو اتجاه قديم . فالنقابات بدأت بفرض قيود على حقوق الصناعيين في تنظيم الصناعة بالطريقة التي يختارونها . فمثلا كانت تقول : « يجب ان لا تعمل كذا . او يجب ان لا تشغل في الصناعة من لم يخضع لشروط معينة . » ومن ناحية اخرى كانت تطوق الصناعة بشروط سلبية مما ادى الى الحد من قابلية الصناعة. وفي حالات اخرى ساعدت هذه الشروط على زيادة الفعالية في الصناعة . ولكن الصفة العامة لهذه الشروط هي انها معرقلة للفعالية الصناعية . وهم يقومون بذلك لسبب بسيط هو ان النقابات العمالية تستطيع اعطاء الاوامر بالنهي او بالايجاب ، وبذلك فان عملها بهذا الشكل يكون عملا معرقلا للصناعة . ومثال ذلك المستويات المتباينة الموجودة داخل الصناعة حيث تضغط كل واحدة على الاخرى وتعرقل عملها داخل الصناعة . وبذلك تفقد الصناعة فعاليتها في نظام كهذا . ولكن النقابات ــ بعد ان حصلت على قوة لا باس بها ــ تحاول تحويل هذه القيود السلبية الى قيود ايجابية ، فهم يحاولون الخروج عن نطاق الاوامر التي تدعو الى العمل او الاضراب ، عن نطاق محاسبه صاحب المصنع وطريقة عمله او انتقاده والضغط عليه ، الى نطاق العمل الفعلي وادارة الصناعة بايديهم .

وربما كان الاتجاه الحاضر يهدف الى تنمية الحركة التي قام بها شوب ستيوارت والتي ظهرت مبدئيا في مجال المهندسين واتحاد الصناعيين وهي تتمثل الان بمحاولة العمال لتحويل القيود السلبية على الصناعة الى شيء من السيطرة الايجابية على الصناعة ولكن السيطرة الشاملة التي تمت في خلال السنين الاخيرة في حركة رجال السكك الحديدية والمناجم هي تعبير واضح عن هذا الاتجاه الذي تكلمت عنه . فجميع عمال السكك الحديدية وعمال المناجم لم يقتنعوا بفرض قيود على الصناعة بل طالبوا بالسماح لهم بادارة الصناعة نفسها والحصول على بعض الحقوق الى حد ما بوضع شروط تنتظم الصناعة بموجبها في المستقبل والمشاركة الايجابية في تنظيمها . وهنا تكمن الميزه الكبرى بين النقابات العمالية كما تأسست في الماضي وبين التنظيم الحرفي الجديد .

*

والان ، بعد عرض الاختلافات بين الاثنين ، نجد ان النقابات العمالية اخذت تنتقل من مرحلة الى اخرى . وقد وضح هذا الاتجاه عند العمال اليدويين ومنظمات الحرفيين نظرا للتقارب الشديد بينهما . كما ظهرت الرغبة عند العمال المنظمين لفرض مطالبهم بالمشاركة الفعلية في المصانع التي لهم فيها تنظيمات قوية . وعلى كل فان الجسر الذي يربط النقابات بالتنظيم الحرفي قد تم ، وان عملية التحول اخذة بالازدهار ، فاذا ما تم للحركة التي يقوم بها عمال البناء والمناجم النجاح ، وفي حالة تحقيق الجزء الاكبر من مطالبهم ، فستكون هناك موجة عارمة لتحقيق مطاليب العمال في الصناعات المختلفة لنفس الاسباب . وكلما استطعنا تحقيق تأميم صناعة المناجم حسب الشروط المقاربة لمطالب عمال المناجم فان العمل ينتقل الى الصناعات الاخرى بالتدريج . وفي بعض الصناعات الاخرى ستتطور مشكلة السيطرة الديمقراطية وتبرز مشاكل جديدة تجابه التاميم كما ستقوم معارك جديدة لان مشكلة التاميم والديمقراطية سوف تواجه المطالب الجديدة للعمال .

لقد حاولت ان اوضح في مفهومي للتنظيم الحرفي اننا نعمل على بناء شيء معين وملموس في النقابات العمالية في الوقت الحاضر . ومن السهولة بمكان وضع نظريات ولكنها تكون عديمة الفائدة اذا لم يكن لها وسائل واضحة وواقعية لتحقيق هذه النظريات . انني استطيع وضع نظام مثالي مكان الاشتراكية الحرفية، ولكنها لا تستطيع ان تحقق شيئا، لانه ليس ثمة سبيل لتحقيقها . فعندما نناقش الاشتراكية الحرفية فهناك سبيل واضح لتحقيقها ، لانها تستند على تنظيم واقعي ، ولانها تستطيع ان تنير الطريق لكي تمارس المنظمات الاخرى عملها بحرية تامة. ولان طريقها اصبح واضحا واتجاهها سليما . اننا لسنا بحاجة الى نظرية الا اذا استطاعت ان تقول : هذه هي التنظيمات التي ستكون مادة العمل. وعلى اي حال فان النظريات البحتة غير ذات بال . وان الحركات الخطرة في نظر السلطة هي تلك التي يسندها قبل كل شيء تنظيم وظيفي لنقابات العمال اولا وتنظيم وظيفي للحركة التعاونية ثانيا .

والآن نأتي الى المشكلة التي هي بلا شك اصعب المشاكل في النظرية الاشتراكية الحرفية وهو توضيحها ببساطة . عندما نضع فكره لادارة الصناعة بتشكيلات كالتي سبق ان ذكرناها ، اي من قبل الحرف الوطنية، يواجهنا السؤال التالي : هل يعمل التنظيم الحرفي لمصلحته الخاصة ام لصلحة المجموع ككل ؟ هل سيخدم اهدافه الخاصة ام مصلحة المستهلك؟ اننا يجب ان نعطي الضمانات بان عمال المناجم لن يقوموا بالاضراب تحت النظام الاشتراكي الحرفي . واقول في الوقت نفسه انني لا استطيع ان اقدم الضمانات . كما انكم لا تستطيعون ان ان تقدموا لي الضمان بوجود نظام على وجه الارض لا يقوم عمال المناجم فيه بالاضراب. لان عامل المنجم اذا رفض الدخول للمنجم واخراج الفحم فلا توجد قوة على وجه الارض تستطيع ان ترغمه على دخول المنجم . ان الشيء الذي نعمل من اجله هو محاولة ايجاد نظام او جهاز يعمل العامل فيه بمحض ارادته في الدخول الى المنجم واخراج الفحم . فاذا لم نجد طريقا جديدا يشجع عمال المناجم على الدخول للمنجم فاننا سوف نواجه مصيبة كبيرة اذ ستتوقف مصانعنا عن الحركة وتغلق ابوابها .

ان المشكلة لم تعد مشكلة عدم رغبة عمال المناجم في العمل بل ازدياد البطالة في الصناعات الاخرى. وبذلك فليس صحيحا ان نقول ان الاشتراكية الحرفية لا تقدم الضمان بان عمال المناجم يعملون للمجموع وليس لمصلحتهم الفردية .

ان معارضه الاشتراكية الحرفية تستوجب على المعارض وضع تنظيم يستطيع العامل فيه ان يعمل بقابلية اكثر مما في النظام الاشتراكي الحرفي. وشخصيا اعتقد ان الجهاز الذي يعمل فيه الانسان حيث يحصل على سيطرة فعلية على ظروف حياة عمله الخاصة وكمواطن ايضا تحت ظروفه السياسية يحقق احسن الضمانات لانه يفتح الفرص امام الانسان ليقدم خدمة للمجتمع وفي الوقت نفسه يعبر عن نفسه كمواطن ومستهلك ومنتج . ولكن اعتقد جديا باننا يجب ان نحقق لجميع الحرف مجال العمل للخدمة العامة وليس لمصلحتها الخاصة . وانني ارفض كما يرفض كل اشتراكي حر في ان يملك عمال المناجم او جماعة من العمال الصناعة التي يعملون فيها . ففي الظروف الحالية نحن نقف الى جانب الجماعيين Collectivists بضرورة الملكية الوطنية للصناعة . ونؤمن بان الصناعة يجب ان تصادر وتمتلك من قبل المجموع . فالفرق بين نظريتنا والنظريات الاخرى التي وضعت للسيطرة على الصناعة هو انها على

اساس فكرة التاميم ، والتاميم لا يعني انهـا اصبحت ملكية عامة اذ ان المجتمع يعين البيروقراطية لادارتها . ونحن نعتقد ان الطريق الصحيح لادارة الصناعة هو تقديمها للاشخاص الذين يدركون الوسيلة الفعالة لادارتها على احسن الشروط . وهم الفنيون الذين يعلمون كيف تدار الصنـاعة من الناحيتين الفنية والتجارية . وهم من الناحية الثانية العمال اليدويون الذين بدون معاونتهم لن نستطيع الحصول على الانتاج الصالح .

اننا نريد ملكية عامة للصناعة للسبب التالي : اذا كانت الصناعة تنتج للفائض ـ اي فائض تنتجه اي صناعة ـ فنحن نرغب ان يذهب هذا الفائض لا الى جيوب الصناعيين المنوه عنهم بل الى الخزينة العامة ، لكي تصبح جزءا من وارد البلد الكلي . وفي نفس الوقت لا نرغب ان تثبت اسعار البضائع المنتجه والخدمات من قبل الاشخاص الذين يسيطرون على الانتاج والخدمات . بل ان هذه الاثمان يجب ان تعين من قبل المجتمع ككل حيث يعمل لا لمصلحة العمال فقط بل لجميع افراد المجتمع . لان لثمـن البضاعة تأثيرا على المستهلك يفوق تأثيره على المنتج . ان ما نطلبه للعمال اليدويين ليس السيطرة التامة على العملية الاقتصادية ، من الانتاج الى الاستهلاك ، بل السيطرة على عملية الانتاج والتوزيع . نطلب للعمـال السيطرة على هذه الاقسام من الصناعة المرتبطة بطريقة الانتاج وتقديم تلك الخدمات . ولكن عندما يدخل الانتاج محيط المستهلك ويصبـح المستهلك متأثرا مباشرة بالانتاج كما في حالة الاثمان او تقسيم الفائض من الصناعة ، فيجب ان نعطي الحق للمستهلك برفع صوته ويجب الاعتراف بحقه في نقد اساليب الانتاج . هذه النظرة الواضحة لاعترافنا بوجود لجان المستهلكين مرتبطة بالانتاج تمثل المجتمع من الناحية الاستهلاكيـة اذ اننا نهدف الى سيطرة اجتماعية على الصناعة وسيطرة ديمقراطية لها. هذان الجانبان لا يمكن فصلهما في برنامجنا وهما متساويان بالضـرورة لخلق مجتمع اشتراكي حرفي.

★

واود ان اقول كلمة في مركز الحركة التعاونية في حلول الاشتراكيـة الحرفية للتنظيم الصناعي . اذ ان معالجتنا للصناعات والخدمات الكبيرة لا تنحصر في خدمات المناجم وسكة الحديد والنقل البحري بل جميـع انواع الانتاج الكبير ايضا . واعتقد ان جميع هذه الصناعات ستنتقـل الواحدة بعد الاخرى الى مرحلة التأميم والسيطرة الديمقراطية . ولكن عندما نعالج التوزيع المفرد للصناعة والصناعة الصغيرة المرتبطة مباشرة مع المستهلك وانتاج البضاعة الاستهلاكية المحلية، لا اعتقد ان هذه الصناعات والخدمات المرتبطة بهذا النوع من الانتاج المحلي ستدخل مرحلة التاميم. وافضل الاعتقاد بوجوب تقسيم مختلف الصناعات والخدمات في البلاد الى ثلاث مجموعات : المجموعة التي تدخل في الملكية القومية وتشمل جميع الصناعات والخدمات الضخمة في الحدود القومية . والمجموعة التـي تدخل في ملكية البلدية او اي شكل اخر من الملكية من قبل السلطـة المحلية وتضم ما يدعى بالخدمات العامة ـ الغاز ، اسالة الماء ، الكهرباء او اي شيء يمكن ان يضاف اليها ومن ضمنها النقليات الداخلية ـ والمجموعة الثالثة التي نسميها بالصناعات المحلية والتي اعتقد انها تدخل في الملكية التعاونية ولا تدخل مرحلة ملكية السلطة العامة او الدولة او البلدية او اي شكل اخر من اشكال السلطة العامة . واعتقد بالنسبـة للمجموعة الثالثة في الصناعة ـ الصناعة المحلية ـ انها سوف تقدم انتاجا كبيرا داخل التعاونيات في المجتمع الاشتراكي.

لن اتكلم عن التعاونيات في الزراعة . حيث للتعاونيات مستقبل مشرق ولكن ما دامت الزراعة منفصلة عن الصناعة في الوقت الحاضر ، فاعتقد ان الحركة التعاونية ستحتل مكان الصداره في الصناعات المحلية وهـي سترتبط بالتنظيم الحرفي للعمال في هذه الصناعات كما هو الحال-مع الدولة اوكل ما يحل محلها . وترتبط بالتنظيم الحرفي جميـع الصناعات والخدمات العامة الضخمة . وبالاسلوب نفسه ترتبط البلدية او السلطة المحلية بالتنظيمات الحرفية المحلية في الخدمات العامة .

ان التعاونيات هي الحركة العمالية التي توازي النقابات العمالية ، وكل نظرية تهمل التعاونيات او تضعها وراء ظهرها ستضطر الى الانهيار لا محاله ففي روسيا مثلا اخذ البلشفيك محاولة الاقلال من اهمية التعاونيات في نظرياتهم فأدى ذلك الى فشلهم . فالتعاونيات هي قوة جبارة لانها مرتبطة جذريا بالقطاع المنتج من المجتمع . فعلينا ان نجد نظره شاملة للتعاونيات في المستقبل . ولتحقيق الثورة الاجتماعية يجب ان نعتمد على هاتـين الحركتين العماليتين وان نجد لهما ارتباطا متناسقا . وان الشـيء الذي اطلبه هو قيام دراسة شاملة للنقابات والتعاونيات التي تستطيع ان تخرج هاتين الحركتين العماليتين في نظرية تطبيقية . واذا استطعنا تنسيق عمل هذه الحركات فلن يكون هناك حدود للقوة التي تستطيع ان تمارسها هذه الحركة في المجتمع .

وفي النهاية اضع امامكم اربع مشاكل مهمة، وسوف اعالج كلا منها بتوسيع. فاذا كانت الاشتراكية الحرفية مبدأ حياتيا حيويا فيجب ان تقدم اجوبة مقنعة لهذه المشاكل الاربع . ويجب على الاشتراكية الحرفية ان تضـع اسلوبا في تقسيم الدخل القومي . ورغم انني لا اؤمن بوجود مساواة مطلقة بل اؤيد المساواة على اسس المساواة الاقتصادية والعدالة ، وفي الوقت نفسه خلق رأسمال جديد وتقسيم الانتاج القومي من سنة الى اخـرى الى قسمين : قسم يدخل الى تحقيق الحاجات المستعجلة في استهـلاك الشعب والقسم الثاني يذهب للانتاج في المستقبل (الاستثمار) ، ففـي الاشتراكية الحرفية كما في اي نظام اشتراكي يصبح التوفير عمـلا خاصا للمجتمع لا لافراد متفرقين داخل المجتمع. ولذلك فمهمة التخطيط فـي الاشتراكية الحرفية هي من عمل المجتمع .

وبالاضافة الى ذلك فالاشتراكية الحرفية من الناحية المالية تسهل عملية الحصول على الضرائب . فالضرائب في الاشتراكية الحرفية هـي ضرائب على المنتج في مختلف الصناعات . لان الانتاج هو المصدر الرئيسي للربح. وهذا الاسلوب الضرائبي هو الطريقة العملية الوحيدة للقضـاء على التباين بين مختلف الحرف ، بعد ان يقرر المجتمع اثمان مختلـف انواع الانتاج .

وما دام النظام الرأسمالي موجودا فان العمل بالنسبة للاشتراكيه هو تركيز القوى اكثر فأكثر على محاربة الرأسمالية . واعتقـد ان اي فرصة يحصل فيها العمال على شيء من الحرية : كالحرية الاقتصادية ، فان اول شيء يقومون به هو القضاء على هذا الجهاز الصناعي المركزي. ولا اعني انهم سيعملون على تحطيم المكائن بل سيكون انعكاسا تدريجيـا ضد الواقع والسير نحو الانتاج الصغير لمواجهة طلبات المستهلك لبضاعة من النوع الجيد . واذا كان هذا العمل فجائيا فسيسبب كارثة . ان العملية يجب ان تكون تدريجية تبدأ من ثقافة العامل ، من تحقيق الحرية الواسعة في عمله ، من رغبته للقيام بعمل جدي . ان العودة الى ظروف الانتاج الصغير لن تتم قبل تحقيق شيء من الحرية الاقتصادية التـي

افسدها الجهاز الراسمالي الحالي. ومهما كان اعتقادنا بالتنظيم الحرفي المحلي او العالمي ، فان اهتمامنا يجب ان يتركز على مشكلة البناء التي تستطيع ان تقضي على الجهاز القائم وان تضع شيئا محله يستطيع السير حتى ولو لم يكن بشكله النهائي المرغوب .

*

واخيرا اريد ان اقول شيئا عن طبيعة الانسان . اذ انه من الصعب التكلم عن اهداف معينة دون السؤال عما اذا كانت الطبيعة الانسانيةمنغيرة ومن الضروري ادراك بعض الاسئلة لكي نحصل على اجابات موضوعية . والسؤال الاول الذي نطرحه هو : ماذا يشبه الانسان العادي ؟ ربما كان هذا السؤال بحاجة الى اجابة اوسع مما يفسح له المجال الحالي . فهناك من يقول ان الانسان العادي لا يريد الحرية بل يريد ان يكون منفردا . يريد ان يكون هامشيا . ولكنني لا اعتقد بصحة هذا القول . واعتقد ان الانسان العادي قد يرغب في ان يكون منفردا ، واذا ترك لفرديته فلا اعتقد بانه سيقوم بعمل محترم بل سوف يعاني من الانكماش والغثيان . ان ما يطلبه الانسان العادي في الحقيقة هو الحصول على الفرصة التي يعبر بها عن نفسه تعبيرا حرا . يريد فرصا عديدة لكي يعبر عن مختلف الاتجاهات التي ترهص في نفسه . وهو لا يطلب ذلك لانه يريد ان يستغل كل وقته بل لكي يستغل هذه الفرص عندما يشاء . فهناك شعور يتغلب على الانسان يدفعه لتملك الاشياء حتى ولو كان يستعملها لذاته . فقد ينتابه شعور جميل في الحصول على جميع الفرص ليمارس حريته ، حتى ولو كان لا يهتم بما يمارسه البشر من الحرية . كما انني ينتابني شعور بالمتعة عند حصولي على حق التصويت حتى ولو لم امارس هذا الحق لصالح احد المرشحين ، واعتقد ان شعوري هذا يشاركني فيه الجميع .

وهناك نقطة حيوية اعتقد ان كثيرا من الاشخاص يخطئون ادراكها . عندما يقولون ان الانسان العادي لا يرغب في السيطرة على الصناعة ، وسيان لديهم اذا كانت هناك فرصة للسيطرة على الصناعة ام لم تكن ، وهذا خطأ عظيم . فيجب ان ننظم الصناعة على اسس تفتح المجال لجميع الافراد بالسيطرة عليها ، لا لاعتقادنا بضرورة وجود فرص متساوية بل لان المستوى العام للصناعة سوف يتغير اذا منحت هذه الفرص. وهذا يعني ان جميع الناس يشاركون السيطرة على الصناعة وهم يقومون بذلك بناء على موافقة الاخرين حيث يشعر كل فرد بانه يتعاون تعاونا فعليا — حيث يشعر بانه ذو قيمة وان جميع الذين يشرفون على الصناعة يقومون بواجبهم تحت ارشاده . فاذا استطعنا ان ندخل روح التعاون وشعور الاقتناع داخل الصناعة نستطيع ان نغير الجهاز الحالي واذا تحققت الظروف الملائمة فان التغير سيكون اكثر سرعة وان نسبة كبيرة من الشعب ستكون نشيطة ودقيقة في معالجتها الامور للسيطرة الفعلية على الصناعة .واعتقد انه اذا نظمت الصناعة تنظيما واقعيا تعاونيا فلن تكون مشاكل الصناعة الا مشكلة ثانوية لا داعي للقلق عليها. بل سوف تترك لنفكر هي بذاتها.

*

واخيرا : فان المشكلة النهائية فيطبيعة الانسان هيتقبلنا وتقديرنا للثقة بالاخرين . فالقضية التي يمارسها المفكر الاشتراكي القديم تلح على عدم الثقة بالاشخاص الذين يعملون تحت ظروف الحكم الذاتي للصناعة . فالجماعيون لا يثقون بالبشر قيد شعرة — ولا اعلم اذا غيروا تفكيرهمالان — وعلى اي حال فانهم يهدفون الى بناء نوع من المجتمع يعمل تحت اشراف بيروقراطية اشتراكية . ولكن املهم هذا قد ضاع اذ لم يعد مجال للامل في المجتمع البيروقراطي . لا امل في العمل حتى ولو كان هناك مجال للعمل . كما لا يوجد مجال للراسمالية ان تبقى على قيد الحياة . اننا يجب ان نختط طريقا لمواجهة مشاكل التنظيم الصناعي ، فلا الاشتراكية الاستهلاكية القديمة ولا الراسمالية الحالية تستطيع قلب الاشياء .وهذا يضع امامكم حرية الاختيار بين القبول بما اشرت اليه او ايجاد طريق يدفع العامل الى الانتاج باساليب تختلف عن الاساليب التي كانت تمارس في القرن التاسع عشر — اساليب الجوع والخوف التي كانت الدافعالاول في ارغام العمال على العمل . فلماذا يجب على البشر ان يعملوا تحت هذا البؤس ، وهذه الظروف القاسية ؟ فاذا انهار هذا السبب — وهو ينهار في كل مكان اليوم — فاما ان يرفض الناس العمل او انهم يعملون ولكن بدافع يختلف عما كان سابقا .

واقول صراحة بان ما يجب ان يدفع العامل الى العمل هو الاعتقاد بان عملنا يخدم المجتمع . واذا كانت هذه الفكرة غير واقعية فلا اعتقد بوجود فكرة تحل محلها . ان العالم سيصل الى نهاية مظلمة لا بصورة فجائية بل بشكل وئيد وتدريجي حيث ينمو سرطان البطاله والبؤس والشقاء في جسد المجتمع . فاذا اردنا ان نتحاشى مثل هذا المصير المظلم فعلينا ان نعمل مسرعين في بناء مجتمع جديد قبل ان يتصدع البنيان علينا .

ترجمة ماهر سعيد وصفي
كلية الاداب — بغداد



طفل أعرج .. في ليلة الميلاد

« قصة طفل بتروا ساقه اليمنى في ليلة الميلاد ... »

ـ ١ ـ

ما زالت الاجراس فوق الارض تحنو بالعزاء ...
وتقبّل الدمعات في أجفاننا .. كل مساء ...
وتمد كفا للمسيح .. على جراح الاشقياء ..
لكنها ... في ليلة .. ذابت بأمطار الشتاء ...
وهوت صدى نعي لمن عاشوا ظلالا للفناء..
فالمتعبون .. مع الدجى الشاتي .. كأشباح العفاء..
وغبار قنبلة يغلف أرضنا مثل الهواء ...
والخوف يخرس كل امنية تغنى للهناء ...
والحب طفل تائه ضل في دنيا الخواء ...
ودعاء ناقوس بعيد ... دق احزان السماء..
وضراعة الآلاف تذروها اعاصير المساء ..
من يا ترى يصغى لناقوس .. غريب .. في الفضاء ..
هذا الاصم .. ام الجريح ... على وساد من دماء ؟..
ام عائد .. قد شوهته الحرب يمشي في انحناء ؟..
يلهو ببسمة ساخر ... وبوجهه يبكي البشر
دقى مع الآهات .. يا اجراس ... في عيد الشقاء..
دقي بأنات المسيح ... على قلوب الابرياء ..
في صوتك الاسيان موسيقى لنعش الشهداء ...
دقي كامطار الخريف .. على قبور في العراء ..
فكأن طرقات على باب خفي في المساء :
« افتح لريح الليل .. يا من ضل من ريح الشقاء ...
دقي ... فما زلنا على الايام .. نشقى بالرجاء..
ويعيش بالحرمان انسان ... عزيز الكبرياء ..
ما هذه الدقات .. يا اجراس ... في عيد الشقاء ؟
ادوي مطرقة اليهود على صليب في الخلاء ؟..
وصدى لمسمار الصليب .. وقد تخضب بالدماء ..
وراته عين الشمس .. لم تفزع .. فرارا بالضياء ..
وهواء أورشاليم .. يجري .. دائما .. عبر الهواء ..
تسرى كأنفاس الثكالى بعد ان ضاع العزاء ...
فاذا بها ترتد للمصلوب .. من غير رداء ... !
نسجت له من ادمع الآلاف ... في الدهر الرداء ..
واستوطن الاجفان .. كي يحيا بها لفظ بكاء ...

٢ ـ هدية عيد الميلاد

لكنني ... حتى اذا صليت .. نفسي .. حاقده !..
فلقد رأيت الامس طفلا ... فوق ساق واحده ...
من يصنع العكاز للاطفال ... حطم ساعده ...
اترى .. سأهدي الطفل عكازا .. ليصبح رائده ؟؟
ولربما سمع الاغاني... وهو يتبع قائده ...
ولها .. وراقص ظله .. فهوى ظلالا هامده ..
ابواه ماتا .. وهو يلثغ : ان امي عائده ..
... يا أم : أين الثوب والحلوى ... لنفسي المقعده..
أبي يواعدني .. ولم يحضر .. ايخلف موعده ؟
والى العشاء ... رنا يتيم العمر .. نحو المائده ...
الكعكة الخرساء .. في دمع الشموع الواقده...
والبيت .. دقت بابه .. ريح تنادي هاجده
وانين ناقوس حزين .. مثل روح شارده ..
«امي .. احس البرد يسري في عظامي البارده ..
... بي رغبة للرقص يا امي .. وساقي واحده ...
فتجيب ريح .. كانتفاض الليل .. لهثى .. واجده..
« ابواك .. يا دمع الربيع ... هما الاماني الفاقده ..
ماتا بلا سبب .. سوى جشع الوحوش الابده .. »
يا طفل .. يا دمع السلام .. على الورود الراقده ..
صلوا اذا شئتم .. فهل تنسى الدموع الساهده ؟
وتعانقوا في الدفء ولتفن الجموع الحاشده ...
تحت النجوم .. يموت انسان بارض راعده ..
وكفى شهيد الليل .. ان الفجر عين شاهده ...

٣ ـ المدفأة ...

وهناك مدفأة .. توشوش نارها للسامرين ..
اخشابها من دوحة ثكلى .. بارض الكادحين ...
ولهيبها زفرات اطفال .. وآهات طعين ...
سرقوا شعاع الشمس .. وانتبهوا من كنزي الثمين..
سرقوه من أشجارنا الخضراء في الوادي الامين ..
النار .. لو تدرون ناري .. يالصوص العالمين
ضجوا سكارى .. عربدوا في هيكل الروح الامين ..
هيا .. اصلبوه مرة اخرى .. وكونوا صادقين
واستنزفوا الدمعات من عين المسيح مهللين ..
يا سارقي كرماتنا .. دمع الكروم لكم يهون ...



« مهداة للشاعر الصديق نزار قباني »

عيون المساء . .
تغالب في هذه الليلة الحانيه
دموع هواها .. ولهفتها الداميه
بأن يغمر الارض .. جنح السلام
ويملأ بالحب .. والود
كل عيون الرجال
وكل قلوب النساء

★

وما زلت وحدي .. اسير
وساعتنا ما تزال ..
تدق .. تدق ..
وتعلن لحظة عام جديد ..
وتغمرني .. نشوة من حنان غرير ..
كاني أزف الى الحلم الاسمر
احس بقلبي .. يكاد يطير ..
كعصفور حب صغير ..
يحط على غصنه الاخضر

★

ويخطر خلف غشاوة عيني ..
شريط من الذكريات ..
فاذكر كيف تشيد بلادي صروح الحياة .
وكيف تصد الغزاة ..
باصرار ابطالها الصامدين ..
وبالمجد يربط كل العيون ...
كما يربط العاشقين ..
لقاء صفاء .. وحب ..
فيجتمع الشعب والجيش قلبا لقلب ..
ويدفن احلام .. كل الغزاة ..
كساعتنا ..
تودع بالهزء .. عاما يموت .
وتحملني .. نشوة حالمه ..
الى عام حب جديد طروب ..
ونافذة الامل المظلمه ..
تلوح .. وتغلق دوني كل الدروب
ولكنني .. من خلال الظلام ..
اشاهد كل جيوش السلام ..
تصيح بنادقها تحت جنح الحمام ..
سنسحق كل دعاة الحروب ...
ليحيا السلام . .
وامشي .. وامشي ..
والمح عين العروبه ..
توزع دمعة فرح خضيبه ..
تبارك وحدة سوريا ..
ومصر الحبيبه
وخلف تلال الجزائر
ترفرف راياتنا الظافره
كما رفرفت في عمان ..
وفوق مواكب مغربنا الهادره . .

★

انا .. وعيون المساء ..
نغالب في هذه الليلة الحانيه
دموع هوانا ..
ولهفتنا الداميه
بأن يغمر الارض .. جنح السلام
ويملأ بالحب .. والود ...
كل عيون الرجال ..
وكل قلوب النساء . .

دمشق **فارس قويدر**

٤ ــ دعاء السلام ...

لكنني .. ادعو لكم .. للناس طرا .. بالسلام ...
باسم الشذى الطفلي .. فوق الحقل .. اطياف ابتسام
باسم البذور السود .. تحسو النور .. من ثدي الظلام
باسم الشعاع السمح يطفو بسمة فوق الغمـام ...
باسم البراعم فتحت أجفانها للشمس . حبا في السلام .
باسم الجذور الصابرات العمر في سجن الرغـام ...
باسم الهوى .. والحب .. والميعاد . في ليل الغرام .
باسم الزوارق .. في غدير العطر .. في بحر الظلام ..
استحلف الثدى الذي يحمي الرضيع من الاوام ...
استحلف الطفل الذي في قلبكم .. باسم السلام ...
لا تجعلوا ميعادنا في الارض .. ميعاد الالـم ...
استنشقوا النور الطليق .. ومزقوا ليـل العـدم ..
الليل تملأه الامومة ... والشذى السهران .. نام ..
وطوى جناح الطير طيرا .. نبضه همس السلام ....
وبدا حديث الله في الاعين .. يحكي في كـلام ...
« لم تجرحون الارض .. ارض .. في عداء وانتقام .؟
غنوا معا .. للزهر .. للاطفال .. غنوا للسلام .. »

القاهرة **محمد الجيار**

الميراث

قصة بقلم سليمان موسى

لقد مرت على ذلك عشرة اعوام ، ولكن رغم مرور هذه الفترة الطويلة فان تفاصيل الاحداث ما تزال ماثلة امام عيني مرتسمة في خاطري كأن القدر كتب حروفها في طريق حياتي بخيوط متوهجة من نار .

عشرة عوام ، بايامها ولياليها ، باصباحها وامسياتها بكل ما فيها من متاعب واتراح وشقاء وشجون ـ مرت كما تمر الاحلام في ساعات الكرى. وبقيت تلك المشاهد منتصبة تموج فيها الحياة كأنما وقعت بالامس القريب .

كنت ما ازال صغير السن يومذاك لم اتجاوز الحادية عشرة من عمري ، وكنا نعيش في منزل انيق شيدت جدرانه من الحجر الابيض الناصع البياض ، وتحيط به حديقة صغيرة ملئت احواضها باصناف كثيرة من الورود والنباتات العطرية . ولقد ابتنى والدي ذلك المنزل في حي القطمون وهو يومذاك ماهول بذوي النعمة واليسار من اهل القدس .

لقد كان الانتقال الى ذلك المنزل الجديد مناسبة من مناسبات العمر الكبيرة بالنسبة لوالدي ووالدتي ... مناسبة عاشا اعواما طوالا وهما ينتظران تحقيقها . ذلك لان والدي عندما انتقل من القرية الى المدينة قبل اربعة وعشرين عاما لم يكن يملك منزلا ، واذكر انني نشأت في منزل صغير في القدس القديمة يطل على زقاق ضيق ولا يزوره ضوء الشمس الا لماما خلال اشهر الصيف .

وكان ابي يعمل في تجارة الاقمشة ويستاجر دكانا في القدس القديمة ، وقد حدثتني والدتي فيما بعد ان اسعار الاقمشة ارتفعت ارتفاعا كبيرا خلال الحرب واخذت ارباح والدي من الدكان تتضاعف وتزداد حتى تجمع لديه مبلغ كاف لبناء منزلنا الانيق في حي القطمون . وبعد ذلك نقل دكانه من القدس القديمة الى احد الشوارع الحديثة في المدينة الجديدة وملأها بالاقمشة الثمينة .

ولا ادري اذا كنا قضينا في منزلنا الجديد عاما كاملا .. كل ما اعلمه اننا لم نقض فيه وقتا طويلا . وفي ذلك الوقت لم اكن افهم سببا لرحيلنا عن المنزل . اما الان فقد كبرت وعرفت وفهمت .

عدت من المدرسة ذات يوم فوجدت والدتي في الحديقة ومعها اخواي الصغيران رجاء وزكي وهي تداعبهما . واشتركت مع اخوي في اللعب ثم جاءت والدتي ببعض الشطائر اللذيذة الطعم ، وفيما نحن نلتهم تلك الشطائر بشراهة الاطفال سمعنا دويا هائلا هز ارجاء المكان حولنا ، وشعرت بالخوف ولاحظت ان وجه والدتي قد علاه الشحوب ، اما اخواي فقد اقتربا منها وامسكا بطرف ثوبها .

وسرعان ما ارتفع الضجيج حولنا وسمعنا صراخ النساء والاطفال ، واشتدت حركة السيارات . ثم اطلت احدى الجارات وقالت لوالدتي ان لغما قد انفجر في الحي المجاور لحينا .

ذلك اليوم لن انساه في حياتي ، فقد تكررت الاحداث بعده بسرعة عجيبه ، وصار من النادر ان ينقضي بعده يوم واحد دون وقوع الانفجارات وارتفاع الرصاص وازيز الطلقات . وكثيرا ما سمعت والدي يتحدث مع امي خلال السهرة عما جرى في هذا اليوم او ذاك . واخذت كلمة « يهود » تتردد على مسامعي بصورة مستمرة : في المنزل ، في الشارع ، في المدرسة ، وفي اي مكان اذ اذهب اليه . وكنت آوى الى فراشي احيانا دون ان اشعر بالنعاس فاسمع ابي يقرأ الانباء من الجريدة ويعلق عليها بما سمعه اثناء النهار من افواه الناس ثم تحدثه امي بما سمعته من جاراتها ايضا .

ورويدا رويدا اخذت الفكرة الغامضة تتبلور في ذهني الصغير ولم تلبث ان تجسدت ذات يوم بصورة مريعة ساحقة عندما شاهدت سيارة شحن كبيرة تقف امام منزل جيراننا ، وعلمت من والدتي انهم عازمون على الرحيل من حي القطمون .

وفي تلك الليلة لم يذق والدي طعما للنوم ، فلقد قضى الليل بطوله يروح ويجيء في ارجاء الدار ، او يتقلب في الفراش كانه يضطجع على حزمة من قتاد ... لقد ازداد احساسنا بالفراغ والوحشه . اما انا فمضيت الى جانب امي والتصقت بجسمها وانا اشعر بخوف غامض لا اعرف كنهه ولا ادري مداه .

وثار والدي واشتد غيظه وغضبه ، واعلن سخطه على اولئك الاغنياء الجبناء الذين يبادرون للفرار من منازلهم عندما يدق ناقوس الخطر دون ان يشعروا بالعار والخزي والشنار ، كأن جلودهم القذرة واموالهم اللعينة اعز عليهم من الوطن والشرف والكرامة .

واقسم والدي في سورة غضبه انه لن يغادر منزله مهما حدث ، حتى لو اقتضى الامر ان يقتل هو ونقتل نحن جميعا معه بين جدران المنزل او تحت الركام .

ومضت الايام متثاقلة بطيئة . وازدادت معها حدة الاضطراب المحيط بنا حتى صرنا كاننا نعيش في ساحة قتال ، تغيب الشمس ويطلع الصباح على طلقات البارود ودوي المفرقعات .

واخيرا جاء ذلك اليوم الذي اقترب فيه خط النار من منزلنا ، واخذ اهل الحي يهجرونه عائلة بعد عائلة حتى خلت الطريق من المارة واقفرت الازقة ، ولم نعد نرى الا رجالا يمرون على عجل من هنا وهناك وهم يحملون بنادقهم بايديهم .

وبتنا ذات ليلة والرصاص يتساقط على جدار بيتنا ، بل ان احدى الطلقات اخترقت زجاج النافذة واستقرت في صدر الردهة الخارجية .

وسمعت امي تجادل ابي ردحا طويلا من تلك الليلة ، وكان الجدل يشتد تارة بينهما ثم لا يلبث ان تخف حدته . واستطعت ان افهم من حديثهما ان امي تحاول اقناع ابي بالرحيل بينما يصر هو على البقاء . كانت تحدثه بعواطفها وقلبها كما تستطيع الام ان تتحدث عندما تشعر بالخطر يهدد ابناءها ومنزلها . كانت تحس ان مملكتها الصغيرة تواجه خطرا موكدا ، وكان هو يحس بذلك الخطر ، ولكنه كان يخشى الرحيل ، يخشى ان يفر من منزله ويهيم على وجهه كما يهيم اللاجئون .

واخيرا تغلبت دموع امي وتوسلاتها على عناد ابي واصراره . لا بد انه شعر بعدم جدوى البقاء ، وتغلبت فيه غريزة المحافظة على النفس والزوجة والاولاد .. وفي الصباح بدأ يبحث عن وسيلة للرحيل، وكانت المعركة ما تزال محتدمة الى جوارنا ، ومضى ابي يبحث عن سيارة ولكنه لم يوفق .

لقد رفض اصحاب السيارات ان يخاطروا بالاقتراب من منزلنا رغم انه عرض خمسين دينارا هي كل ما يملك من نقود . وبكت امي وبكيت انا ووقف ابي حائرا ذاهلا لا يدري ما يفعل .

واخيرا قال ابي : ولم الاهتمام ؟ بعد اسبوع ستدخل الجيوش العربية الى فلسطين وتسحق اليهود : وعندئذ نعود الى منازلنا ونجد كل شيء في مكانه ، سنحمل معنا بعض الملابس والثياب ... انها بضعة ايام لا اكثر .

واقفلنا الابواب والنوافذ جيدا ورتبنا كل شيء في مكانه ، اما انا فقد القيت نظرة على سريري وعلى الخزانة الصغيرة التي تمتلىء ادراجها باللعب والكتب وبالاشياء الكثيرة التي يجمعها الاطفال . ثم غادرنا المنزل ودموع والدتي تنهمر على وجنتيها ..

....

ومرت الاعوام العشرة كما يمر الحلم المخيف . لقد نزلنا اولا في ضيافة اقارب لنا في رام الله . ثم استاجرنا بعد بضعة اسابيع غرفة صغيرة في طرف المدينة واخذنا نعود انفسنا على حياة الشظف والتقتير ، وعندما حل فصل الشتاء رأيت والدتي تعطي اسورتها الذهبية لابي كي يبتاع لنا بها بعض الملابس الدافئة .

كنت الاحظ على ابي الوجوم المستمر والميل الى عدم الاختلاط بالناس والاشتراك معهم في الثرثرة والتخرصات ، وكثيرا ما كنت ارافقه في جولات اعتاد القيام بها خارج رام الله ، فيسير واسير الى جانبه حتى يصل الى تلة من التلال المرتفعة التي تشرف على تلك الارض القريبة البعيدة التي اصبحت حراما علينا . وهناك يقف ابي ويطيل الوقوف ويده تعبث بمفتاح متصل بخيط من الكتان . كان يخيل الي ان ذلك المفتاح يحمل له من المعاني والذكريات ما يزهده بعشرة الناس والتحدث اليهم . واحسب انه كان وهو يفكر بعصبية وعنف يشعر نحوهم بالدفء الوجداني الذي نشعر به عندما نصافح الاصدقاء او نقبل احباءنا .

ولكي نعيش ، اضطر ابي ان يعمل اجيرا واضطرت والدتي ان تشتغل بتطريز الملابس ، وكنت انا اشتغل ببيع علب السجائر خلال العطل المدرسية . وعرفنا من الحياة لونها الكريه الاسود المشحون بالالم والحسرة والحقد والحرمان .

عرفنا كيف تذل الحاجة الانسان ، وكيف تمر به حالات يتمنى فيها فراق هذه الدنيا ، وكيف يعتمل في كيانه بركان من الحقد المكتوم يستطيب فيه ان يأكل اكباد اولئك الذين شردوه وجعلوه .. « لاجئا » لا يعرف اين يعيش واين يبيت ..

عرفت الحقد في نفسي وعرفته كذلك في نفس ابي . ولكن ادهشني بعد بلوغي سن الرشد ان اعرف ان حقد والدي لم يكن منصبا على اولئك الغاصبين بقدر ما كان منصبا على نفسه هو .. كان يحس كأنما باع فلسطين لليهود لانه لم يحمل السلاح واكتفى بالفرار شأن العاجزين الجبناء، ولهذا فقد ثقته بنفسه وبمن حوله . فقد ثقته بالعدالة والشرف وكل الخصال الانسانية الرفيعة . بل لقد كان يبلغ به اليأس احيانا الى فقدان ثقته بالله .

وفي العام الماضي فقط انتقلنا الى القدس القديمة حيث صرت اعمل . وكان والدي قد اثقلت كاهله المتاعب والهموم فشاخ قبل الاوان وزاد صمته ووجومه وميله الى اعتزال الناس . وفي القدس كانت تسليته الوحيده ان يتجول في الاحياء الشرقية خارج باب العمود كي ينعم النظر في احياء القدس الجديدة ويستعيد في النظر اليها احلامه واحقاده وامانيه .

وذات صباح بينما كان يسير الهوينا قريبا من الحي المهجور ، سمع حركة غير عادية الى جانب منزل هدمته القنابل ، فتلفت نحو مصدر الصوت وعندئذ فاجاه الرصاص واحس بوخزة حادة في جنبه ثم سقط على الارض .

عندما ذهبت الى عيادة الاسعاف وجدت ابي مسجى على ظهره وقد اصفر وجهه لكثرة ما نزف من دمه . خاطبته فلم يحر جوابا . رددت في مسامعه عبارات الحب والموده التي طالما سمعتها منه في طفولتي ، ولكنه كان يطيل النظر الي ثم تطرف عيناه المغرورقتان بدموع لا تسيل.

ولاحظت يده اليمنى تحاول ان تمتد نحوي فامسكت بها ، ووجدت ان اصابعها ما تزال تقبض على ذلك المفتاح . وارتخت الاصابع عند لمستي وسقط المفتاح في راحة يدي فرفعته الى فمي مقبلا ثم دسسته في جيبي. كنت اعلم ان ذلك المفتاح هو الميراث الوحيد الذي يملك ابي ان يهبه لي في ساعاته الاخيرة . وكنت اعرف حقيقة المشاعر الكامنة في نفسه نحو ذلك المفتاح ... مشاعر التعاطف العميقة التي تكاد تبلغ درجه الوله والعباده .

وارتسمت على ملامح وجهه الشاحب ظلال ابتسامة واهنة ثم اسلم الروح .

وهكذا ذهب ابي ضحية كما ذهب سواه من الاف الضحايا على ثرى بلادنا الغالية .

ذهب ابي دون ان يترك لي ميراثا سوى قطعة صغيرة من الفولاذ على شكل مفتاح ... مفتاح المنزل الذي عشنا فيه ثم فررنا وغادرناه غنيمة للمجرمين .

ترى هل اعيش لاضع المفتاح في القفل ؟ واستعيد الميراث الذي تركه ابي الشهيد ؟

عمان **سليمان موسى**



الثورة الجزائرية

تاليف احمد الخطيب

٢٥٦ صفحة من الحجم الكبير – نشر دار العلم للملايين

*

ان اول ما اجدني مدفوعا الى قوله هنا هو ان مطالعة هذا الكتاب ضرورة من الضرورات القصوى مفروضة على كل رجل عربي يريد ان يبني شعوره القومي على ايمان حقيقي يكون الدعامة الثابتة اللازمة لهذا الشعور . ومثل هذا الايمان لا ينشأ ولا يقوى الا اذا قام على عنصر اساسي هو الاقتناع بقيمة الامة . وهذا الكتاب الذي يتناول تاريخ الجزائر الحرة منذ القديم حتى يومنا هذا بالسرد والشرح والتحليل والمناقشة ، يعطي القارىء صورة واضحة سائغة عن حقيقة شعب الجزائر وكفاحه البطولي عبر العصور تصل بروعتها الى حد انتزاع الاعجاب والاكبار ، ويقدم للعرب ادلة وشواهد ملموسة ساطعة على قيمة أمتهم وعظمتها من خلال قيمة شعب الجزائر وعظمته . وليس ما نسمعه اليوم عن الثورة الجزائرية الراهنة يغني عن الاطلاع على تاريخ الجهاد العربي في الجزائر ووقائعه السالفة الخالدة ، ولعل شعب الجزائر قد بذل من العرق والدم والدموع اكثر مما بذل اي جزء اخر من الامة العربية ، وفي هذا يكمن مظهر فريد من مظاهر البطولة ، بحيث يفصح ابلغ الافصاح عن حقيقة قيمة هذه الامة .

ولست اجد لتقديم الكتاب خيرا مما قاله السيد محمد احمد الغسيري ، عضو جبهة التحرير الوطني الجزائرية في تقديمه : « هناك كتب كثيرة صدرت مؤخرا باللغات المختلفة عن الجزائر العربية .. ولكنها في مجموعها تبحث موضوع الجزائر وقضيتها بسطحية بادية ، فهي اما ان تكون تستقي معلوماتها من المصادر الفرنسية ... واما ان تكون تلك المصادر عربية الفها مؤلفون عرب ... يستقون احيانا معلومات عابرة ان لم تكن من مصادر فرنسية اصلا فهي مما ترجم الى الصحف والمجلات بكثير من التصرف . اما هذه المرة فان مؤلفنا الشاب الاستاذ احمد الخطيب هو باحث من الجزائر درس في لبنان ، ودرس بالجزائر ، وعاش حاضرها وتعرف الى كثير من معالم حضارتهاوحياتها العامة ، باحث سيتحف قراء العربية لاول مرة بدراسة قيمة مفصلة عن القضية الجزائرية .... »

والواقع أن الكتاب يمثل دراسة علمية مبوبة ومفصلة لتاريخ الجزائر وقضيتها وملابساتها . ولست اودهنا الذهاب بذهن القارىء الى استعراض ابواب الكتاب وفصوله واحدا واحدا للتحليل والمناقشة ، لاني افضل ان لا استأثر من دون القارىء بهذه المهمة بالنسبة الى هذا الكتاب . وانما احب ان اذكر انطباعاتي الرئيسية عن هذا الكتاب ، وهي انطباعات ، على ما اعتقد ، ذات صلة متينة بمعنى النضال الذي تخوضه القومية العربية اليوم ، وبروح هذا النضال .

ان اول فكرة يخدمها هذا الكتاب تبيانه لحقيقة الكيان الوطني للجزائر . فالمؤلف قد افرد فصلا خاصا بعنوان « الدولة الجزائرية قبل الاحتلال » ، شرح فيه حقيقةالدولة الجزائرية استنادا الى ما حددته القوانين الدولية والعرف الدولي من توفر العناصر الاساسية التالية : الوطن القومي ، الحكومة ، النظام الاداري ، النظام الدبلوماسي والدفاع الوطني . ويتضح من هذا الفصل ما كان للجزائر من شخصية دولية مستقلة ، اذ كان لها حكومة وطنية يشرف عليها ملك يسمى الداي ، وتتكون من خمس وزارات : الداخلية والمالية ، الخارجية والبحرية ، الحربية ، الاملاك الاميرية ثم الشرع والقضاء ، وكان لها نظام اداري يضاهي في ذلك الحين احسن أنظمة ادارات دول اوروبا ، كما كان لها نظام دبلوماسي ، بحيث ان كثيرا من الدول اعترفت بالدولة الجزائرية ودرجت على استرضائها على الدوام رغبة في الحصول على حماية سفنها بواسطة اسطولها الذي كان مسيطرا على الجزء الغربي من البحر المتوسط ، ومن هذه الدول : الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا والمانيا وفرنسا وروما واسبانيا وهولندا والنمساوالبرتغال، وقد عقدت معها بعض هذه الدول مثل الولايات المتحدة الامريكية وفرنسا محالفات سلم وصداقة . وهذا مما

يدحض افتراءات الاستعمار الفرنسي حول عدم اعتبار الجزائر دولة وطنية قبل الاحتلال ، بل « ملكا » من « املاك » الامبراطورية العثمانية .

والفكرة الثانية البارزة في هذاالكتاب ، هي ايضاحالهدف الحقيقي الذي يسعى اليه الاستعمار في الجزائر . فعند قراءة الوقائع التي رافقت الاحتلال وما تبعه منها حتى اليوم ، وعند مطالعة التصريحات والرسائل الرسمية الفرنسية حول الوضع في الجزائر ، يلمس المرء لما يهز مشاعره الانسانية حقيقة حرب الابادة التي تخوضها فرنسا ضد الشعب العربي في الجزائر . واكتفي هنا بما جاء في تقرير الدوق « دوكلير مونتانيار » وزير حربية فرنسا ابان حملة الاحتلال الى مليكه شارل العاشر لتعليل احتلال الجزائر : « كان احتلالنا للجزائر اخذا بثار الاهانة التي لحقت بممثل فرنسا ، وارضاء للمسيحيين وذلك بابادة المسلمين اشد أعدائهم طغيانا ... ولسنا بحاجة الى اقتناع جديد بأنه لا سبيل الى استقرار الامن في الجزائر الا بابادة اهلها عن بكرة ابيهم » .

ان من يقرأ تاريخ حرب الابادة هذه في كتاب « الثورة الجزائرية » ، يستطيع ان يتمثل بوضوح حقيقة نوع الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، ومدى اختلافه عن سائر انواع الاستعمار .

اما الانطباع الثالث الذي يحدثه هذا الكتاب ، فهو هذه الصورة الواضحة ، التي قد لا نجدها في الصحف القومية وانباء الاثير ، لحقيقة كفاح الشعب الجزائري . فمنذ ان وطىء الاستعمار الفرنسي ارض الجزائر في ليل الرابع عشر من شهر حزيران سنة ١٨٣٠ ، ونضال الشعب الجزائري محتدم لا يلين ، ولقد خان « الداي » شعبه فقبل بتسليم العاصمة ، ولكن الشعب رفض الاستسلام ورفع راية الجهاد والحق بالغزاة الهزائم الكثيرة ، وما زال الى اليوم يقوم بواجبه القومي المقدس ببطولة نادرة . ولم يرتكز نضال الشعب الجزائري على عمليات الجيوش الحربية فقط ، وانما اقترن النشاط العسكري بمعاونة فرق المقاومة الشعبية المنظمة . فنحن هنا بازاء حركة كفاح شعبي شامل منظم نراه لاول مرة في تاريخ العرب .

تلك هي انطباعاتي الرئيسية عن هذا الكتاب القيم ، واعتقد أن فيها الكفاية التي تخولني اعتباره فريدا في نوعه ، والدعوة بالحاح الى مطالعته .

محمد وهبي



شمروخ

تأليف : الاستاذ محمود تيمور

القاص مؤرخ على طريقته والقصة نوع من التاريخ . واذا كان الاديب ابن عصره تتمثل في كتاباته الافكار الشائعة في عهده والحياة والاجتماعية والسياسية والابية فان القاص بنوع خاص هو الذي يمثل ذلك خير تمثيل لانه يستوحي قصصه من واقع الحياة وحوادثها وملابساتها كما يخلق شخصياته على شكل الاشخاص الذين يختلط بهم او يراهم ويشاهد اعمالهم ويبحث خصائصهم .

وهكذا فان عملية الخلق عند القاص خاضعة دائما لما يكتنزه في نفسه من مشاهد وصور ومن تاثره بحوادث شهدها وناس عرفهم .

والقصة من هذه الناحية وثيقة تاريخية عن حياة العصر الذي كتبت فيه . ومؤرخ الحياة الاجتماعية لا يستطيع ان يتجاهل مجموعة القصص التي كتبها كبار كتابنا وخاصة الاستاذ تيمور كما ان مؤرخ الحياة الاجتماعية عهد روسيا القيصرية مضطر الى الاستعانة بقصص « دوستويفسكي » و « تورجنيف » و « تولستوى » ، وفي فرنسا بقصص «بول بورجيه» .

وبعض كبار القاصين يتعمدون معالجة موضوعات الحياة السائرة والافكار الشائعة في قصصهم . هذا « بول بورجيه » الذي ذكرناه فانه لم يكد يتحدث الناس في فرنسا عن سن قانون للطلاق وصدوره في اوائل هذا القرن حتى وضع قصة بعنوان «طلاق» وقد جمع في قصة « المريد » جميع الاراء الفلسفية التى كانت شائعة في عصره في شخصية الفيلسوف « ادريان سبكت » ووصف اثرها في القصة . ولم تكد تقوم الحرب العالمية الاولى حتى كتب قصة بعنوان « معنى الموت » ثم اردفها بقصة عنوانها « نيميزيس » الهة الانتقام ، وبعد الحرب كتب اكثر من قصة في وصف تطور الحياة الاجتماعية بعد الكارثة الاولى التي المت بالانسانية .

وكذلك كان يفعل « موريس باريس » في محيط اضيق ، عندما كانت فرنسا تطالب بعودة مقاطعتي الالزاس واللورين اليها قبل الحرب العالمية الاولى فكان في قصة « التل الملهم » وغيرها يتعمد اذكاء روح المطالبة في نفوس الفرنسيين .

وكذلك عمد تولستوى الى تصوير مشاهد الحياة في قصته « الحرب والسلم » كما فعل « تور جنيف » في قصصه حين وصف الاثرياء الروس ومعاملتهم لخدمهم وفلاحيهم .

ولعلى اطلت في قضية ادبية معروفة متواضع عليها لا تحتاج الى جميع هذه الشواهد لاقول ان الاستاذ محمود تيمور لم يخرج عن تلك الخطة التي رسمها كبار القاصين وهو واحد منهم ـ حين كتب قصة «شمروخ(1)» وعالج فيها مشكلة من اهم المشاكل التي يتعرض لها الشرق الاوسط . وهي مشكلة البترول واستثماره بواسطة الدول الاجنبية وحرص هذه الدول على الاحتفاظ بامتياز هذا الاستثمار وتاثير ذلك في الحياة السياسية والاجتماعية في المناطق التي نبع منها .

و « شمروخ » من بعض اسماء الجن وقد كنى به الاستاذ تيمور عن البترول لانه يفعل في نفوس سكان المناطق فعل الجن والشياطين اذ يفرق من ناحية بين هؤلاء السكان فيود البعض لو انه لم يوجد ويعمل البعض الاخر على الاستفادة منه الى ابعد حد . وهو يقلب الاوضاع والتقاليد الاجتماعية ، ولعله يوسوس كذلك في بعض النفوس يفتح

(1) في ١٨٨ صفحة من القطع الكبير التزمت طبعها « دار الهلال وتوزيعها « مؤسسة المطبوعات الحديثة »

امامها من سعة للبذل والاسراف .

وقد عالج الاستاذ تيمور موضوعه على طريقته الهادئة في التفصيل والتحليل واسلوبه البارع في الوصف بحيث قدم صورة كاملة في عبارات قليلة تفتح امام المخيلة والعقل مجالا واسعا للتأمل والتدبر .

وامارة « زيتستان » التي تقع فيها حوادث القصة جزيرة عربية تخيلها القاص على نوع تلك الامارات الواقعة على الخليج الفارسي حيث قلب البترول نظام الحياة وأثار مشاكل اجتماعية وسياسية. وقد صور فيها جميع انواع النضال التي يستحدثها مثل هذه الانقلابات : نضال حول التقاليد المرعية ، ففريق يقول بالاخذ بها وفريق يقول بالتطور لماشاة المدنية الحديثة ، ونضال حول نظام الدولة والحكم الديمقراطي ومشاكل العمال ، ونضال حول الطبقات او هو النضال الاجتماعي ، ونضال حول « شمروخ » او البترول هل تدمر اباره وتطمس اثارها حتى لايشيع استثمارها وما يدره من مال يشيع مختلف انواع الفساد الاخلاق والحكم والسياسة وحتى لا يغرى الاجنبي المستعمر على التحكم في مصير الجزيرة .

وقد افاد الاستاذ تيمور من جميع هذا كما افاد من الصراع القائم بين الاستعمار والاستقلال ومن الافكار الحديثة في التعاون بين الدول والخلافات حول نظام الحكم وحول القديم والحديث ومثله اتم تمثيل في قصته .

ولا عجب في ذلك فان الاستاذ تيمور يرى ان « النضال آية الحيوية واختلاف وجهات النظر تطلع الى تمحيص الحقائق وان الحقائق لا تثبت بل تتغير مع الزمن ، ولا تجمد بل تتاثر بملابسات العيش ، ومن ثم يتواصل النضال واختلاف وجهات النظر ما تواصلت الايام » وهي « طبيعة الدنيا وسنة الخلق » .

وهكذا نجد في الجزيرة عاصمتين ونجد فيها حزبين فالعاصمة القديمة « الظاهرية » تقع في اواسط الجزيرة والعاصمة الجديدة « المادحية » تقع على شاطىء البحر وقد نقل الشيخ مادح الارض حاكم الجزيرة عاصمة ملكه الى هذا الميناء بعد ظهور البترول في الجزيرة وانشاء حركة لاستثماره واخذ يمالىء القائمين بامر الشركة وينفذلهم جميع رغباتهم فبن حين قبع الشيخ نعسان المبارك في الظاهرية يندد باعمال الحاكم ويعارض اخذه بجميع مظاهر المدنية الحديثة وتفانيه في خدمة اصحاب الشركة . وهكذا ينشأ حزبان احدهما محافظ بزعامة الشيخ نعسان ويسمى حزب القرية الطاهرة والاخر مجدد برئاسة الشيخ غانم الدخيل رئيس الوزارة باسم حزب الرشاد الحر . والاول يعارض التعاون مع شركة الزيت وينقم على « شمروخ » وما جلبه الى الجزيرة من فساد والاخر يتفانى في خدمة الشركة ويسرف اعضاؤه في الانغماس في صنوف الترف الغربي .

ويظهر همام ابن الحاكم وولي عهده وكان قد نشىء تنشئة عصرية وسافر الى مصر واوروبا ودرس حضاراتها ونظمها ، وعاد الى زيتستان مشبعا بروح الاصلاح الذي يجب ادخاله لرفع مستوى معيشة الشعب حتى يقضي على روح التذمر من جانبه والحد من بذخ الوزراء ومن اليهم فيعمل على تأسيس حزب جديد يسميه حزب الشعب ويضم المعتدلين من اولئك الذين لم يتساقوا مع التساهل او التفريط ولم يستنيموا للرجعية او التحفظ ويشرع يعمل مع سكرتيره سيد منصور المصري .

وكان ضروريا ان يتكتل العمال الذين يعملون لدى شركة الزيت وان تكون لهم مطالب ومطامع وان يتزعمهم شهاب ، وهو شاب جرىء ناهض يتحدث باسمهم .

وقد مثل الاستاذ تيمور حزبي القرية الطاهرة والرشاد الحر بفتاتين احداهما اشراق التي تعيش في الظاهرية ، العاصمة القديمة في كنف الشيخ نعسان مبارك وتمثل حزب الرجعية والثانية مسز فلورين ابنة مدير الشركة التي تعيش في المادحية العاصمة وتمثل التقدم والاخذ بحياة الغرب باوسع معانيها .

في هذا الجو تتطور حوادث قصة «شمروخ» يدفعها الاستاذ تيمور وفقا لتطور العصر ومقتضياته . وهو يقول ان الحياة السوية هي التي تقوم على النضال الاجتماعي والتطلع الى غد اسعد ، وعالم امثل ، ولكن في ترابط سلمى ، وفي جو من المصالحة ، وفي روح التعاون بين فرد وفرد ، وطبقة وطبقة ، ومذهب ومذهب وامة وامة ، وذلك في حرم الحرية ، وفي حدود الاعتدال ، وتحت راية اعلاء الخير الانساني العام على منافع العناصر والاحزاب والاشخاص .. والبقاء للاصلح »

وبهذه الروح المسالمة الهادئة يدفع الاستاذ تيمور حوادث القصة فتسير هادئة رتيبة لا يعتورها عنف ولا يتدخلها ثورات ، بل نجد الحجة تقرع بالحجة والدليل ينساب وراء دليل اخر في اتزان راى واخذ بالعقل والمنطق . حتى الثورة التي ادت الى خلع حاكم الجزيرة والافراج عن همام بعد ان اعتقل لارائه فقد استطاع قادتها السيطرة عليها والاكتفاء بالزحف على المادحية العاصمة الجديدة ومحاصرتها ..

وقد اجاد تيمور تمثيل الصراع بين الحزبين الرجعي والتقدمي في الفتاتين اشراق « ومسز فلورين » وكل واحدة منهما تحاول بوسائلها جذب همام ــ وهو بطل القصة ــ اليها . الاولى في خفر وحياء وترفع والثانية في جراة واقدام وتبذل .

ولكن الاستاذ تيمور يؤمن بالتطور ويرى ان الجمود يؤذي الشعوب ويجعلها فريسة للفقر والجهل والمرض لذلك نجد اشراق تتطور بارشاد همام ، ودفعه لها ، ونجد الشيخ نعسان يرضى عن شمروخ حين يتولى امارة الجزيرة ولكن على ان ينتفع به افراد الشعب لا طبقة معينة من الناس ، يولى هماما رئاسة الوزارة لكي ينفذ مشاريعه الاصلاحية

وكان الطبيعي ان تندمر « مسز فلورين » امام « اشراق » وان تنتصر «اشراق» عليها بالاحتفاظ بقلب همام ..

ويجب ان تطالع قصة « شمروخ » لكي ترى كيف انها صورة مصغرة لمشاكل العصر الحديث : صراع الطبقات ، ومحاولة رفع مستوى الشعوب ، والبحث عن خير انظمة الحكم ، وتطور المجتمع نحو مستقبل سعيد . وقد اكتفينا بالاشارة الى عناصرها دون تلخيص حوادثها مخافة التقصير في استيعابها .

وقد جاءت هذه القصة تحمل طابع الاستاذ محمود تيمور في تفكيره الهادىء الرصين ونزعته الى الخير وروحه التفاؤلية وفنه القوي المتين وبراعته في بناء القصة وتركيز عقدتها ووحدتها وتطور حوادثها .

والاستاذ تيمور في « شمروخ » قاص ومؤرخ معا .

صديق شيبوب



بداية الربيع

رواية للكاتب السوداني ابو بكر خالد

الناشر - دار الفكر ، القاهرة

*

لا اريد ان اجعل نقطة الانطلاق في نقدي لقصة « بداية الربيع » للكاتب ابو بكر خالد انها اول قصة طويلة لكاتب سوداني ، فاقف عند جذور القصة السودانية من يوم كانت اسطورة او حكاية او مثلا عميق المغزى. وان كنت آمل ان تمنحني الايام فرصة لهذه الدراسة فهي تتيح لنا مزيدا من الفهم لهذا الشعب الشقيق الذي تربطنا به روابط لا تنفصم . وفهم هذه الاشياء هو المفتاح او كلمة السر للوصول الى نفسية هذا الشعب الذي تأصلت فيه هذه الاشياء كما تأصلت في ابناء اقليمنا المصري النكتة السريعة.

ولا اريد ان ابدأ عن القصة السودانية كوجه من اوجه الادب العربي فان هذا البدء سيصل بي الى دراسات في القومية والنزعة الافريقية وربما التاريخ الاسلامي وقد يتفرع بي الطريق الى انفتاح القومية والى اللقاء بين الشعب العربي في الصراع ضد الاستعمار وفي الحياد الايجابي وكل القيم التي ندافع عنها في اصرار .

ولكني اقف من القصة عند سؤال قديم « هل هناك علاقة بين التقدم السياسي والوطني وبين عادات الناس وسلوكهم واساليب معاشهم ؟»

وفي السودان يعيش جزء حبيب من الشعب العربي في صراع رهيب ضد الاستعمار والحكومة الرجعية وفساد جهاز الحكم وسيطرة العملاء (1) ؟ فما اثر هذا الصراع وما مداه ؟ وهل يمكن ان تنعكس الاوضاع السياسية والصراعات الوطنية في الاسرة العادية ؟

ان قصة « بداية الربيع » التي صدرت عن دار الفكر ، تجيب على هذا السؤال اجابة تضيف الى الخدمات التي تقدمها الاداب للعلوم خدمة جديدة موفقة فهي تنقل اليك الحياة في السودان بكل ما يجيش فيها من اصداء وانفعالات ، وتكسبك معايشة حقيقية وتامة في الارض السمراء ذات البيوت الصغيرة التي تبدو على جنبات الطرق ملتصقة في حنو وتعاطف . وتقف بك في امدرمان حيث يمتد شارع كرزي مبتدئا من المحطة الوسط حتى ودنوباوي ، وفي طرفه القريب من السوق نجد منزل الحاج مصطفى عضو حزب الامة الذي يحتضن كل الافكار الاستعمارية ويقف ضد قوى الشعب . ولكن الحاج مصطفى ليس رجلا شريرا قاسي القلب حديدي الحواس ، بل ان نظرته الطفلية البريئة ووجهه الطيب الذي يشرق بالابتسامة تحت عمامته البيضاء الكبيرة التي تفارقه ، وكل تصرفاته تشعرك بالتناقض بين هذا الشيخ وبين حزبه الذي يدبر المؤامرات ويشيع الفوضى والمجاعة في ارض وطنه ، ترى ما الذي يربطه بالحزب الذي يتنافى مع طبيعته ؟

انه قد اكتسب مع الزمن عداوات تقليدية مع كل جيرانه المرتبطين بالاحزاب الوطنية وليس من الممكن ان نتصور امكانية مصافحته لهم يوما ؟ هل هذه هي المشكلة التي تبقيه في حزبه ؟ لا ، فهو لم يحس بهذه المشكلة لانه فعلا لا يريد ان يترك حزب الامة .

وزوجته الثانية نفيسة هي ام اولاده ، فان الزوجة الاولى لم تترك له الا مبارك اكبر ابنائه والذي تخرج من المدرسة الابتدائية وعشق السهر بين النساء الحبشيات في بيوت الدعارة في الايام التي يسافر فيها والده من اجل تجارته . ومبارك ورث عن الزوجة الاولى هذا الوجه القبيح الذي لم تخلق بعد الفتاة التي تطيقه ، فلا طريق له الا ان يدفع من ماله في تلك الدور القذرة ثمن لذاته التي لا يفكر في غيرها .

ونفيسة الزوجة تفهم شيئا واحدا في حياتها ان تطيع زوجها ولا تناقشه ، انها مثل هانز مولر الجندي الذي قال عنه ناظم حكمت انه يخاف من ثلاثة اشياء « الفوهرر ، الفوهرر ، الفوهرر » . فاذا ما عرض عليها مشكلة فهي تعرف واجبها الوحيد ان توافق على ما يقال ، وهي وان وافقت على ان تتعلم ابنتها ، لا تطيق ان تراها تناقش حتى اخاها الصغير . وهي لذلك تفرض على الابنة رقابة حديدية فلا تجعلها تترك البيت الا الى المدرسة ثم لا سبيل الى الخروج . وطالما انها لم تبد رايها حين تزوجت وانما سيقت الى الحاج مصطفى ورضيت به فهل تتصور ان تختار ابنتها او تبدي رأيها فيه ؟

ونفيسة تحس اليوم انها غريبة عن بيتها ، فابنتها زينب دائمة الخلاف معها ، وقد يصل الخلاف احيانا الى دور الشجار . وهي تجد لذة كبيرة في حديث ام ابراهيم الحلبية التي تحدثها عما يخبئه الغيب لها من خلال الودع والاصداف التي تلقيها امامها وهي تتمتم . وبخيته الخادمة تمتعها هي الاخرى باساطير الجن وكرامات الشيوخ والاولياء. اما ابنتها زينب .. ٥٢.. لماذا يصرون على تعليم البنات ؟ ها هم قد افسدوا عليها ابنتها . ولكن امومتها تنتصر على الخلاف والشجار بينها وبين ابنتها فاذا هي تحدث نفسها « ماذا كان يحدث لو دخلت انت المدرسة يا نفيسة ، هل كنت تقرأين ايضا وتكتبين . هل كنت تتزوجين ابا صديق هذا الرجل الذي لا يسمح لك بالخروج من المنزل الا في المناسبات ؟ بنات هذا الزمن يا نفيسة يجلبن العرسان بتعليمهن والواحدة منهن في الغالب تجد شابا صغيرا يقارب سنها تعيش معه مثل الافرنج . ابنتي زينب صغيرة وجميلة ومتعلمة .ترى اي صنف سيكون زوجها ؟ في صغري تزوجت رجلا يكبرني بعدة اعوام وكان جافا جافا غليظا لم يشعرني ابدا بانني زوجة يحبها وبخلص لها . كثيرا ما فكر في الزواج وكان نواجهني بذلك . ظروفه المالية فقط هي التي منعته من ذلك .

وتعود البيئة مرة اخرى لتقيد احلامها فاذا هي تلعن التعليم وبنات هذه الايام ، فهن لا يستحين من نشر صورهن في الصحف وهن ضامرات الاجسام من السهر باهتات العيون من كثرة القراءة .

وصديق ابن الحاج مصطفى طالب بالسنة الثالثة بمدرسة وادي سيدنا الثانوية يتجه نحو سن الاحلام الراهقة ، وهو لم يعد يطيق وقاحة اخيه الاكبر ومعاملته له على انه طفل صغير . وحين ضربه ابوه لانه لم يقبل اهانة اخيه الاكبر تسمر في مكانه ولم يبك وانصرف الى بيته تاركا متجر ابيه غاضبا حزينا لهؤلاء الذين لا يقدرون ثقافته ورجولته وعضويته للجمعية الدينية في المدرسة ! وقدرته الخطابية التي تاخذ بمجامع القلوب . الويل له اذا علم اعداؤه الحزبيون في المدرسة انه ما زال يضرب في البيت كالاطفال . وحبيبته عزة التي لم يعبر لها لحظة واحدة عن عواطفه والتي لا تعرف عن حبه شيئا ، ماذا ترى تفعل لو علمت انه ما زال يضرب في البيت؟ ولكن ثورة صديق لا تستمر طويلا فما اسرع ما يدخل في عالم العادة السرية التي ترخي اعصابه المتوترة ثم يتسلل

(1) وصلنا هذا المقال قبيل الانقلاب السوداني الاخير . « الآداب »

الى المطبخ والكل نيام لياكل وهو الذي اعلن صيامه احتجاجا وغضبا .

ومحمد صديق فتانا صديق: انه ابن عضو بارز في الحزب الوطني الاتحادي وهذه العضوية تكسبه عداوة تقليدية لوالد صديق. محمد هذا يشتغل بالسياسة ويدافع عن القيم الوطنية ضد الاستعمار ومشاريعه وضد حكومته الرجعية . ويقبض عليه وهو يلقى محاضرة ويسجن مرات ويفصل من عمله المرة تلو المرة لاشتغاله بالسياسة . وها هو يبيع جريدة الميدان في الطرقات . فاذا ما ساله صديق عن مستقبله اجابه « ان مستقبلي مضمون لانني اصنعه بيدي » ولا يفهم صديق شيئا ويقول « اخاف ان اراك مشردا » فيجيب محمد « ان شعبنا كله مشرد »

وعزة اخت محمد تجد فرصا للتنفس الصحي اكثر من زينب اخت صديق التي تحاط من اعلى باب قاس مغلق النفس رجعي التفكير ومن الجانبين بمبارك الجلف الذي لا يعترف في البيت باحد غير نفسه ويؤكد سيادته ، وبصديق الذي لا يقرأ الصحف ويخجل من دخول السينما ويهرب من سماع المحاضرات ويجعل من اخته مركزا لكل اسقاطاته النفسية واستعراضا لبطولته وحزمه . فان لجأت زينب الى امها لم تجد فيها إلا راسا خربا تعشعش فيه الاساطير وعناكب الاسياد وسيادة الاولياء.

ولنقدم قطاعا من حياة عزة المختلفة تماما ، نغوص في افكار صديق حين نراه يفكر فيها « ولكن عزة تعيش في منزل غريب . ان والدها عضو متطرف في الحزب الوطني الاتحادي . وشقيقها محمد يملأ المنزل بالكتب التي اغرم بها الشبان في هذه الايام . الكتب السياسية . بل ان الغريب في الموضوع حقا ان اخاها الصغير يوسف بدأ يعكس الاشياء التي تدور في منزلهم . انه يعرف الوطني الاتحادي ويحب الجبهة ويكره حزب الامة والامريكان كما قال . عزة تعيش في هذا البيت العجيب. لا شك انها ايضا تعتقد انني رجعي . فهي تذهب للاتحاد النسائي وليس بغريب ان اراها يوما تكتب في الصحف وتلقى الاحاديث في ندوات الاتحاد النسائي . كيف يكون موقفي لو حدث هذا وهو ليس بمستبعد على عزة شقيقة محمد »

وتضيق الحلقة على زينب اكثر فاكثر حين يصر والدها على تزويجها من رجل لا تحبه . ولكن اصرار الوالد ليس شرا كله بل ان خيره اكثر من شره فقد كان اكبر ضربة تتناثر تحت وقعها الافكار الجامدة التي تعيش في راس اخيها صديق ، فها هو يفكر ويحدث نفسه في حيرته « ترى كيف تقابل زينب هذا النبا ؟ هل تتزوج رجلا قصيرا ممتلئا متساوي الطول والعرض . يتحرك في الشارع كأنه يتدحرج كالكرة . الانه يملك الثمن؟ هل اصبحت اختي سلعة ؟ »

وصديق لم يكن مخطئا فقد احبت اخته زينب كأعمق ما يكون الحب. ولكن الحب في مجتمعاتنا مثل نهر النيل التقاليد كما يحجب الطمي قاع النهر مهما بعد .

وتتراكم مساوىء حزب الامة بارتباطه المتزايد مع الاستعمار ضد رغبات الشعب . ويرى الحاج مصطفى هذه التراكمات كما يرى قطرات المطر وهي تتحول الى سيول جارفة تملأ الطرقات وتعمق الاخوار والاخاريد . ولكن كل اصدقائه من حزب الامة وكل خصومه من الاحزاب الاخرى فكيف يترك الاصدقاء الى الخصوم ؟ الا يجوز ان يتركه الاصدقاء ويشمت به الخصوم ؟ « وهكذا ظل في الايام الاخيرة ينتمي لحزب الامة . رغم انه في داخله غير مقتنع ... »

ولكن ترك حزب الامة لم يشمت فيه احدا . انه بمنزله يستقبل الان والد محمد بعد ان استقبل السجن ابنيهما . ويسمعة يقول وهو يحرك عمامته في غبطة « اعتقد ان القبض على محمد كان نتيجة لملازمته لابني صديق . لأن حزب الامة اراد ان ينتقم مني ، فلفقوا له هذه التهمة ».

وهو يسمع من والد محمد حديثا عجيبا « الحقيقة يا حاج مصطفى اني كنت اعتقد ان الاولاد بطيشهم يتعرضون للقبض والسجن ولكني الان ادركت ان الحكومة هي التي تفعل ذلك نكاية بهم بلا مبررات . تصور يا حاج مصطفى ان محمدا وصديقا كانا يحملان ورقة يطلبان التوقيع عليها، والورقة مكتوب فيها رجاء بوقف التجارب الذرية ؟ وكل الناس في السوق وقعوا عليها ، وانا نفسي وقعت عليها . لا ادري لماذا يقبض عليهم ويحقق معهم البوليس ؟ »

وتمر لحظات حلوة وقاسية في نفس الوقت بين الوالدين . لحظة فيها فرحة اللقاء والم فقد الابناء. وتاتي الاخبار ان محمدا وصديقا سيطلق سراحهما بعد ساعتين . ويدخل محمد الى بيته ويطمئن امه بان البوليس قد اشتبه في اشياء لم يجد لها نصيبا من الصحة . وعندئذ اطلق سراحهما معتذرا .

ويدخل صديق البيت خائفا منتظرا ثورة والده ولكن اشياء كثيرة قد تغيرت الان تماما . ان الوالد يستقبله مبتسما . انه يرى شيئا لا يفهمه لانه لم يعش في اعماق ابيه ليرى التراكمات الكمية كيف تنفلق عن شيء جديد تماما .

وتاتي اللحظة التي يعود فيها صديق الى مدرسته بوادي سيدنا بعد اجازته . انه اصبح شخصا جديدا فهو لا يختلس النظر الى عزة في غفلة من امها . كيف اكتسب كل هذه الشخصية ، وهو الذي كان يضطرب ويتلعثم عند رؤيتها ؟ من اين تدفق فيه كل هذا النشاط وهذه الحيوية ؟ . ويقف صديقا مستاذنا وياخذ حقيبته ويمسك يد الوالدة ويهزها في لطف مودعا . وياخذ يد عزة ويهزها ويضغط عليها بعض الشيء وكانه يعاهدها بذلك على شيء. ويخرج

وزينب خطبت الى محمد بعد ان استطاعت ان تحول والدها عن اصراره على تزويجها من ذلك الذي اراد ان يشتريها بماله وتجارته وجاهه .

ان القصة تنمو مع نمو الوعي الشعبي في السودان ، والوعي السياسي ليس شيئا معزولا عن كل جوانب الحياة . انه النار التي تحرق كل عفن المجتمع والاغلال . ان الانتصار السياسي والوطني ينعكس في سلوك الناس ومعاشهم ، انه ينقي الشباب من العادة والشذوذ والوهم ويحطم السدود بين قوى الشعب .

كل خطوة الى الامام في طريق انتصار الشعب هي جسر جديد نحو الشرف والفضيلة .

فهل اجابت القصة على السؤال القديم ؟. ان « نعم » تسبق واجبي في ان اترك الاجابة للقاريء الكريم .

القاهرة — ابراهيم شعراوي



يقولون عني اني شاب لا باس به . وانا شغيل نشيط ... منحتني مؤسستنا شهادات شرف عديدة ، وابدت لي في كثير من المناسبات شعورها بالامتنان ، وقدمتني مثالا للاخرين .

ولكن يخيل الي اني استطيع ان اؤدي اشياء اكثر اهمية لولا ولعي المؤسف ... بل علتي .

اني لست سكيرا ولا مقامرا متحمسا ولا اخدع زوجتي . قصتي ليست على هذا الشكل ...

اني احب كثيرا ان اخاطب الجماهير ... والشيء الغريب اني في الاجتماعات المتعلقة بشئوون العمل ، حيث اصبح من اليسير التحدث بكل بساطة ، الزم الصمت عادة ، او اني اتقدم باقتراحات ساذجة . ولكن مثل هذه الاجتماعات لا تطيب لي .

اني احب التكلم في الاجتماعات الرسمية حيث يكون هنالك مكتب رئاسة ، ومنبر للخطباء ، واناء ماء ، وطاولة للمختزلين وحيث مئات الاذان والعيون البشرية . .

وقبل ذهابي الى هذه الاجتماعات تراني شديد الاضطراب ، اسير في غرفتي ، من زاوية الى اخرى ، معدا خطابي .

عم اتحدث ؟ عن هذا ؟.. او عن ذاك ؟ ويحدث لي ان ليس لدي شيء اقوله .

غير ان ذلك لا يمنعني من كتابة خطابات طويلة .

عندها تقترب زوجتي التي تعرفني جيدا فترسل الي نظرات راجية وتقول :

ـ ارجوك يا عزيزي لا تتكلم ... فكر قليلا باولادك .

ـ دعيني وشاني ، وتخلي عن هذه التصرفات البورجوازية الصغيرة ...

ـ اذا كنت مصرا ، الى هذا الحد ، على الخطابة ، فاسمعني ما ستقوله وها انا ساوقظ « كلافا » و « ميتنكا » اللذين سيستمعان اليك بكل سرور ، كما يمكنني دعوة الجيران .

ـ احسنت ، بل ادعي ايضا العمة « زينة » ، وعندئذ يكتمل نصاب العائلة .

وتحول الجدال الى خصام ... ذلك ان « كلافا » و ميتنكا » ، اخذا يبكيان ، بعد ان ايقظتهما امهما . وقالت زوجتي انما ارتكبت في حياتها غلطة قاصية ، واأسفاه ... غلطة لا تعوض .

وانسللت الى الاجتماع كئيبا . واخذت مكانا لي في المقاعد الامامية . وابتدات المناقشات ... ورن جرس الرئيس كالنداء ... والماء في الاناء يبعث الي باشعته الجذابة . وتتالى الخطباء ـ رفاقي ـ على المنبر يتحدثون ببراعة وذكاء ، مستعملين جملا سهلة ، لا تكلف فيها حتى تخيلت ان بوسعي التحدث مثلهم ، فاخذت اشعر بانزعاج في جلوسي على الكرسي .

كان عقلي ينصحني بالهدوء وعدم التكلم ..

وحدث اثناء هذه الفترة الخطرة بالذات ان سأل الرئيس :

ـ من منكم ايضا يريد ان يدلي برأيه ؟

واذا بي ، بلا وعي ، اصرخ بصوت مترجرج غير واضح :

ـ اني اطلب الكلام !

فاعلن الرئيس عن اسمي .

وسرت في القاعة حركة خفيفة غير مالوفة . وصعدت الى المنبر كمن يسير في الضباب ، والقيت نظرة شاملة على الحاضرين ... ولدى مشاهدتي « الميكروفون » نسيت القليل الذي كنت اريد ان اقوله .

ونظرت الى الحضور وابتسمت ابتسامة مصطنعة ، وحاولت الظهور بمظهر الذي يجمع افكاره . ولكن الحيلة لم تنطل على احد .... بدا تبادل النظرات والهمسات . وها هو « ساؤسوف » ، الاديب المعروف ، ينحني نحو « زينوتشكا » ، التي تعمل في المحاسبة ، هامسا .. فتقهقه « زينوتشكا » وترمقني بنظرات اشفاق .

ولما عدت لمراجعة ملاحظاتي ، والعرق البارد يغرقني ، لم افهم منها حرفا ... فخطي عادة لا يقرأ ... ثم اني كتبت ملاحظاتي بسرعة وباختصار . ولما لم يكن لدي متسع من الوقت لاحل رموزها الهيروغليفة ، فقد فتحت فمي بكل شجاعة وبدات اتكلم على امل ان تخجل افكاري التي رحلت فتعود الي . وقلت وانا انظر نظرة خاطفة الى كاتبة الاختزال :

ـ اود ان اقول ... بل اود لو اقول ، اود القاء بضع كلمات .... او حتى اذا شئتم ، ان الفظ ، وباختصار ، بكلمة كما بمائة ، ان اعبر عن فكرتي . وعم اعبر ؟؟

وتوقفت وقفة ذات معان . غير ان الافكار الشاردة لم تعد ابدا ، فتابعت :

ـ اني اريد ان الفت انتباهكم ، او بالاحرى تركيز انتباهكم . واذا شئتم ، فاني اود ان لا اركز انتباهكم ... بل باختصار ، وبكلمة كما بمائة ، اريد ان اشير الى..اريد ان اشير ؟!

وتوقفت من جديد . ان الافكار ما زالت تهرب مني . ونظرت الى كاتبة الاختزال برعب موجع .. كم انا ابغضها في هذه الدقيقة! لا ! ليست لي عليها بالطبع اية ملامة ... ولكن ما عساها تكتب دون توقف ؟.

ثم ... واذا بفكرة صغيرة لا قيمة لها ، صغيرة جدا ، تنبعت من احلك خبايا ذاكرتي . فالقيت بها فورا في ((فخ)) خطابي .

وفيما انا ضائع بين ((ان)) و((لكي)) و((الان)) و((لما ان)) و((من اجل ان)) و((نظرا لان)) شعرت، بخوف عميق،اني عاجزعن‌تركيب‌جملة.. في‌حين كنت اغوص ، اكثر فاكثر ، في ((لما ان)) و ((من اجل ان))

وكان الضحك على اشده في القاعة .

وقال ((ساؤسوف)) لـ ((زينوتشكا)) بصوت عال :

ــ لا ، ليس هذا هو ((ديموستين !

وفي نهاية كلمتي ، تضاربت في ذاكرتي فكرتان صغيرتان . ولكن ، يا له من صيد هزيل!

واخذت اخيرا اتخبط كالانسان المتأكد من الغرق وقلت :

ــ اسمحوا لي ، ههنا ، ان اختتم كلمتي !

((سمحوا)) لي بطيبة قلب .. فسرت الى القاعة كالحجرة، يرافقني بعض التصفيق الساخر ... وعدت الى احتلال مقعدي وانا احاول عدم التطلع الى جيراني . وشعرت ، واذناي تلتهبان ، وقلبي يخفق ، باني بالغ الحزن .

ولست ادري الى اي حد كاد يذهب بي هذا الطموح ، لولا اهتمام رفاقي بي ، ومنهم على الاخص ((ساؤسوف)) .

فقد دعاني ((ساؤسوف)) مرة الى داره ، وكان هناك جمع غفير . وكنا جميعا من الاصدقاء نعمل في مصنع واحد ... وكنا نستمع الى الموسيقى.

قال ((ساؤسوف)) وهو يقلب الاسطوانة :

ــ والان ستستمعون الى ((المونولوج)) : الخطيب .

واخذت الاسطوانة تدور والكل يضحك . وكان الضحك شديدا الى درجة اني لم اتوصل الا الى فهم بعض الكلمات ، من هنا ، ومن هناك خرجت من فم الخطيب . ولم اكن لاستطيع ان اميز ما يقوله ، بل فهمت انه كان في حين واحد ، تارة ((مع)) وطورا ((ضد))

فشاركت الاخرين ضحكهم !

وعند انتهاء الاسطوانة قلت :

ــ لقد نجحتم تماما في تسجيل هذا ((المونولوج)) ... ان عندنا حقا خطباء من هذا الطراز ! ولكن هذا الصوت ... اعرفه ...

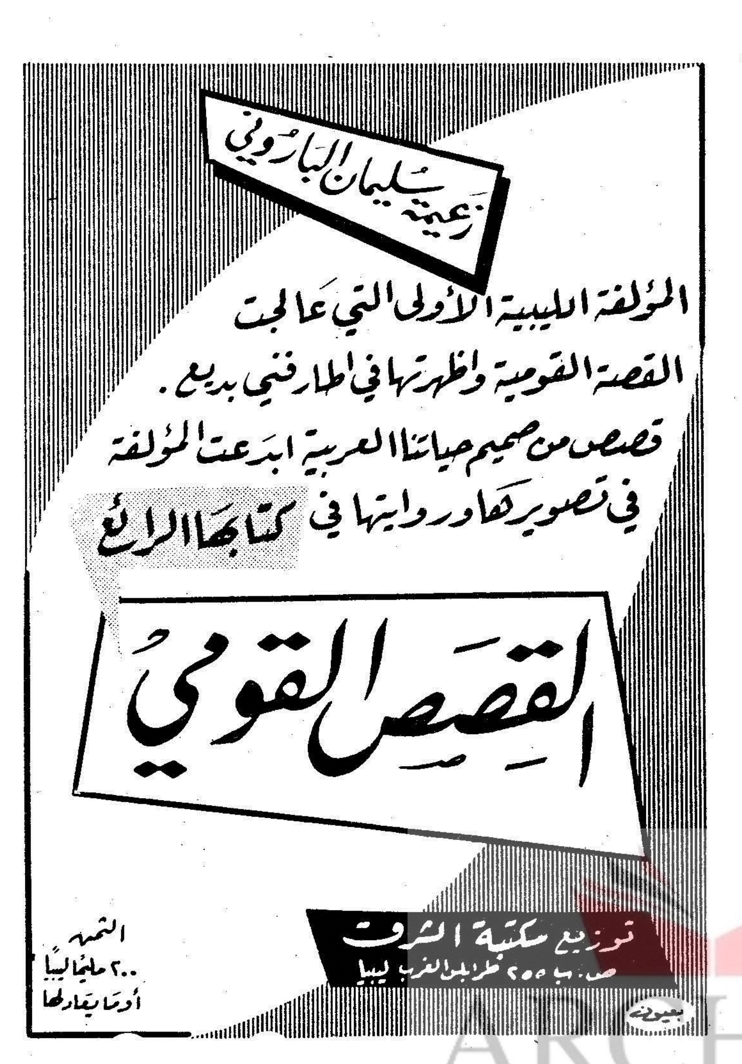
فقاطعني ((ساؤسوف)) بقوله :

ــ بل هو صوتك ! هل تذكر ((الميكروفون)) ؟ ففي ذلك اليوم سجلنا خطابك للاجيال القادمة .

ومنذ ذلك الوقت ، عندما احضر اجتماعا واشعر ((بالحاجة الماسة الى التكلم)) ، واكاد ارفع يدي مطالبا بالكلام ، اتذكر اسطوانتي واقول للرئيس : ((لا تعر حركتي انتباهك .. فذلك من مزاجي العصبي)) .. ثم اخرج الى الردهة لاشعل سيجارة .

ترجمة نقولا طويل

(عن مجلة ((الادب السوفياتي))



البطولة منذ سقوط بغداد حتى النهضة

- تتمة المنشور على الصفحة ٤٨ -

الشعر الذي يرنو الى المثل العليا ، وترتسم عليه بعض سمات البطولات العربية .. فأما الذين جاءوا بعده فد لفتهم نزعة العزلة التي آثرتها الروح العربية لمكان القيادة .

***

ومن هنا ايها السادة يعسر علينا العسر كله ان نتلمس معاني البطولة اية بطولة ، في الادب في هذا العصر .. وكلما مضينا مبعدين فيه شق علينا الامر .. قد نعثر على البيت او المقطوعة او الشاعر في لمحة خاطفة من لمحات الاشراق المفاجيء .. ولكننا لا نلمح الثروة الشعرية الكاملة لان الروح التي كانت تمدها آثرت الانكماش .

وكذلك ترون ايها السادة اننا نستطيع ان نلتمس البطولة كما كنـا نلتمسها في العصور الاولى ، عصور الدعوة والانطلاق والامويين والعباسيين - من الادب اعني من الشعر والنثر ، وكما سنلتمسها بعد في عصور النهضة .. واننا ان نفعل ذلك فلن نجد شيئا .. سنقرأ كثيرا مـن الدواوين ، ونعرض عديدا من الشعراء ، وتطالعنا القصيدة بعد القصيدة . ولكنا لن نجد في كل القصائد التي نقرأها والشعراء الذين نتعرف اليهم ، والدواوين التي نعرضها ما نحب ان نقع عليه .. لن ينبض شعر هؤلاء الناس نبضة الحياة العميقة ، ولن يتحدث عن مواجد الارواح الذكيـة القلقة وتطلعاتها واهتماماتها البطولية .. ان الحرف الذي صيغ به هذا الشاعر عربي لم يتنازل عن عربيته في ذلك وان كان افسح للحرف التركي والفارسي مجالا كبيرا .. ولكنه حين تمسك بالحرف العربي لم يقبس معه شعلة هذا الحرف ولا وهجه ولا مرتكزه النفسي العميق الذي يقوم عليه ، ولا آفاقه البعيدة التي يفتحها .. لكأن الحرف العربي في هذا الشعر اصابه شيء من عمى ، فاضحى وقد سدت عليه منافذ الوجود .. ولكأن الشعر الذي صيغ منه جاء كذلك مقفلا صامتا ليست له المطلات الواسعة ، وتختبره تصغي اليه فلا تسمع له لا وسوسة ولا جلجلة ولا تحس له لذع الوهج او نشوة الدفء .

وقد قرات كثيرا من الشعر في هذه الفترة وفاء لشرف هذا الموقف فكان اكثر ما وجدت الغزل . كانت كثرته بالغة .. وكان الى جانبه الاحاجي والتهنئة بالاعياد والختان ، والاخوانيات التي تتشرب المعاني الانسانيـة الشاملة ولا تتفتح عليها .. ولم يكن في كل هذا الغزل الذي قرأتـه ماجنا او متعففا ما يصح ان نقف عنده .. وكنت اقرا فاجد ظلالا باهتة من شعر المتقدمين .. بل لعل الذي وجدته لا يعدو ان يكون اطلالا خربة للغزل الرائع الذي نعرفه في عصورنا الاولى والذي حاول ان يسبر غور النفس ، وان يتعمق دناها وان ينفذ الى سرائر الهوى ومسارب الحب .

بل كان اكثر الذي قرأته معادا مكرورا في كثير من التشويه .. وكنت اشعر كأنما امضي في ارض قاحلة ترتع فيها بعض النباتات الشائكة لها اسم النبات ولها شكله ولكن لها منه خيره الذي ينفع انما هو شوكه الذي يؤذي ، واكثر من هذا ان هذا الغزل الجاف لم يحجب معاني البطولة ولم يستهلك قوى الجماعة الفنية واهتماماتها النفسية فحسب .. ولم يكن من سيطرته انه غطى اكثر جوانب النفس الانسانية في ذلك وانما كان له الى جانب هذا عمل اخر .. ذلك انه امتص معاني البطولة وافسد شعاراتها - فيما نقول بلغة اليوم - انه استخدم الفاظها ليشوه مفاهيمها، او ليعطي هذه المفاهيم مضمونا معاكسا يثبته في القلوب والاذهان كالذي نلمح اليوم من الاحتماء ببعض المفاهيم والطمن عليها في آن واحد ، الاستتار وراءها وتمزيق اطرافها .. وكان من اثر ذلك ان القنا والرماح والسيوف والنصال وهي بعض مظاهر القوة وادوات البطولة لا تتبدى في هذا العصر في وصف الجيوش والمعارك وساحات الجهاد قدر ما تتبدى في وصف القدود والعيون والنظرات .. واي - ترد ابعد من هذا ان لا تقع على السيف ، سواء في واقع الجماعة او في عملها الفني ، حيث يجب ان يكون من اعناق الطغاة او الظلمه وانما تقع عليه في هذا الرمز الذي يفسد طبيعته ويفسد طبيعة الغزل في آن واحد ... وحين كان العربي فـي مكانه الطبيعي من الحياة السليمة كان يذكر هذه الاشياء في نطاق الغزل ولكنه لا يترك لهذا الغزل ان يمسخ حقيقتها ويفسد طبيعتها ولا يتيح له ان يمتصها وان يشوهها وان ينسي ضمائر الناس جوهرها الاول .. وانما كان العربي يذكر ذلك فيمترف هذا القرن الرائع النفسي «العميق» بين بريق السيوف وبين بريق الثغر حين تكون الرماح تنهل منه .. وتكون مهمة الغزل لا ان يفسد طبيعة البطولات وانما يكون من طبيعته ان ينمي هذه البطولات لانه يصقلها ، وان يكون خيال المحبوبة وجمالها هالة جديدة في هالات المعاني الانسانية العميقة تختط مثله الاعلى وتساعد علـى اجتلائه وصقله .. كان العربي الاول يقول ما قال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمـي
فوددت تقبيل السيوف لانهـا ... لمعت كبارق ثغـرك المتبسـم

اما الذي كان يقال في هذه الفترة فذلك مثل الذي يقوله شاعر اسمه يوسف المغربي (١) :

جعلوا الشعور على الخصور بنودا ... والرح ريقـا والشقيـق خدودا
جعلوا الصباح مباسما ثم الظـلا ... م ضفائـرا ثـم الرماح قـدودا
والورد خـدا والغصون معاطفا ... والشمس فرقـا والغزالة جيدا
ورات غصون البان ان قـدودهم ... فاقت فاضحت ركعـا وسـجودا

وكان من الحق ان لا اذكر لكم مثل هذا المثال حتى لا افسد عليكم نشوة الابيات الاولى .

ونحن في هذا لا ناخذ على هذا الشعر انصرافه الى الغزل ، فليس ذلك من غرضنا في شيء ، ولا نريد ان نحمل الادب معنى معينا فما ذلك من طبيعتنا في شيء ، ولكننا نريد الى القول ان هذا الغزل فقد صلته بالنفس الانسانية ، فلم يعد هذا الحنين وهذا الشوق في مواكب الروح المتفتحة للجمال او للحق ، او للجنه ، بل انه باعد ما بينه وبين الجمال الحق ، والحق والخير ، والخير الجميل .

وما يقال عن الغزل يقال كذلك عن كل الفنون الشعرية الاخرى ... اطلال ليس فيها رائحة اصحابها ، وظلال ممسوخة لا يرتسم مـن تموجاتها صورة نافذة ، ولا تدفع ايحاءاتها بالناس الى اعلى مـن المستوى الذي فيه يتمرغون .

وكذلك غابت ايها السادة معاني البطولة في العمل الفني من وجهتين اثنتين اولاهما ان واقع الجماعة نفسه لم يكن من الغنى النفسي بحيث يستطيع ان يتمثل اعمالا فنية قيمه .. والاخرى ان امال الجماعة نفسها لم تكن من التفتح ومن الازدهار ، بحيث تشحذ الالهام وتصقل المشاعر فيتولد

(١) ريحانه الالباء ٢٣٥

عنها هذا التوق الى عمل بطولي ، او هذا الرمز اليه ، او هذا التبشير به.

***

لن نقع على معاني البطولة اذن في الادب بمعناه الضيق الخاص ، أعني في الشعر والنثر .. ولكني قلت لكم في مطلع الحديث أن معاني البطولة في هذه الفترة تتمثل في المقاومة ، تتبدى في التأبي .. تحاول ان تتلامح مع كلمة « لا » حيث يجب ان تقال « لا » .. فمن أين استقينا معاني البطولة هذه؟..أين نقع عليها اذا لم نقع عليها في الشعر والنثر؟

لنخرج أيها السادة من نطاق الادب بمعناه الضيق من حيث هو شعر ونثر ،فقد عجز الشعر والنثر عن ذلك لم يسعفه الواقع ولم تسعفه الاماني، ولنلتمس بطولة هذه الفترة من تاريخنا في الادب بمعناه العام .. وما اسرع ما نقع عليها .. ما اسرع ما تبدو لاعيننا وتملأ قلوبنا روعة في سيرة كثير من العلماء في ذلك الحين في اسلوب حياتهم من نحو وفي عملهم العلمي من نحو اخر .

والاتصال بحياة هؤلاء العلماء الذين سكبوا نور عيونهم ليوقدوا به شعلة المعرفة ، وليحفظوا عليها ألقها والتعرف اليهم هؤلاء الذين حفظوا قيم الجماعة العليا واحتفظوا بمثلها حية نابضة ليسلموها بعد لاجيال النهضة .. هو الذي يكشف لنا عن صور البطولة . ففي سيرتهم تتمثل معانيها ، وما كانت حياتهم الا تجسيدا للمثل الاعلى الذي رسمت الحركة العربية مع الرسول الكريم ابعد ذراه .

واذا كان الشعر تبدى لنا ، ونحن ننبش هذا التراث ، كالنبعة الجافة يشير مجراها الى ماضيها الثر على حين يلهث الحصا فيها من ظمأ ، ويتحرق التراب من جوع .. فان النبع في الحق لم يجف وان كان كذلك بدا لنا .. انه غاض هنا على السنة الشعراء والناثرين ، ولكنما انبجس هناك في سيرة العلماء والمصلحين .. انه تخلى عن ثوبه الفني ليتبدى في ثوبه الواقعي في سلوك هؤلاء الذين سنشير اليهم في صرامة هذا السلوك – وفي مواقفهم في اصالة هذه المواقف ونبلها ، وفي حوادث حياتهم في ارتفاع هذه الحوادث عن المستوى النازل الذي كانت تتردى فيه الحياه.. وكيف يجف النبع ومن ورائه هذا الرصيد الفخم ، من ورائه يمده سبعة ابحر ، وسبعة قرون ، من الحركة والفكرة ومن الدعوة والجهد ، ومن التنمية والتنشئة ، ومن الثقافة والعلم ، ومن الحياة والغنى .. ان اوسع المغول ، مغول كل عصر ، ان يهدموا طاقا او قصرا او جسرا ، ولكنهم لا يملكون ان يهدموا القدرة المستكنة على ابداع شيء مماثل .. بل لعلهم يتيحون للذهن الانساني الحر ان يجدد في بنائه وان يتخلص من بعض عيوبه .. انهم يستطيعون ان يحرقوا الكتب ، ولكنهم لا يطفئون الاذهان ، وقد تختل الذاكرة الفردية ، ولكن ذاكرة الجماعة لا يمكن ان تختل او تموت .. والذين ازعجوا العربي عن مكانته ، وتنزلوا منزلته انما اتاحوا له فترة من استجمام يستطيع معها ان يجمع نفسه، وان يرمم قواه لينطلق بعد انطلاقته الجديدة ، وان يبدأ حركة الحفاظ والمقاومة من هذين القطرين المتجاورين المتكاملين في كل مراحل التاريخ ، من الشام ومصر على السواء .

وحين ناخذ انفسنا بدراسة سيرة هؤلاء العلماء في هذه العصور تتمثل لنا مظاهر البطولة في ناحيتين اثنتين :

١ – اولاهما في العمل العلمي الذي التزموه.

٢ – والاخرى في الخلق العلمي الذي احتذوه .

ومن تجاور العلم والعمل ، الخلق والخلق كان نسيج البطولة التي رعاها هؤلاء العلماء .

١ – اما عن العمل العلمي فما احسب ان الوقت يتسع لاحدثكم عنه.. حسبي ان اذكركم بهذه الافكار الشائعة التي تعرفونها من ان عمل العلماء في هذا العصر كان استحياء لهذا التراث الذي دمره التتار في تحريق بخارى وتفريق بغداد،او الذي انصرف عنه من جاء بعدهم.. كانت الموسوعات في كل جوانب المعرفة هي تجسيد هذا التراث ،من جديد ، صيانته، وتقريبه ، والحيلولة بينه وبين ان يمتد اليه الضياع .. وبذل العلماء في مصر والشام وفي غير مصر والشام في هذا السبيل من الجهد ما يبعث على الاعجاب حقا .. كان معنى الحفاظ في الحياة العلمية هو الذي يملأ اذهان هؤلاء الاعلام .. والحفاظ اول مراحل المقاومة ، وكان لهذا الحفاظ معناه الحضاري العميق ، فاقبلوا عليه : جمعوا ودونوا وانشأوا هذه المؤلفات الفخمة انشاء جديدا في تصنيفه وتبويبه .

ولكني لن اترك هذا الحديث الذي تعرفونه عن الحفاظ العلمي قبل ان اشير الى جانب هام منه يلفت النظر طيلة هذه الفترة من سقوط بغداد حتى عصر النهضة ..وذلك ان الحفاظ اولى صفاء اللغة اعظم اهتمامه .. والعجيب انه رغم كل الامواج الهادرة الطارئة على الحياة العربية ، ورغم كل العناصر الدخيله التي لم يقدر لها ان تعربت كما تعربت العناصر الغريبة في العصور الاولى .. فان عددا كبيرا من المؤلفات في الغريب والدخيل يعود الى هذه الفترة ، وعددا كبيرا من المعاجم والمراجع اللغوية انما هو ابن هذه العصور .. لكانما استيقظ في اعماق الجماعة آنذاك ان الصفاء اللغوي هو اول معاني الوجود المتميز .. وان هذه اللغة التي وعت ثقافة الذهن البشري كله ، انما هي احدى النقاط الرئيسية للانطلاق نحو شوط جديد في الطريق الانساني الرحب .. وان كل حركة مقاومة للضغط او استعلاء على الواقع السيء يجب ان يكون لها جذورها العميقة في روح الجماعة وما من شيء اخر يغذي هذه الروح ويثير عندها ابعد آمالها وارفع مثلها ويجمع حولها الاغراض والاهداف كاللغة .. يحمل كل حرف منها حيث وجد من كل كلمة شحنة ضخمة من فكر وعاطفة ومثل .

ولست لاعدد لكم هذه الكتب اللغوية ولا العناية التي بذلت فيها حرصا على الصفاء اللغوي .. ولا ما كان من اثرها البعيد في ربط حلقات هذه السلسلة من تاريخنا ، بل ومن وجودنا .

٢ – هذا عن العمل العلمي . اما عن الخلق والسلوك في حياة هؤلاء العلماء والافاق الرفيعة التي كانوا يمتطونها الى غاياتهم فذلك الذي اريد ان اقف بكم عنده ... لانه هو الذي يمثل ، في صفاء الق الشمس ووضوحه استمرار تقاليد البطولة في تاريخنا الطويل .. ولن استطيع ان اقول كل الذي اريده ، انما احب ان اسمي لكم ثلاثة او اربعة من ابرز من عرفنا من رجالنا في هذه الفترة او قريبا منها العز ابن عبد السلام « ٥٧٧ – ٦٦٠ » والنووي « ٦٣١ – ٦٧٦ » وابن تيميه « ٦٦١ – ٧٢٨ » وتلميذه بعده ابن القيم « ٦٩١ – ٧٥١ » واخرون كثيرون .

والحق اننا حين نعرف حياة هؤلاء الاعلام يروعنا منهم في ضباب هذه الاحداث السود ، هذا الضباب الكثيف الواطيء الذي يكاد يلامس الارض ويغطي الطريق على السالكين – يروعنا منهم هذه الشخصية المتوثبة المتفجرة التي استطاعت بقوتها وصلابتها ان تعدى كل شيء حولها ، وان تحيل ضعفه الى قوة ، وتخاذله الى نصرة وتفرقه الى وحدة ، ومعاني الانسانية المنكسرة فيه الى مثل صورها السليمة الاولى .

ولم يكن هؤلاء الاعلام يستمدون ذلك من جاه موقت او سلطان زائف .. لم تكن لهم اصول عريقة ولم يحملوا على اكتافهم شجرة انساب .. وما

احتموا قط بما يحتمي به الناس : ظل امير ، او نفوذ متسلط ، وانما نسخوا ظلال الامراء المبطلين وكشفوا زيف وجود السلطان الضال .. وقالوا على مسمع الدنيا كلها : هذا لن يكون ، فلما لم يستجب لهم السلطان طوعا استجاب لهم كرها .

قيمة هؤلاء الاعلام ايها السادة في هذا السلوك المتفرد الفذ انهم جسدوا اولا معاني البطولة التي اوشك ان يأتي عليها الزمن ، وان تدفنها الاحداث بايديها التي تقطر منها الدماء .. وانهم احيوا في نفوس العامة ، نفوس الجماهير،من اقصى الارض الىاقصاها ايمانها العميق بان السيطرة ليست للرغبات الضالة ولا للاهواء المنحرفة ، وانما هي : هذه السيطرة الحكيمة العادلة — لله وحده .. فاستردت هذه الجماهير ايمانها ، ولمعت لاعينها دائما من خلال هذا الايمان صور المستقبل المزدهر صورة للبيع الذي تبشر به الطيور الصغيرة من خلال الضباب والسحاب والمطر المتساقط.

وقيمة هؤلاء الاعلام انهم زرعوا الخوف في نفوس الظالمين .. وليس شيء يهدم الظلم مثل ان يداخله الخوف ..

وقيمتهم كذلك انهم صححوا الطريق للمجتمع الهائم كله آنذاك ..ادركوا بداية الانحراف منذ فقد الناس ثقتهمبعدالتهم ، فارتدوا بهم الى بداية الطريق .. عرفوهم انفسهم وعرفوهم ربهم ، وقالوا لهم هذه سنن الله سنن الكون في الخلق ، فليس لكم بعدها ان تهابوا او تجزعوا ... فاذا هذا التحديد الرائع البسيط يؤتي ثمرته بعد حين في حركات الاصلاح التي تتالت بعد ذلك اول عصور النهضة .

كذلك كان من قيمة هؤلاء ايها السادة انهم كانوا في سلوكهم تعبيرا حيا عن دعوتهم .. انهملم يقولوا للناس قاتلوا ونحن هنا قاعدون ، وانما قاتلوا معهم .. ولم ينهوهم عن الاثم وهم غارقون في الاثم ... ولم يدفعوهم في حيث لم يندفعوا هم قبلهم .. ان سلوكهم كان كالشراب المصفى لا تلمح فيه قذى .. كان كصفاء العين ، القذاة — الصغيرة تفسد عليها الرؤية الصحيحة وتبعث فيها الدموع وتحيلها الى عطاله ، لا ترى ، ولا يرى الناس منها الا الجفن الغليظ الاحمر .

من كل هذا ندرك كيف كان هؤلاء الاعلام يحملون معاني البطولة : بطولة الرأي والفكر ، وبطولة الخلق والسلوك في هذه الفترة ، وكيف حفظوا الشعلة المقدسة التي اوقدتها الجزيرة وارادت الظلمات ان تطفئها ... ان معاني البطولة وسمات المثل الاعلى انما بدت في هذه النماذج الفريدة من الناس .. وقد كنت اتمنى ان اسوق لكم بعض التفاصيل الاخرى من حياتهم .. ولكني ان جانبتها فلن اجانب الاشارة الى ناحية اصيلة اولاها هؤلاء الاعلام اكبر اهتمامهم وتلك هي حسن تمثلهم للعقيدة وحفاظهم على صفائها من كل زيغ طاريء او شبهة دخيلة .

وكما كان الصفاء اللغوي غاية هؤلاء العلماء في عملهم العلمي .. كذلك كان الصفاء في العقائد والمثل الاعلى في السلوك غاية هؤلاء العلماء في اتجاههم الخلقي . هناك حاربوا الدخيل اللغوي وهنا حاربوا الباطل العقدي.. والسياج الذي اقاموه حماية للغة اقاموا مثله حماية للعقيدة .. والفوا هناك في الدخيل والاصيل والعربي والمعرب حتى يستوى للغة نقاؤها..والفوا هنا فيالبدعوالضلالات واسرار الباطنيةحتىيستويللعقيدة نقاؤها ... هناك حكموا على اللفظة الدخيلة والغريبة والضعيفة فاستبعدوها او افترضوا وجوب استبعادها من اذهانهم والسنتهم ... وهنا حكموا على الزيغ والانحراف والتلفيق واختلاف الباطن والظاهر وعرضوا روح الانسان صافية بسيطة حتى يكون سلوكه كذلك صافيا بسيطا .. وهناك آمنوا بان اللغة خيط الاستمرار لانها تحمل الماضي كله لتتفتح عن المستقبل كله ، كذلك آمنوا هنا بان العقيدة هي خط السير وهي العاصم لهذا الخط ان ينحرف ، فلا تتردى هذه الجماعة من جديد في حمأة الضعف ورذيلة الانحطاط .

وما اشد ما يتشابه الموقفان : في العمل العلمي وفي السلوك الخلقي.. في الحفاظ اللغوي المر وفي الحفاظ على الخلق الصلب الوعر .. وكيف لا يتشابهان ؟.. اليسا نبعة واحدة عن المثل الاعلى الذي رفعه هؤلاء الاعلام ؟.

ايها السادة :

لقد قلت من قبل ان المقاومة والحفاظ والتأبي هي صور البطولة في هذه الفترة البطولية في اتجاهها العلمي والسلوكي .. ولم نستطع ان نلتمس هذه الصور عند الشعراء وانما وجدناها عند العلماء.. فقد كان هؤلاء العلماء الذين منحوا البطولة وجودها في هذه القرون بين سقوط بغداد وبين النهضة كالواحات : تجدد عزم الراكب وترد اليه امله بعد يأس .. بل انهم في بعض اللحظات بدوا لي وانا اعد هذا البحث كما لو كانوا هذه الجزر الناتئة في هذا المحيط المظلم الذي يفصل بين دخول المغول بغداد ، وبين تفتح الذهن العربي والنفس العربية في القرن التاسع عشر .. كانت جزر صغيرة ولكن العين لا تخطئها على سعة هذا الخضم الهائل .. لانها كانت تتحدى في وجودها المستقل المتميز معاني الطغيان في هذا الخضم الهائل .. كانت كانما ترفع رأسها في وجه الاعصار .. تفرح بالجزر ولكنها لا تخشى المد لانها حين ينحسر عنها ، تخرج دائما مصهورة نقية .. ان وجود هذه الجزر الصغيرة فوق اليم الطامي هو الذي زيف وجود هذا اليم لانه مكن من اقامة الجسور فوقها لتنطلق عليها القافلة التي استيقظت لتدخل التاريخ مرة اخرى .. ان قيمة هذه الجزر قوتها ، من قوة الاسس التي ترتكز عليها وعمقها .. انها قد تكون صغيرة ضيقة ولكن كل ارض القاع مرتكزها.. انها كانت كالذروة التيتنبيء عن الكتلة الضخمة التي هي نهاية لها .. وقد تمثلت هذه النهاية في صفاء السلوك وفي صفاء المعتقد وفي صفاء اللغة .. واحسب ان هذه يجب ان تكون مرتكزنا نحن الجديد .

ان غرض هذه الابحاث ليس بالغرض النظري .. انها ليست عرضا لصور البطولة من حيث هو عرض بمقدار ما هي محاولة لاستخلاص المثل الاعلى على فترات التاريخ العربي.. لا اقول لصياغة المثل الاعلى ... فما يصاغ هذا المثل ، وانما هو ينطلق كشعاع دافق ممتد بين يدي الجماعة في طريق سيرها .. ونحن انما نعمل ونسافر ونكتب لنطلق هذا المثل الاعلى بين يدي طريقنا الجديدة ، طريق الوحدة ..

ايها السادة

لعلنا فعلنا ذلك ....

شكري فيصل

كيف يتخلص البطل ؟

بقلم يوسف الشاروني

شغلني دائما ذلك النموذج الذي يصور الانسان خلال رحلته البشرية ، مكافحا من اجل الوصول الى هدفه ،مناضلا ضد ما يعترضه من عقبات ، بعضها يهدده وبعضها يغريه ، لتعوقه عن مواصلة رحلته ، وعن الاستمرار في التقدم نحو غايته .

ولا شك ان يوليس ، كما صوره هومير في القرن التاسع قبل الميلاد وفي الاوذيسا على وجه الخصوص ، هو النموذج الاغريقي لهذا البطل الذي أعنيه ، فهو يمثل انتصار الانسان على مختلف القوى ، وذلك اثناء عودته بعد انتهاء حروب طروادة التي اشترك فيها .. الى زوجته الجميلة بنيلوب ، وهي تنتظره مخلصة مع ابنها تايماك في وطنه اتيكا .

ويقدم لنا جون بنيان في القرن السابع عشر الميلادي في كتابه « سياحة الحاج » نموذج العصور الوسطى المسيحية ممثلة في شخص بطل القصة وقد اطلق عليه اسم « المسيحي » وهو انسان ترك مدينة الظلام بمن فيها حتى اولاده ليقوم برحلة طويلة في طريقه الى المدينة السماوية، وهو يلقى في رحلته الاهوال والمغريات ، كما لقيها يوليس، وهو ينتصر عليها واحدة بعد الاخرى.

وتقدم لنا قصة على الزيبق المصري بن حسن راس الغول ـ وهي التي الفت غالبا في عصر المماليك .. ووردت رواية صغيرة لها في الف ليلة وليلة الى جانب السيرة الطويلة الخاصة بها . (۱) اقول ان هذه القصة تقدم لنا النموذج المصري للبطل الذي اعنيه فهو يتغلب على ما يلقاه من عقبات ومغريات في سبيل الاستيلاء على الدرك ـ اي على رئاسة الشرطة ـ في مصر اولا ، ثم في دمشق ، حتى يصل الى منصب رئيس الدرك في بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية ايام هرون الرشيد كما ورد في السيرة ، يبغى من وراء ذلك نشر العدل بين الناس في زمن كان الاستبداد والظلم فيه سائدين .

وبدراستنا لهذه الاعمال الادبية الثلاثة ، نجد ان البطل يتخلص في كل منها بطريقة من ثلاث : اما بمساعدة قوى خارقة للطبيعة كالالهة « في الاوذيسا » او المعجز (في سياحة الحاج) او الجن « في على الزيبق » ، واما بالقوة الجسدية الهائلة التي يتصف بها البطل ،ويتفوق بها على من حوله من الحيوان او من الرجال سواء اكانوا قلة اشداء ام كثرة ، وفي هاتين الحالتين لا نشعر بتعاطف انساني مباشر مع البطل لان طرق التخلص هنا بمنأى عن قدارتنا الانسانية.

اما حين تواجه البطل قوى لا سبيل الى استخدام قوته الجسدية ازاءها ، ولا تجده في الوقت نفسه قوى خارقة للطبيعة ، فان البطل يصبح انسانا مثلنا وعليه ان يتصرف بخير طريقة يمكن ان يقدمها نموذجا لنا ، انه ما يزال تصرفا بطوليا ولكن في نطاق انساني ، اي في نطاقنا نحن .

وسنعرض اولا لثلاثة مواقف متشابهة في الاعمال الادبية الثلاثة التي ذكرتها ، لنرى كيف تخلص البطل في كل منها بدون معونة من قوة خارقة للطبيعة وبدون استخدام قوة جسدية متفوقة . اما هذه المواقف الثلاثة فهي : سجن يوليس في كهف السيكلويس،وسجن المسيحي في قلعة الشك وسجن على الزيبق في القلعة المرصودة « والمكان المرصود في ادبنا الشعبي هو المكان الذي تقوم عليه حراسة سحرية بحيث اذا اقترب منه شخص تعرض للخطر » .

فعندما دخل يوليس ورفاقه في كهف السيكلويس الجبار ذي العين الواحدة نجد انه كان قد حمل معه في السفينة خمرا معتقة لا يستطيع انسان ان يقاوم اغراءها. وقد طلب منه رفاقه ان يخرج قبل مجيء السيكلويس ،وان يكتفي باخذ بعض الجبن والخراف من الكهف الى السفينة ولكنه اصر على انتظاره لكي يطلب منه هدية . وعندما اتى السيكلويس وبدت قسوته واخذ يلتهم رجال يوليس زوجا زوجا فكر يوليس في قتله اثناء نومه ، ولكن السيكلويس كان يسد باب الكهف بحجر كبير لا تستطيع عشرون فرقة تحريك مثله مما كان معناه موت يوليس ورجاله بطريقة افظع . وعندما خرج السيكلويس في الصباح اعد يوليس عصا طويلة من جذع زيتونة وجده بالكهف ، وحين عاد السكلويس اغراه يوليس بان يحتسي مما معه من خمر . واثناء احتسائه الخمر سأله عن اسمه فقال يوليس ان اسمه : لا انسان .

حتى اذا ثمل السيكلويس دس يوليس ورفاقه العصا في الفحم المتقد الى ان احمرت وكادت تلتهب ثم اخرجوها من النار ،ودسوها في عين السيكلويس .

وصاح السيكلويس في اعماق الليل على رفاقه حتى ايقظهم وتجمعوا على باب الكهف يسألونه عما به فقال لهم ان لا انسان يقتله ، فاجابوه انه اذا لم يكن هناك انسان يقتله فانهم لا يستطيعون ان ينقذوه مما تفعله الالهة به . وهكذا تفرق رفاقه . ثم دحرج السيكليوس الحجر الكبير الذي كان يسد باب كهفه وجلس خارجه ليقتفي اثر

(۱) لهذه السيرة اكثر من طبعه وقد اعتمدنا على طبعة مكتبة صادر بيروت عام ۱۹۳۰

يوليس ورفاقه اذا هم حاولوا الخروج . وتحايل يوليس على ذلك بان ربط كل ثلاثة خراف معا ثم جعل احد رجاله يتعلق في اسفل الخروف الاوسط واطلق الخراف خارج الكهف ، فكانت كلما مرت بالسيكلوبس لم يجد أثرا لاعدائه. وهكذا تخلص يوليس من قبضة السيكلوبس ومن كهفه ، وواضح ان وسيلته في التخلص كانت في **استخدامه لعقله** .

اما في سياحة الحاج فاننا نجد المسيحي وصاحبه الراجي يقعان في قبضة الجبار « الميئس » ويسجنهما في قلعة الشك ، ثم يعذبهما كل ليلة بايحاء من زوجته « الموسة » وهما يستطيعان الخلاص اخيرا ،ولكن بغير طريق العقل ، « وقبل انشقاق الفجر بقليل تنبه المسيحي وقال : ويلي . لقد لبثنا هذه الايام في هذا السجن تحت هذه الشدائد ، وغفلنا عن مفتاح الوعد الذي معي وهو — كما ارجو — يفتح كل باب في هذه القلعة... فأخرج المسيحي ذلك المفتاح واخذ يعالج به باب السجن حتى اداره في القفل واذا به قد انفتح بسهولة فخرجا وهما يصفقان فرحا ، وكان امامهما قبل الوصول الى دار القلعة باب آخر فعمد اليه المسيحي بمفتاحه فكان اسهل فتحا. وكان للقلعة باب حديدي صعب المرام ولم يكن لهما مجاز منه ، فأتاه المسيحي باسم الله فلم يمتنع عليه » .. ولرب قائل يقول ان خلاص البطل تم بطريقة خارج نطاق القوة الانسانية ، ولكننا اذا ادركنا ان قصة سياحة الحاج كلها في المستوى الرمزي ، تبين لنا ان وسيلة الخلاص هنا — وهي مفتاح الوعد — ليست الا رمزا للايمان الذي به استطاع المسيحي وصاحبه الخروج من قلعة الشك ، ولا ريب ان الايمان هو احدى وسائلنا الانسانية في التغلب على ما نلقاه من عقبات .

اما في قصة علي الزيبق فنحن نجد انه ذهب الى المدينة المرصودة ليحضر صندوق التواجيه بحسب شروط خصمه صلاح الدين اذا هو أراد ان يأخذ منه منصب رياسة الشرطة في مصر ، وعندما ذهب الى تلك المدينة واستطاع ان يحصل على الصندوق حسده ملكها ، فخدعه هو وزميله ابن الحصري وادخلهما القلعة المرصودة بدعوى التفرج عليها ، ثم اغلق عليهما ابوابها وعاد الى ابنته مسرورا يخبرها بما فعله وانه بذلك استولى على الصندوق . وظن ابن الحصري ان هذه هي نهايته ونهاية الزيبق حتى انه بكى ، ولكن الزيبق نهاه عن ذلك ، وجعلا يتجولان في القلعة ، حتى عثرا على السيف المرصود الذي كان يستعمله الحكيم الذي بنى هذه القلعة ، ومن يستخدمه يستطيع ان يضرب به ما شاء من الجن والانس .

وعند انتصاف الليل اقبلت ابنة الملك وفتحت باب القلعة ، وكانت قد اخذت معها مفتاحها بعد ان نام أبوها، واخرجتهما وانقذتهما . وكان الزيبق قد انقذها من قبل من بين ايدي جماعة كانوا قد خطفوها ساعة وصوله ابواب المدينة المرصودة ، فاحبته لشجاعته وشهامته حتى انها عرضت عليه فيما بعد ان يتزوجها وان يكون هو حاكم تلك البلاد ، وهكذا نجد ان البطل المصري خرج من سجنه هذه المرة عن طريق الحب .

ويتكرر الحب كوسيلة تنقذ البطل في كثير من ادبنا الشعبي ، لا سيما في قصة ابو زيد الهلالي ، عندما سجنه الزناتي خليفه هو ورفاقه — يحيي ومرعي ويونس — وساقهم الى المشنقة بتهمة التجسس . فقد وقع نظر سعدى بنت الزناتي على مرعى ، فاخذت لجماله واحبته ، فاسرعت الى ابيها بالشفاعة في امر هؤلاء الغرباء ليسجنهم سجنا مؤبدا بدلا من اعدامهم ، فاستمع والدها الى رايها نظرا لمحبته الشديدة لها .

واخذت سعدى تتردد على مرعي في سجنه كل ليلة في خفية عن ابيها وقومها ، فكشفت له غرامها به وحبها له ، واحتالت عند ابيها لخروج ابي زيد على اعتبار انه عبد لا قيمة له ولا خطر منه نظرا للونه الاسود ، وهكذا يطلق سراح ابي زيد ، ولا تمضي فترة حتى يرجع من ورائه جموع هلال وسليم لحرب الزناتي . وعندما طالت الحرب بين الفريقين ضجرت منها سعدى ، حتى أنها اتصلت بالهلاليين ودلتهم على اسرار ابيها الحربية ، وانبأتهم بان مصرعه لا يكون الا على يد دياب بن غانم كما اخبره بذلك العرافون ، فكان هذا مما ساعد الهلاليين على ادراك غرضهم من الزناتي وظفرهم به وبملكه .

وتحول الادميين الى حيوانات امر شائع في هذه القصص ، ففي الاوذيسا نجد ان سيرسيه الساحرة قد حولت اصحاب يوليس الى خنازير بعد ان اطعمتهم طعاما مخلوطا بعقاقير من شأنها ان تنسيهم وطنهم ، وبعد ان ضربتهم بصولجانها . وتحولهم على هيئة خنازير لم يفقدهم عقولهم الانسانية . ولم ينقذ يوليس من المصير نفسه الا الاله هرميس ، فان ايريلوخوس الذي رفض ان يأكل مما اكل رفاقه ذهب الى يوليس في سفينته يخبره بما حل برجاله ، فذهب يوليس لانقاذهم ، وفي الطريق قابله هرميس واعطاه عشبا سحريا يحميه من الضرر . وبذلك لم تستطع سيرسيه ان تنتصر عليه وتحوله عن هيئة الادمية ، وطلب هو بدوره ان تعيد رجاله الى انسانيتهم فرضخت له .

واقامه يوليس مع سيرسيه مدة عام كامل بعد ذلك توضح لنا ان البطل لا يتعرض لمآزق مخيفة فحسب بل ايضا لاغراءات تعوقه عن مواصلة رحلته ، وعليه ان يقاوم هذه ايضا كما يقاوم الاخرى والا ضاعت كل جهوده ، ولهذا عندما عرضت ابنة ملك المدينة على الزيبق ان يتزوجها وان يكون حاكم البلاد ، اعتذر لها بلباقة قائلا « لا يمكنني فرقة امي والاوطان ، وانت قد صرت بعهد الله اختي ، وانا لا بد لي من الرحيل نهار غد » .

وهكذا نجد ان مازق الاغراء التي تعطل البطل لا تقل عن مآزق التهديد ، وان حسن التخلص وقوة الارادة وتصميم البطل على مواصلة رحلته هي الوسائل الانسانية البطولية التي بها يتخلص من مثل هذا المأزق ، بل ان البطل قد يلجأ الى الحيلة هنا مرة اخرى ، كما فعل يوليس حين مر

بالسيرين ، هؤلاء الالهات السمك اللاتي يغرين البحارة باصواتهن الجميلة ، فاذا اقتربوا منهن افترسنهم . فقد اراد يوليس ان يستمتع باصواتهن الساحرة من غير ان يقع في شراكهن ، فامر بحارته ان يضعوا الشمع في اذانهم من دونه وان يقيدوه في السفينة ولا يصغوا الى اية اوامر او توسلات منه حتى يتجاوز هؤلاء السيرين . وبذلك نجا يوليس من هذا الاغراء المهلك .

وفي سيرة علي الزيبق نجد ان البطل يتحول بالفعل الى حيوان مع اصحابه ، وذلك حين حوله عزرو اليهودي ملك مدينة صفد الى بغلة ، ولم تكن وسيلة الساحر هذه المرة العقاقير والصولجان ، ولكن كانت وسيلته الى ذلك طاسة من الماء قرأ عليها الاسماء ورشها على الزيبق ، وعندما اتى اصدقاؤه لانقاذه حولهم بدورهم الى حمير . وكان الخلاص هذه المرة على يد قوة غير انسانية ايضا هي ودعة بنت الملك الازرق احد ملوك الجان واخت علي الزيبق في عالم الجن . فقد افهمت امه فاطمة كيف تسرق طاسة عزرو وتضع فيها ماء وتكرر اسم الله العظيم وترش بها اخاها ورفاقه فيرجعون الى ما كانوا عليه . وبهذا تخلص البطل ورفاقه ، بل لقد استطاعت فاطمة بهذه الطاسة نفسها ان تحول عزرو الى بغلة يقتلها علي الزيبق فيما بعد .

وفي السفرة الرابعة من سفرات السندباد نجد ان رفاق السندباد الذين نجوا معه على جزيرة العراة قد تحولوا الى حيوانات تشبه الابل عن طريق طعام قدمه لهم هؤلاء العراه كما قدمت سيرسيه لرفاق يوليس ، ولم ينقذ السندباد انه ، ولا جنية بل مجرد عدم وجود شهية لديه الى هذا الطعام « فلما اكل اصحابي من ذلك الطعام ذهلت عقولهم وصاروا يأكلون من ذلك الطعام بخلاف أكلهم المعتاد ، فعندذلك احترت في امرهم وصرت اتأسف عليهم وقد صار عندي هم عظيم مرده الخوف على نفسي من هؤلاء العرايا وقد تأملتهم فاذا هم قوم مجوس وملك مدينتهم غول ، وكل من وصل الى بلادهم او راوه في الوادي او الطرقات يجيئون به الى ملكهم ويطعمونه ذلك الطعام ويدهنونه بذلك الدهن فيتسع جوفه لاجل ان يأكل ويذهل عقله وتطمس فكرته ويصير مثل الابل فيزيدون له الاكل والشرب من ذلك الطعام والدهن حتى يسمن ويغلظ فيذبحونه .. وقد صار اصحابي من فرط ما دهشت عقولهم لا يعلمون ما يفعل بهم ، وقد سلموهم الى شخص فصار يأخذهم كل يوم ويخرج يرعاهم في تلك الجزيرة مثل البهائم ، فلما رأوني على هذه الحال تركوني ونسوني ولم يتذكرني منهم احد ولا خطرت لهم على بال الى ان تحايلت يوما من الايام وخرجت من ذلك المكان » .

وهكذا نجد ان تخلص السندباد من مصير رفاقه اولا ثم من جماعة العراة ثانيا لم يتم عن طريق غير انساني كما حدث مع يوليس او الزيبق ، ولا حتى باعمال العقل او عن طريق الايمان او المحبة ، بل بما يمكن ان نسميه الصدفه . الصدفه التي جعلته لا يأكل هذا الطعام ، والصدفة التي جعلت هؤلاء العراة ينسونه . وتخلص البطل عن طريق الصدفه ليس امرا كثير الحدوث في هذه القصص كما قد يتبادر الى الذهن طالما ان هناك الهة او قوة جسدية متفوقة يمكن ان تتدخل في اية لحظة . ولكن يبدو ان الصدفة ما تزال احدى الوسائل الاخيرة التي تخلص البطل لكي يستمر في نضاله .

والصدفة هي وسيلة التخلص الوحيدة التي يمكن ان تكون انسانيه ويمكن ان تكون غير انسانية ، طبقا لنسبتها الى احداث القصة وموضعها من هذه الاحداث ، فاذا تكررت مثلا بشكل مبالغ فيه احسسنا ببعدها عن عالمنا الانساني ، اما اذا وقعت من حين لاخر على النحو الذي تقع به في حياتنا العادية ، فانها تظل في نطاقنا الانساني .

— ٣ —

والواقع انه بقراءة الملاحم والقصص الشعبية وامثالها نجد انها تتشابه في كثير مما يلقاه البطل من اهوال ومغريات وفي طرق التخلص منها ، حتى لنتساءل هل هناك صلة بين مؤلفي ورواة هذه الملاحم بحيث اخذ بعضهم عن الاخر ، او ان الظروف التي مرت بها الشعوب متشابهة بحيث انعكست في انتاج ادبي متشابه ، وهذه هي احدى القضايا الجديرة بالبحث والتمحيص والتي تنتظر الوصول فيها الى نتائج ايجابية محدده .

ورغم ان ذلك ليس موضوع مقالنا ، الا اننا نحب ان نشير الى ان المستشرقين قاموا بمحاولات لرد ما جاء في قصص الف ليلة وليلة من معلومات جغرافيه واجتماعية الى اصولها ، وقد قام الدكتور حسين فوزي في كتابه « حديث السندباد القديم » بجهد مشكور في ابراز آراء هؤلاء المستشرقين ، لا سيما فيما يتعلق بقصة السندباد البحري فهو يحاول أن يفسر تغير عقول اصحاب السندباد بانهم اكلوا حشيشا او خليطا من الحشيش والداتورة والافيون والخريق والبنج «حديث السندباد القديم - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٣ - صفحة ٣٠٧ » ويذكر مصادر جاءت فيها روايات عن قوم يأكلون البحاره الضالين ، وعن قصص مشابهه وردت في كتاب « عجائب الهند » وفي كتابي « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد» للقزويني .

ولنضرب مثلا اخر على ذلك حتى يتضح ما نثير من اشكال . فنحن اذا قرانا قصة يوليس في كهف السيكاويس وجدنا ان طريقة تخلصه من هذا الوحش نصف الاله تطابق تمام المطابقة الطريقة التي تخلص بها السندباد البحري من مآزق مماثلة .

ولنلاحظ اولا ذلك التشابه العريض بين القصتين ، ذلك ان كلامنهما قصة بحرية تدور حوادثها في البحار وعلى شطئانها وجزرها وتتفاعل مع ما بها من مخلوقات وانواء والفرق بينهما هو ان بو زيدون اله البحر هو الذي فرض على يوليس التجول في البحار منذ فقأ عين ابنه السيكاويس ، ولكن يوليس لا يستسلم لما فرضته عليه الالهة بل هو يقاوم ويناضل حتى يصل الى وطنه .

اما السندباد فكان يرفض بعد كل رحلة ان يستقر لانه يفضل المغامرة : « وقلت لروحي يا سندباد يا بحري انت لم

تتب ، وكل مرة تقاسي فيها الشدائد والتعب ولم تتب عن سفر البحر ، وان تبت تكذب في التوبة ، فقاس كل ما تلقاه فانك تستحق جميع ما يحصل لك » .

واذا قارنا تفاصيل القصتين نجد ان السندباد تخلص من الشيخ الاسود بان فقأ عينيه بسيخين من الحديد كما فقأ يوليس عين السيكلوبس بالعصا . يقول السندباد « ان الاسود اخذ واحدا منا وفعل مثلما فعل بسابقيه واكله ونام على المصطبه وصار شخيره مثل الرعد ، فنهضنا وقمنا واخذنا سيخين من حديد من الاسياخ المنصوبة ووضعناهما في النار القوية حتى احمرا وصارا مثل الجمر وقبضنا عليهما قبضا شديدا وجئنا بهما الى ذلك الاسود وهو نائم يشخر ووضعناهما في عينيه واتكأنا عليهما جميعا بقوتنا وعزمنا فادخلناهما في عينيه وهو نائم فانطفأتا . »

بل ان نهاية القصتين واحدة فبعد ان نجا يوليس من السيكلوبس اسرع الى مركبه واقلع ، ونادى على السيكلوبس يتندر به ، فاقتلع العملاق الاعور قطعة من جبل والقاها في البحر فأخطأ السفينة ، وواصل يوليس سخريته وعرفه بنفسه فاقتلع السيكلوبس صخرة اخرى والقاها على سفينة البطل اليوناني دون جدوى .

اما في قصة السندباد فنحن نجد ان الغول الاسود بعد ان انطفأت عيناه « خرج من القصر » وراح الى حال سبيله وهو يدور علينا ، ثم انه رجع ومعه انثى اكبر منه واوحش خلقة ، فلما رايناه والذي معه افظع حالا منه ، خفنا غاية الخوف ، فلما رأونا اسرعنا ونهضنا ففككنا الفلك الذي صنعناه ونزلنا منه ودفعناه في البحر ، ومع كل واحد منهم صخرة عظيمة ، وصاروا يهاجموننا الى ان مات اكثرنا من الرجم وبقي منا ثلاثة اشخاص انا واثنان » .

ويرجح الدكتور حسين فوزي ان يكون صاحب قصة السندباد قد سمع طرفا من حكايات يوليس ، فقد جاءذكر هوميروس في كتاب ابي الريحان البيروني في « الاثار الباقية » ومن الثابت ان توفيلوس الرهاوى رئيس الفلكيين في بلاط المأمون ترجم ملاحم هوميروس الى السريانية . ثم يورد الدكتور فوزي روايات يؤيد بها ترجيحه حتى يقول « ربما كان الاقرب والمعقول ان تكون القصة قد انتقلت من اليونان الى العرب اما مباشرة ، واما عن البهلوانية او السريانية « حديث السندباد القديم صفحة ٣١٨ » .

وعندما ركب شيخ البحر كتفى السندباد ليلا ونهارا وهو يبول ويغوط فوقها ، تخلص منه بحيلة قريبة ايضا من حيلة يوليس عندما تخلص من السيكلوبس بان اسكره ، يقول السندباد بل هو تنقل ـ اشبه بالتخبط ـ في مكان محدود ان جئت به يوما من الايام الى مكان في الجزيرة فوجدت فيه يقطينا كثيرا ومنه شيء يابس ، فاخذت منه واحدة كبيرة يابسة وفتحت راسها وصفيتها « ثم اتجهت » الى شجرة العنب فملاتها منها وسددت راسها ووضعتها في الشمس وتركتها مدة ايام حتى صارت خمرا صافيا وصرت كل يوم اشرب منه لاستعين به على تعبي من ذلك الشيطان المريد ، وكلما سكرت منه تقوى همتي . فنظرني في يوم من الايام وانا اشرب ، فاشار لي بيده : ما هذا ؟ فقلت له هذا شيء مليح يقوي القلب ويشرح الخاطر ، ثم اني جريت به ورقصت بين الاشجار وحصل لي نشوة من السكر ، فصفقت وغنيت وانشرحت . فلما راني على هذه الحال اشار لي ان اناوله يقطينه ليشرب منها فخفت منه واعطيتها له فشرب ما كان باقيا فيها ورماها ـ على الارض وقد حصل له طرب فصار يهتز على اكتافي . فلما علمت بسكره وانه غاب عن الوجود مددت يدي الى رجليه وفككتهما من رقبتي ثم مات به الى الارض والقيته عليها .. ثم اني خفت ان يقوم من سكره ويؤذيني واخذت صخرة عظيمة من بين الاشجار وجئت اليه فضربته على راسه وهو نائم فاختلط لحمه بدمه . »

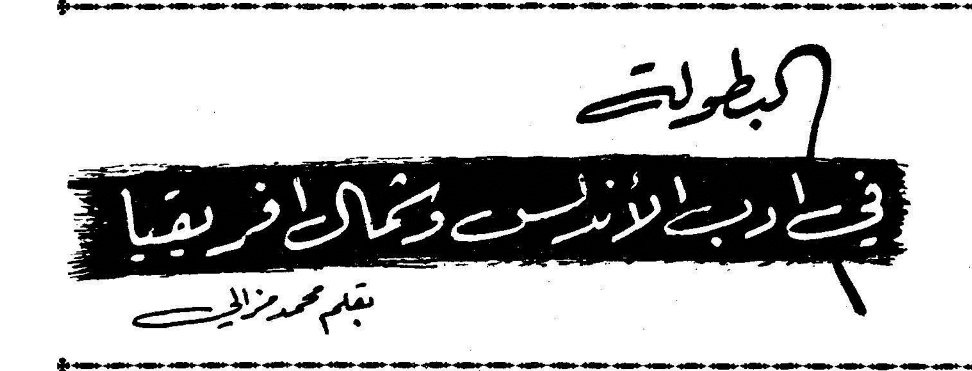
وقد اوردت النص كما ورد في الف ليلة لكي اوضح ان السندباد لم يدبر امر خلاصه على النحو الذي دبره يوليس ، فهو ما صنع الخمر الا ليستعين على تعبه وهو ما أعطاه شيخ البحر بعد ان اغراه بها كما فعل يوليس بل خوفا منه ، ولكن النتيجة كانت واحدة في الحالين وهي العدو الذي ثمل حتى غاب عن الوعي مما اتاح للبطل ان يتخلص من مأزقه .

*

وفي القرن العشرين اختفت نهائيا مساعدات القوى الخارقة لانقاذ البطل ، وحل تساحه محل القوة الجسدية المتفوقة. وفي المجتمع الصناعي الغربي على الاقل لم تعد الرحلة تستغرق عشر سنوات كما فعل يوليس ، بل هي قد تستغرق ثماني عشرة ساعة وخمسا واربعين دقيقة كما فعل مستر بلوم بطل جيمس جويس في ملحمته الحديثة يوليس . وبينما نجد بنيلوب تنتظر في وفاء زوجها وتمتنع على خطابها نرى مسز بلوم تخون زوجها خيانة متصلة وتصطفى العشاق في اسراف يدهش اهل المدينة . وبعد أن كانت الرحلة في العالم الخارجي اصبحت رحلة داخلية في نفس الانسان اساسها التذكر واجترار الاحداث .

و « ك » بطل كافكا في روايته القلعة يريد ان يثبت انه مساح الارض الجديد الذي تطلبه القلعة موظفا بها ، وهو لا يستطيع ان يدخل القلعة الا بعد ان يثبت صحة وظيفته ، ويتطلب منه ذلك اياما وشهورا يختلط في اثنائها باهل القرية القريبة من القلعة ، متنقلا ما بين فندق واسرة ومدرسة، وهو يحب فريدا لكنه لا يستطيع ان يتزوجها لانه بغير وظيفة . فالكفاح هنا من اجل اوليات الحياة : الوظيفة والبيت ـ والكفاح هنا لم يعد يتخذ الرحلة رمزا له كما في الاوديسا او في سياحة الحاج او في على الزيبق او في السندباد بل هو تنقل ـ اشبه بالتخبط ـ في مكان محدود ولم تعد هناك كهوف او جبابر بل تعقيدات روتينية لا نهاية لها ، ولم يعد البطل قادرا على الوصول الى هدفه سواء عن طريق العقل او الايمان او المحبة او حتى بمجرد الصدفة .

القاهرة **يوسف الشاروني**





سيداتي ، سادتي ،

ساتحدث اليكم اليوم في موضوع البطولة كما يصورها أدب الاندلس وشمال افريقيا . واني اذ اشعر بشرف تقديم مثل هذا الموضوع الخطير لتتناولوه بالتعليق والمناقشة لا اخفي عليكم اني غير راض تمام الرضا عما انتهيت اليه من بحث وتحرير هو الى الارتجال اقرب وبعمل التعميم والتبسيط الصق وانسب .

ذلك ان هذا الموضوع خلافا لغيره من المواضيع غير مضبوط بزمان ولا باق في حدود مكان ، فهو يتناول الادب العربي في الاندلس وفي جميع اقطار شمال افريقيا منذ الفتح الاسلامي الى يومنا هذا مع الرجاء في ان لايضاف اليه الادب الشعبي الذي هو غني جدا عندنا وزاخر بمعاني البطولة ، ومن واجبي فوق كل ذلك ان ابقى ، وانا اعالج مثل هذا الموضوع ، في حدود الاربعين دقيقة . واذا اضفت الى ما سبق اني لم اكلف بعلاج الموضوع والكتابة فيه الا منذ ايام عذرتموني والتمستم ظروف التخفيف لما ستلاحظونه فيه من نقص وبعد عن الغاية القصوى ويطيب لي في هذه المناسبة ان اجدد امامكم الشكر لزميلي الاستاذين محمد الفاضل بن عاشور ومحمود الباجي لما اسدياه لي من نصائح وزوداني به من معلومات كانت خير معين ونعم الدليل .

ومهما يكن فاني ارجو ان تكون المناقشة بناءة والتعاليق ايجابية حتى تحصل الفائدة ونفوز بتقرير كامل واضح عن هذه القضية .

سادتي ، ان البطولة مثل اعلى لا يزال البشر منذ « بروميثى في الاصفاد » يسعون اليه سعيا ، وعنوان بارز من عناوين المجد والرفعة المعنوية ما فتيء الانسان يحرص على شرف الانتساب اليه والاتصاف به ، وروح ما انفكت المجتمعات تنفخه في اجيالها جيلا بعد جيل ، وتغذيهم به ليكونوا خير خلف لخير سلف وينهضوا برسالة القوم التاريخية ، وهي مظهر رائع للجانب الالهي الذي هو في كل انسان يدفعه الى التمرد على الوجود والاستعاضة عن دنيا الرتابة والخضوع والرضا بدنيا الحركة والتجديد والخلق وتجاوز الوضع الذي قد يبدو للبعض قضاء مبرما وطبيعة لا حول للانسان عليها ولا قوة ، البطولة هي اثبات الافراد والجماعات لذاتهم والسمو بها الى « الله » .

واذن فليس من الوفاء لروح الكفاح البشري ولا لانتصارات الانسان على الطبيعة وعلى الجانب غير المعقول منه ان نقع في ما توحي به الكلمة في التعبير العلمي فنحصر البطولة في صفة من صفاتها اعني الشجاعة . ان البطل شجاع ومقدام من غير شك ، والشجاعة ابرز صفاته ، من دون ريب ، ولكنه لا يكون بطلا حقا حتى يتحلى بجملة من الصفات الخلقية الاخرى ، يبرز بها عمن سواه وتسمو به الى اعلى مراتب الانسانية الحق ، منها المروءة والاريحية والشعور المرهف بالكرامة والاباء وضبط النفس وقوة الارادة ورجاحة الرأي وحسن التدبير ، وغيرها من الخصال التي تجعل من الانسان الذي كرمه الله وخصه بالعقل سيد يخضع لزمام ارادته شؤون نفسه من دون ان يقتل نفسه ويسيطر على الطبيعة من دون ان يصاب بغرور تحدى سننها او تجاهل معطيات واقعها ، فتكون الشجاعة في خدمة الخير والحق وتكون بناءة متحالفة مع التقدم مسايرة للتاريخ بل مسيرة له .

فاذا كانت هذه هي البطولة وكان ذلك هو نزوع البشر ــ افرادا وجماعات ــ اليها منذ فجر التاريخ الى اليوم فلا بد لنا ، نحن العرب، من تحسس مواطنها في ادبنا القديم والحديث وضبط معانيها حتى نيسر لجيلنا الذي يتوق لحياة افضل وعالم اجمل ويهب نفسه كل يوم في سبيل ذلك تمثل الصورة المثلى يستوحيها ويستمد منها العبر ويتجدد دوما بالتامل فيها .

فاذا كان ذلك كذلك لنتساءل ــ في حدود حديثنا اليوم ــ كيف يصور الادب الاندلسي والشمال الافريقي هذه البطولة وما هي نماذجها فيه ؟ ولا بد للاجابة عن ذلك من اتباع منهج تاريخي نستعرض بمقتضاه اهم عصور هذا الادب في مختلف الاقاليم التي يهمها الامر .

ولعل اول بطل تصوره العرب المسلمون في تاريخهم هو رسولهم عليه السلام. فقد كانت البطولة اول ما كانت في نظر شعراء المغرب العربي والاندلس تتجسم على اكمل مظاهرها في بطولة الرسول الاعظم باعتباره القائد الذي لم يهزم في موقعه ولم يتراجع امام عدو ، والشجاع الذي يلوذ به اصحابه اذا حزبهم امر كما قال عنه الامام علي والمستميت الذي يثبت ولو تخلى عنه اصحابه . وقد ظهرت الاشادة بالجانب البطولي في خصائص الذات المحمدية طاغية على كل ما عداها من فنون الشعر وموحية مع الحب الايماني بكثير من الاناشيد العاطفية والابداع الوصفي . وعرفنا في المغرب العربي والاندلس شعراء وقفوا انفسهم على المديح النبوي وابدعوا في تمجيد البطولة في شخص الرسول واستيفاء معانيها وحدودها من سيرته ، وذلك امثال ابي زكريا يحي الشفراطيسي التوزري وابنه ابي محمد ومثل ابي عمرو عثمان بن عتيق وابي يعقوب يوسف بن عبد الملك البكري وابن جابر الاندلسي وغيرهم :

فاذا نظرنا الان في ادب الاندلس بالذات والتمسنا منه البطولة وتعرفنا الى نماذجها فيه لاحظنا اولا ان عنصر الملحمة فيه ضعيف نسبيا وان الشعراء انصرفوا الى وصف الطبيعة والتغني بلذة الحياة وافراح الوجود حتى انك لا تكاد تجد في آثار ابن حزم صاحب طوق الحمامة شيئا يذكر في ربه نظم ارجوزة في ٤٥٠ بيتا مدح بها الخليفة عبد الرحمن الناصر

وابن خفاجة فانما يجب استمداده مما نظماه في باب المديح . فالحروب لم تفد الادب الاندلسي تغذية كافية وان لم يكن خاليا منها . وابن عبد ربه نظم ارجوزة في ٤٥٠ بيتا مدح بها الخليفة عبد الرحمان الناصر وذكر فيها حروبه وغزواته ، وسجل تاريخ كل غزوة وهي التي يقول في مطلعها :

وبعدها غزاة ثنتي عشره وكم بها من خبرة وعبره

وابو طالب عبد الجبار نظم كذلك ارجوزة هي في حقيقة الامر ملحمة تصور شخصية ابن تاشفين وتنوه بأياديه البيضاء على الاندلس التي نصرها على الكفار فقد قال الشاعر في مطلعها :

فاذا اراد الله نصر الدين استصرخ الناس ابن تاشفين
فجاءهم كالصبح في أثر غسق مستدركا لما تبقى من رمق
وافى ابو يعقوب كالعقاب فجرد السيف عن القراب
ووصل السير الى الزلاقة وساقه ليومها ما ساقه
لله در مثلها من وقعة قامت بنصر الدين يوم الجمعة

وقد درج على طريقة ابن عبد ربه لسان الدين بن الخطيب في ارجوزته الرائعة التي يحق لها ان تدعي « شهنامة العرب » وهي الارجوزة التي نظم فيها التاريخ الاسلامي ومظاهر البطولة الاسلامية في المغرب وسماها « رقم الحلل في نظم الدول »

والى جانب الشعر الملحمي يمكن لمن يتصفح دواوين شعراء الاندلس ان يجد في ما مدحوا به الامراء وكبار القوم معالم البطولة وايات الرجولة الفذة المتسامية ، من ذلك ما مدح به ابن دراج القسطلي المنصور بن ابي عامر وما مدح به ابن زيدون ابا الوليد بن جهور صاحب قرطبة اذ يقول :

فرح السياسة اذا ملكت عنانها فرح العروس بصحبة الاملاك

ويقول ابن زيدون في مدح ابي الحزم بن جهور ايضا :

لا يوسم الرأي الفطير ولا يعتاد ارسال الكلام قضيبا

وقال في مدح صاحب بطليوس المظفر سيف الدولة ابي بكر محمد بن مسلم :

نهيك اذا جن ليل العجاج سرى منه في جنحه بدرتم
فسام السيوف بهام الكماة وروى القنا في نحور البهم
جواد دراه مطاف العفاه ويمناه ركن الندى المستلم
يهيج النزال به والسؤال ليثا هصورا وبحرا خضم
شهدنا ، لاوتي فصل الخطاب وخص بفصل النهى والحكم

وهكذا يجمع ابو بكر محمد بن مسلم اهم صفات البطل اي الشجاعة والاقدام والكرم واستقامة الراي وكل ما به نميز بين الصعلوك الرديء والفتى وبين قاطع الطريق والبطل الهمام .

وصورة هذا البطل تبرز فيما مدح به ابن سهل ابا بكر محمد بن غالب اذ يقول :

حليف جلاد ليس تكسى سيوفه وثوب طراد ليس تعرى طواهله
تضم على ليث الكباح حروبه وتسفر عن بدر التمام محافله
تساوي مضاء رأيه وحسامه ولان مهزا معطفاه وذابله
تحيرت فيه والمعاني غرائب افكاره امضى شبا ام عوامله

ومن ايات البطولة عدم الخضوع الى قوة ي وجبروت الطاغية والاعتصام بكرم النفس والاباء والشهامة فقد قال عباد في هذا المعنى :

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
الذ من طعم الخضو ع على فمي السم النقيع

ان تستلب عني الدنا ملكي تسلمني الدموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع

وقد تبلغ شجاعة البطل حدها الاقصى وتقارب اللاشعور بالخطر واللامبالاة بالمآل المحتوم فيهب البطل حياته ويجد لذة في التضحية ويعني بنوع الميتة اكثر مما يعنى بالغاية منها . فقد جاء في كتاب اعمال الاعلام لحسام الدين بن الخطيب ان المعتمد اقتحم بلدا وعليه قميص يشف عن بدنه وحمل على الداخلين فردهم على اعقابهم وقتل منهم فارسا وانزعج الناس امامه وخلفوا الباب فامر بسده وعاد الى القصر ، والى تلك الحال يشير بقوله : ـ

كم رمت يوم نزالهم ان لا تحصنني الدروع
ما سرت قط الى القتا ل وكان من املي الرجوع
شيم الالى انا منهم والاصل تتبعه الفروع

وقبل ذلك نجد الامراء القواد ينحون هذا المنحى فيفتخرون بما اتصفوا به من جليل الصفات وبما رزقهم الله به من عظيم الخصال فهذا ابراهيم بن الاغلب يفتخر بانتصاره ويشيد بحزمه وعزمه فيقول :

ما سار عزمي الى قوم وان كثروا الا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا
ولا اقول اذا ما الامر نازلني يا ليته كان مصروفا وقد وقعا
حتى اجليه قهرا بمعتزم كما يجلى الدجي بدر اذا طلعا

وكذلك حفيده ابو العباس بن ابي عقال بن ابراهيم وهو الذي سهر على اعداد الجيش الذي فتح صقيلية ، اذ يقول في الفخر :

انا الملك الذي اسمو بنفسي فابلغ بالسمو به السحابا
انا ابن الحرب ربتني وليدا الى ان صرت مكتهلا شبابا

وبقي الشعراء يمدحون الامراء الابطال وينوهون بخصالهم وبقي بعض الامراء والقواد يفتخرون بشجاعتهم وقوة شخصيتهم وصورة البطولةهي متقمصة لا في الامة او القوم عامة بل في شخص فذ فيه تجتمع مزايا القوم واليه يرجعون في الملمات وبه يعتصمون عند الشدائد .

ذلكما استخلصناه من اشعار شعراء الاندلس في مختلف اطواره التاريخية وفي شعر الاغالبة والمرابطين وفيما نظم في دولة الموحدين ايضا سواء في مدح ابي حفص الاغماتي للخليفة يوسف بن عبد المؤمن او في مدح عبد الواحد المراكشي للامير ابراهيم بن يعقوب المنصور او فخر الامير عبدالله الموحدي او في شعر ابن حبوس حول فتح بجاية وشعره فيمن عصى دعوة ابن تومرت . الا انه لا بد من وقفة ولو قصيرة عند شاعر عاش في ظل الدولة العبيدية وتغذى شعره بمدح الفاطميين اعني محمد بن هانيء الذي قال فيه ابن حلكان « انه عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة » ان غالب اشعار ابن هانيء تطغى عليها العاطفة الدينية فهو اسماعيلي يؤمن بالايام وبنه معصوم وبانه بطل لا كالابطال وعظيم لا كالعظماء . لذا نراه يرفع من منزلة المعز مثلا ويسمو به عن مستوى البشر العام حتى يكاد يخرجه من دائرتهم فجاء شعره طافحا بصفات البطولة الخارقة للعادة ومغاليا في تشخيص آثرها ويكفي ان اذكركم بالصيدة الشهيرة :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار
وكانما انت النبي محمد وكانما انصارك الانصار
أن تخب نار الحرب فهو بفتكه ميقادها مضرامها المغوار

ويقول عنه في قصيد اخر :

هذا ابن وحي الله تاخذ هديها عنه الملائك بكرة وأصيلا

ويقول في قصيد اخر :

النور انت وكل نور ظلمـــــة والفــوق انـت وكـل فوق دون

ونجد نفس الغلو ونفس الخيال المولد الى ابعد حدود التوليد فيما نظم هذا الشاعر من ملاحم تشيد ببطولة قواد المعز وبالاخص جوهر الذي وصف بطولته في قصيدة مشهورة قالها بمناسبة خروج الجيش بقيادته من تونس الى مصر وتوفيقه في ذلك ومطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضي الامر
وقد جاوز الاسكندرية جوهــر تطالعــه البشرى ويقدمه النـصر

الى ان يقول : ـ

أفي الشمس شك انها الشمس بعدما تجلـت عيانـا ليس من دونها ستر
وما هي الا آية بعـد آيـة ونذر لكم ان كان يغنيكم النـذر
فكونوا حصيدا خامدين او ارعووا الى ملك في كفه الموت والنـشر

والى جانب ذلك كله يجد مؤرخ الادب تطورا في معنى البطولة وفي الغاية منها عندما هددت ارض الاندلس بالسقوط ثم عندمـا سقطت واستولى عليها الاسبان واخذ نجم المسلمين في تلك الربوع في الافول فاذا بالشعر حنين الى المجد التليد وشوق الى الايام الغر وتغذى من العاطفة الدينية الباعثة على التضامن مما هو موجود في اشعار ابن عبدون وابي البقاء الرنديوفي شعر ابن الخطيب ونثره الذي يقول فيه فيمـا يقول :

« ايها الناس اخوانكم المسلمون في الاندلس قد داهم العدو ساحته ، وراع الكفر استباحته وزحفت احزاب الطواغيت اليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وايديكم بعزة الله اقوى وانتم المؤمنون اهل البر والتقوى وهو دينكم فانصروه وجواركم القريب فلا تخفروه وسبيل الرشد قـد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد قد تعين .. »

وضرب اخر من البطولة لا بد من ذكره ايضا هو ما نجده فيما نظمه الشعراء حول اعتداءات الروم على ثغور شمال افريقيا فاصبحت البطولة تمتزج بقهر الروم والانتصار عليهم وتخليص الافارقة من قبضتهم واصبح في ذلك العصر اسم ابي الحسن المريني طاغيا على شعر البطولة فـي جميع اقطار المغرب العربي التي حكمها والتي يحكمها ويظهر ذلك في قصيد ابي القاسم التونسي الذي انشده بين يديه وكانت بطولته اشد تاثيرا على الشاعر من تحمسه لوطنه المغلوب على امره وعرشه المنهار قال : ـ

اجابك شرق ان دعوت ومغرب فمكـة هشت للقـاء ويثـرب
وحيتك او كادت تحيي منابـر عليها دعاة الحق باسمك تخطـب

الى ان يقول

تملكت شطر الارض كسبا وشطرها ورثا فطاب الكـل ارث ومكسـب
بجيش على الالواح والماء يمتطـي وجيش على الغـر السوابق يركب
وجيش من الاحسان والعدل والتقى وذاك لعمـر اللـه اغـلى واغلب
فلا مركب الا يزين راكبـــا ولا راكب الا به ازدان مـركـب
ولا رمح الا وهـو أهيـف خاطـر ولا سيـف الا وهو ابيض قاضب
له من عجيب السحر بالقول اضرب وفي هامة القوم المغارب مضـرب
شرعت من الاحسان فينـا شريعـة تساوي بهـا نـاء ومن يتقـرب

فالبطولة حينئذ خوض المعارك وكسب الانتصارات وبسط العـدل والاحسان وحماية الديار والتخوم وبذلالعطايا . ويقول شاعر صقلية ابو عبدالله الحسين بن على القائد يصف بطولة احمد بن ثقة الدولة ويغريه بمنازلة روما :

فكـم من معقـل للعين سـام سلكـت اليه منهـاج الرشـاد
وقد حارت نفوس القوم فيــه الى ان قام فيـهم منـك هـاد
فاصعدت الخيول الى الروابـي وانزلت الوعول الى الوهـاد
وكم اخرجت منهـا من كمين ومن عضب ومـن طرف جـواد

الى ان يقول :

كان رؤوسهم كانـت نبـاتا ابادتـه سيوفـك بالحصـاد
واما رومة فالـى قريـب يصحبها بداهمـة الحـداد
عبيدك من تـؤم من الاعـادي ورزقك ما تروم من البـلاد
فدونك يا عميـد الملك فاعمـد تنل ان رمتهـا ذات العمـاد

فالبطولة هنا تتاثر في مقياسها الى حد بعيد بما يكـون للشاعر فيهـا من مغنم شخصي فوق ما تستجمع من معاني الاكبار والتقدير والمجد وهي بهذا الاعتبار مظهر من مظاهر الشكر والاعجاب معا .

فاذا عدنا الان الى اثر سقوط الاندلس في الادب عامة وفي معنى البطولة قلنا ان عقدة الهزيمة استحكمت في النفوس اثر انهيار الاندلس وتلاشى الامل وبلغ الامر اقصى حده بالغارة الاسبانية التي شنهـا (شارلكان) على المغرب الاقصى والجزائر وتونس وليبيا فجاءت انتصارات السلطنة العلوية بالمغرب والسلطنة العثمانية في ليبيا وتونس والجزائر منقذا للرمق الباقي من الشعور بالكيان القومي وباعثا للشعور بالكرامة ومجددا لبوارق من الامل في النجاة من الدمار الماحق . فاصبحت هاتان السلطنتان الشرقية والمغربية قطب الحركة الملية ومجتمع الشاعر وصار تمجيدهما والتفاخر بما لهما من الغزوات التي ردت كيد الاعداء المعنى المعتمد عليهفي اثارةروح الهمة الدينيةوالكرامةواصبح التعلق بكل من السلطنتين امرا مشاعا بين اصحاب النفوس اليقظة في المغرب العربي مقطوعا فيه النظر عن مرجع الحكم السياسي . فاننا نجد في نصوص الخطب والرسائل والقصائد التي انشاها ادباء المغرب الاقصى تعلقا بتمجيد السلطـان العثماني ، كما نجد في ما انشاه من مثل ذلك ادباء الجزائر وتونس وليبيا وهي التابعة لحكم السلطنة العثمانية تمجيدا لسلاطين المغرب الاقصى وتنويها ببطولتهم الجهادية ، وان هذه الحقيقة لتظهر في الرسالات التي كان يحررها الكاتب ابن ابي الضياف في منتصف القرن الثالث عشر على لسان امراء تونس الى السلطنتين العثمانية بالشرق والعلوية بالمغرب ، حتى ان الواقف على تلك الرسائل ليحتار في التوصل الـى تحقيق الارتباط السياسي لاولئك الامراء الذين صدرت الرسائل بلسانهم مع ان الوضع من الجهة القانونية والواقعية قد كان واضحا لا لبس فيه .

وقبل ذلك نجد شعراء القرن الثاني عشر والنصف الاول من القرن الثالث عشر قد طفح شعرهم بتمجيد سلاطين المغرب الاقصى وتعليق الامال على همتهم حتى انتهى الشاعر ابوعبدالله الورغي الى ان اعرب عن مدى امله في السلطان العلوي بقوله :

حتى ارى خيله في ارض اندلس تعيد من هيبة الاسلام ما فقـدا

وكذلك نرى وجهة الاعجاب بالبطولة كانت مولية نحو المغرب الاقصى متخذة من عروبة السلاطين العلويين ونسبتهم الزكية اقوى سند للاعجاب وسعة الامل .

فلما نزلت بالعالم الاسلامي عامة والمغرب العربي خاصة كارثة الغارة الفرنسية على الجزائر ، ساد الوجوم وعاود النفوس مركب النقص باستسلام القوات العثمانية وعجز المغرب الاقصى عن الدفاع عن نفسها في وجه الغارتين الفرنسية والاسبانية ، بله تخليص الجزائر .

وكان لهذا الشعور المرير رجع عكسي ملأ النفوس املا واندفاعا في طغيان الحماسة لما تحرك البطل العظيم الامير عبدالقادر متخذا من الضعف قوة صال بها في وجه الغارة الاستعمارية صولته التي لم يزل تاريخ العالم الحديث يتجاوب باصدائها ، فانقلبت بموقفه الاية وذابت في حركته الفوارق الانانية والاعتبارات السياسية حتى ان سلطان المغرب الاقصى بنفسه قد ربط معه صلات ادبية سجلتها مراسلات ذات قيمة بارزة في التاريخ الادبي علاوة على قيمتها في التاريخ السياسي . فقد اطردت المراسلات بين الامير عبد القادر وبين السلطان عبد الرحمن بن هشام سنينا كان فيها السلطان يتفنن في اظهار اعجابه بالامير عبد القادر في تحاريره بصيغ ادبية ، وينظم القصائد في تهنئته والثناء على جهاده والاشادة بفتوحه وانتصاراته .

وقد اطلعت عند الاستاذ محمد الفاضل بن عاشور على نص وثائق مجموعة من تلك المراسلات هي وثائق فريدة في قيمتها ، ارجو أن يعتني بتحقيقها والتعليق عليها ونشرها في مجلة الفكر التونسية ، وهذه ابيات اسوقها على سبيل المثال المشوق وهي من القطعة التي صدر بها المكتوب الطويل في التهنئة بفتح تلمسان في ربيع الثاني ١٢٥٥ فيقول : ـ

بشرى بفتح كسا الاسلام احسانا وصار منه لعين الدين انسانا
اضاء في افق هذا الغرب مشرقة وبشر القوم انسانا فانسانا
صنع جميل سمت فضلا صنائعه لوحشة الدهر والايام انسانا
وكيف لا وبه ازداد العلا وسما وطهر الله مولانا تلمسانا
فاصبحت ووجوه السعد مشرقة بها جهارا كان الكفر ما كانا
لله فتح غدا للذكر فاتحة وصار كالخط فوق الكتب عنوانا
وخط في صحف التوفيق كاتبه خطا افاق على الاسعاد برهانا
لا زال يستخلص الاقطار منتصرا ثغرا فثغرا واوطانا فاوطانا

لكن اليأس استولى من جديد على النفوس بعد انهزام الامير ومرت فترة استسلام انتهت بظهور الخطر البلقاني فتجددت الحمية وتجدد الاتجاه الى سلاطين العثمانيين وخصوصا الى محمود وعبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد . واتخذ الادب نماذج في البطولة من القواد الذين برزت شجاعتهم في الحروب البلقانية والحرب الطرابلسية وظهرت في الشعر خاصة اسماء ادهم وانور ومصطفى كمال ، خصوصا فيما كتبه صالح سويسي والخضر بن الحسين والشاذلي خزندار الذي عارض قصيدة شوقي الشهيرة :

الله اكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

فواكبه في النظر الى قصيدة ابي تمام وقال :

يا سفر « سيفر » وان خطوك بالنهب السيف اصدق انباء من الكتب

اما الادب الحديث في المغرب العربي ، فقد تغنى ببطولة الاجداد والماضي المجيد لتحريك السواكن وبعث الهمم واقتلاع اسباب اليأس والخنوع من النفوس اولا ثم هو واكب الحركة التحريرية الجهادية ، ثانيا لما انتفض المغرب العربي بجميع اقطاره ينشد الحياة في بطولة نادرة وعزيمة حديدية . ولا يمكن هنا ان نذكر جميع الشعرا الذين تغنوا بالبطولة للرفع من معنويات الشعب ولا ان نتوسع في تحليل اغراضهم ، ولنكتف بذكر بعض الاسماء منهم على سبيل المثال :

هذا الشاعر الخضر حسين ينظم قصيدة في (١٢٢) بيتابتغني فيها ببطولة عبد الرحمن الناصر ، صقر قريش ، يستهلها بقوله :

خل نفس الحر تصلي النوبا لا تبالي
ليست الاخطار الا سببا للمعالي

وهذا الشاعر سالم بن حميدة ينوه بالفتوة وبالتضحية في سبيل الوطن فيقول :

فخير للفتى موت بعز من الموت المجدد والسقام
فما عاش الذليل بفضل ذل ولا مات العزيز من الصدام

وهذا الشاذلي خزندار ينادي بما تفرضه البطولة من صبر وصمود وايمان وتضحية في قصيدة انشدها يوم تشييع سبعة من الشهداء :

نبكي لفرقتهم وهم أحياء سبعا بكتهم تونس الخضراء
ما كان في كفي الحسام وانما من تحت فكي حية رقطاء
ارسلتها حصبا على مغتالهم فتريه ماذا يفعل الشعراء
ساهز من قومي الذين بلوتهم ما ترتضيه الهمة القعساء
عربية الاحساس في نخواتها لله تلك النخوة العرباء
لا تخلدوا فشلا لفل هزيمة ولو آدلهمت سحبها الظلماء
دعهم يريقوا يزهقوا يستنزفوا ينفوا يبيدوا يفعلوا ما شاءوا
واسترسلوا في الامر دون تراجع فالحبل منه انشقت الصماء

وهذا الطاهر الحداد ينوه ببطولة الشعب التونسي فيقول :

يا شعب تونس يا شعب المجادة لو وعيت ماضيك المسطور لم تهب
خلقت للموت في حفظ الكرامة لا للجبن تلبسه عارا مع الحقب
هيا بنا يا بني الاوطان نسعدها لا خاب من طلب العلياء بالداب

ونراه يستنهض الهمم في قصيدة اخرى مطلعها :

طال بنا النوم فهيا انهضوا نحو المعالي أيها الهجع

ونجد الشاعر بالمغرب العربي يتحين الفرص ليبلغ شعره وما تضمنه من معان سامية حافزة الى العمل لمواطنيه ، وهذا الشاعر التونسي عبد الرزاق كرباكه يتجاوب مع زميله الرصافي في العراق ويتعاطف وينظم قصيدة يهديها له عندما مرت على الرصافي ازمة نفسية وشعر باليأس ، وروت الجرائد بتونس انه خرج من بغداد هائما على وجهه ، فيذكره عبد الرزاق كرباكه بان البطل هو من يستسهل الصعب ويقتحم الاخطار وهو الذي يجاهد في سبيل الحياة الكاملة عن غير استسلام لليأس فيخاطبه بقوله :

شيخ الرصافة جل ما تصبو له اتريد ان تلقاه سهلا أسرا
اين البطولة عند ذاك وابن ما يلقى المجاهد وهو يقتحم الذرا

ثم يختم هذه القصيدة بدعوته الى الامل قائلا :

والى العلا ان الجلالة فى العلا والى الذرا ان الكرامة فى الذرا

واعتقد بعد هذا انه لا فائدة في ان اتحدث امامكم عن بطولة ابي القاسم الشابي الفكرية وعما اودعه شعره من معاني البطولة وعما كان له من الفضل في تحميس الشباب وحفزهم الى خوض المعركة ، فهو الشاعر التونسي بل الشاعر المغربي الوحيد الذي عرفه الشرق وطالع ديوانه

كاملا ويكفيني ان اذكركم بالبيتين الشهيرين :

اذا الشعب يوما اراد الحياة   فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد للظلم ان ينجلي   ولا بد للقيد ان ينكسر

ثم جاء طور المعركة الحاسمة فلم يتخلف الشعر ولم يتخلف الادب عنها . واذا بالشعراء يتغنون بالمجاهدين الاحياء منهم والاموات ، واذا فرحات حشاد والهادي شاكر وجميلة بوحيرد وغيرهم ممن يقودون اليوم الشعوب لشمال افريقيا رموز لما يجب ان يتصف به كل مواطن وكل مواطنة من صفات البطولة والاريحية الوطنية .

وانك اذا طالعت ما ينظمه شعراء المغرب العربي اليوم لتلاحظ ان البطولة التي يصورونها بطولة اصيلة شريفة متسامية توفق بين الشجاعة والراي وتجعل الاثنين يخدمان المثل العليا والقيم الانسانية الخالدة .

فهذا المجاهد التونسي يقول في شعر منور صمادح بعد قذف الطائرات الفرنسية لساقية سيدي يوسف الشهيرة :

سوف لا اقتل اطفالا   كما هم قتلوا
سوف لا اعدم نسوانا   كما هم حللوا
سوف لا يغدر في ارضي   السليم الاعزل
انا جندي شريف   وشجاع بطل
سألاقي الجيش لا العزل   لا لا افعل

والبطل في ادبنا المغربي الحديث ثائر لانه لا يطيق الضيم ولا يصبر على الذل والهوان ويتحمس بقدر ما يمعن العدو في القمع ، ولكنه يعلم ان الثورة وسيلة لا غاية لانه ليس بالفوضوي الذي يلتذ بالهدم والقتل من حيث هما ، ثورته سبيل الى العالم الافضل الذي ينشده . وهذا الشاعر الجزائري ابو القاسم خمار ينظم الشعر الحماسي فتشتد لهجته ويدرك ان عاطفته ليست طبعا فيه لانه عنصر بناء لا تخريب ، لا عامل شر فيلتمس العذر من اخيه القارىء قائلا :

لا تلمني اخي فما لام جندي   اخاه الا واعقب عذرا
ان حظني من بهجة ان اخيا   ابيا او ان اموت ابرا
كل جيل ودوره .... ولقد كان   لجيلي معامد الحرب دورا
هكذا املت المقادير ان ثوروا   فثرنا لنقهر البغي قهرا
لا تلمني ، وسائل العقل عني   كيف ابدو لو انني كنت حرا

والبطولة التي يصورها ادبنا المعاصر في شمال افريقيا بطولة انسانية نزاعة الى الحياة الانشائية تواقة الى « المستحيل ترغمه على الامكان » ، زاخرة بالمحبة والاخاء .

هي بطولة تصور الحياة الزاهية الجميلة توهب في سبيل الحياة الحية ، بل استمع الى هذه الابيات التي اقتطعها من قصيدة طويلة للشاعر التونسي احمد مختار الوزير نظمها منذ اسابيع قلائل بمناسبة دخول الثورة الجزائرية المباركة في عامها الخامس واهداها الى بطلة الجزائر وفخر شبابها بل فخر العرب اجمعين « جميلة بوحيرد » يصفها وقد حملها الوعي الى الكفاح والانضمام الى اخوانها المجاهدين في سبيل العزة القومية فيقول :

وسارت جميلة بين الشعاب   تنقل كالظبية العاديه
وعانقها النور نور الضحى   وابصرها فتنة غانيه
وابصر من عينها راميا   الا حبذا الامين الراميه
وابصر من نهدها قائما   ترجرجه الخفة اللاهيه
وابصر من خصرها رقصة   تحامى بها العثرة الكابيه
وباركها النور ألوانه   والبسها حلة زاهيه
وسارت ترنح مختالة   على صخرة الاطلس النابيه
فوجه سني وروح ابي   وحب سخي وهذا هيه

ويختم القصيدة ، فاذا جميلة رمز الحياة توهب في سبيل الحياة والوجود الاكمل

جميلة انت الوجود بما   تريدين مختارة راضيه
وانت الحياة واكوانها   بما فيك من عزمة ماضية
وذاك الاله السخي السناء   يبارك احلامك الزاكيه
هو الحب كوثرة زاخر   واثمار جنته دانيه
فكوني لقومك كوني لهم   من الحب ايته العاليه

واحب ، سيداتي سادتي ، ان اختم هذه العجالة بهذه الابيات الزاخرة حياة ، الطافحة املا ، النابضة محبة وبطولة وايمانا بمستقبل الجزائر والمناضلين في كل مكان في سبيل الوجود الحق والكرامة والاستقلال وما اليه يسعى كل بطل في كل زمان ومكان .

محمد مزالي

وقائع المؤتمر الرابع للأدباء العرب وتوصياته

عقد مؤتمر الادباء العرب دورته الرابعة في مدينة الكويت بين ٢٠ و ٢٨ ديسمبر ١٩٥٨ بدعوة من حكومة الكويت التي ابدت من حسن الضيافة والرعاية ما ملأ نفوس اعضاء الوفود غبطة ورضى والهج السنتهم بالثناء . وقد اشترك في المؤتمر تسع عشرة دولة عربية ، وكانت وفود هذه الدول اكبر الوفود التي حضرت في جميع الدورات ، وكان في عداد الوفود ممثلون عن دور النشر وممثلون عن الصحافة . وكانت اعمال المؤتمر تتناول مبحثا نظريا هو « البطولة في الادب العربي » وبحثا عمليا هو « قضايا الكتاب العربي » . وقد تألفت لبحث الموضوع الاخير لجان من مختلف البلدان انقسمت الى خمس : لجنة النشر والتوزيع ، ولجنة الترجمة ، ولجنة التراث ، ولجنة المجلة ، ولجنة حقوق المؤلفين . وكانت هذه اللجان تجتمع صباح كل يوم لوضع توصياتها ومقرراتها ، بينما كانت المحاضرات تلقى بعد ظهر كل يوم ويعلق عليها المعلقون ويناقشها المناقشون.

وقد افتتح المؤتمر بعد ظهر السبت في ٢٠ ديسمبر، فالقى رؤساء الوفود كلمات الافتتاح التي بداها سمو الشيخ عبد الله الجابر الصباح رئيس المعارف ، وهذا نص الكلمة :

سيداتي سادتي :

باسم سيدي صاحب السمو حاكم الكويت المعظم ، وباسم الكويت شعبا وحكومة ، يسرني ان احييكم وارحب بكم واشكركم على تلبيتكم دعوتنا لعقد الدورة الرابعة لمؤتمر الادباء العرب على ارض الكويت .

لقد حللتم اهلا ونزلتم سهلا ، وهذه بلادكم وانتم بين اخوتكم واهليكم.

سيداتي سادتي :

اننا نحن العرب ، في هذه الفترة من تاريخنا ، هذه الفترة التي استيقظت فيها الامة العربية بعد سبات طويل ، اشد ما نكون حاجة الى ان يتعرف بعضنا الى بعضنا الاخر ، اشد ما نكون حاجة الى تبادل وجهات النظر ، في كل شان من شؤن وطننا العربي اليوم ، سواء في المشكلات الاقتصادية ، او المشكلات السياسية او شئون الادب والفن . ان الاحاطة الشاملة بقضايا الوطن العربي ومشكلاته فرض على كل عربي واع في الوقت الحاضر ، فهذه المعرفة اساس متين للعمل المثمر في سبيل حريتنا واستقلالنا ووحدتنا الكبرى ، امل العرب المنشود في اقطارهم كافة .

ومؤتمركم هذا ، في دورته الرابعة يناقش موضوعا من موضوعات الساعة « البطولة في الادب العربي » ، ومشكلات الادب العربي . والبطولة في الادب العربي ــ كما اتصورها ــ هي انعكاس لبطولة الشعب العربي نفسه بما فيه الادباء ، بل ان اجمل الاشعار التي قيلت في البطولة عند العرب ، هي التي قالها شعراء ابطال ، حملوا السيف بجانب القلم ، فالبطل



في جلسة الافتتاح : رئيس المعارف الامير عبدالله الجابر الصباح وعن يمينه الاستاذ سعيد فهيم فالدكتور سليم حيدر ، وعن يساره الدكتور مهدي علام فالاستاذ سعيد البوادري

الكاتب او الشاعر هو اقدر الناس على التعبير عن معاني البطولة ، وشاعر العربي يقول :

لايعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

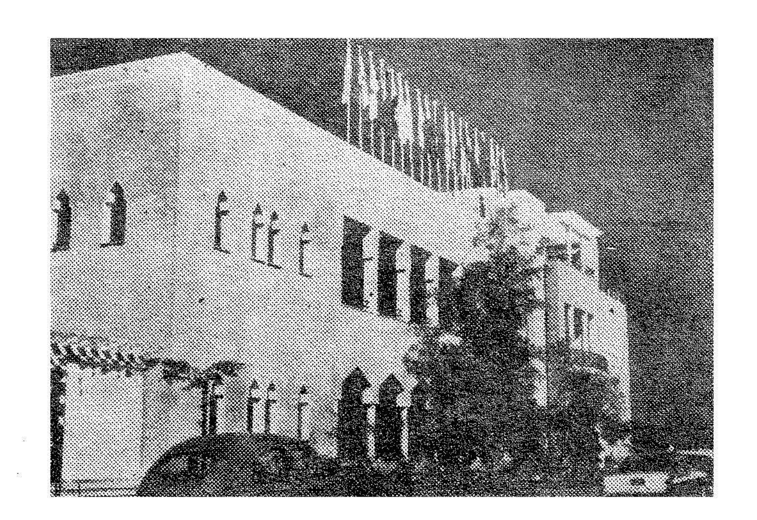
اما الكتاب العربي ــ سجل الثقافة العربية ــ فهو الذي حفظ للعرب وحدتهم في الشعور ووحدتهم في الاهداف ، وجدير بنا ان نكرم هذا الكتاب بتيسير كل الصعوبات التي تواجه انتشاره وازدهاره والارتفاع بمستواه في وطننا العربي .

واختتم هذه الكلمة فاكرر شكري لكم ورجائي في ان تعتبروا انفسكم بين اهلكم واخوانكم .. وادعو الله لكم بالتوفيق الشامل فيما انتم مقبلون عليه في مؤتمركم . سدد الله خطانا جميعا لما فيه الخير لامتنا العربية. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمات الوفود

ثم القى الاستاذ سعيد فهيم كلمة وفد الجامعة العربية فتحدث عن دور الادباء في ايقاظ الوجدان القومي ودفعهم ضريبة الدم ، وذكر ان الادارة الثقافية بالجامعة تعتبر الثقافة والايقاظ القومي من اسمى رسالاتها ، وحث المؤتمرين على ان يهتموا بالعمل على وصل النهضة الادبية بتراثنا وتوجيه العناية بالادب الخاص بالاطفال .

والقى كلمة الاردن الاستاذ ابراهيم القطان فحيا الكويت الذي يسهم في تحقيق الوحدة العربية ، وتحدث عن الادب فقال انه صورة ناطقة بالحياة يطورها ويتجاوب معها ، وتطرق الى ما في حاضر الامة من احداث جسام وقال ان الادب ما لم يتجاوب معها فقد معناه ، وذكر ماساة فلسطين



مقر سكرتارية مؤتمر الادباء العرب في الكويت

ونبه الى ضرورة عمل ما في وسعنا لتلافي وقوع مثلها في الجزائر .

وكانت كلمة البحرين للاستاذ ابراهيم العريض فعبر عن اعتزاز البحرين باخوة الكويت المضياف ، وذكر بعد ذلك نعم الله على العرب الذين يشرفون على الحضارات والذين كانوا جسرا بين حضارتين دائما ، وطلب الجمع بين روحانية الشرق ومادية الغرب .

والقى الاستاذ محمد المزالي بعد ذلك كلمة تونس فقال ان موضوع بحث البطولة يخلد شرف الارض التي تنضح على ارضها البطولة ، وقال ان الادب هو الذي كون مثل العروبة في جاهليتها واسلامها واعتبران الجيل الطالع سيتغذى من الروح التي سيبرزها المؤتمر

وكانت كلمة الجمهورية الجزائرية للاستاذ محمد صالح فقال ان هذا المؤتمر لبعد ثورة عربية اخرى ، وانه حداء قافلة الحرية في الجزائر واضاف : ما من ثورة عربية قامت فحققت بعض اماني العرب الا وكانت قوة للثورة الجزائرية التي ستحقق كل اماني العرب . ثم تحدث مطولا عن ثورة الجزائر الباسلة وعن البطولات التي تصدر عنها ، وقال ان رجاء الجزائر هو ان يخدمها القلم العربي وهي تخدمه بالرشاش وان يجعل من قضيتها موضوع الساعة وان يشهر بوحشية المستعمرين في اراضيها وتتعهد في مقابل ذلك ان لا تلقي السلاح حتى تجعل البطولة نصرا محققا .

وكانت كلمة وفد السودان قصيدة عربية طيبة القاها الاستاذ منير صالح عبد القادر .

والقى الشاعر الاستاذ محمد مهدي الجواهري كلمة وفد الجمهورية العراقية فبدأها بسلام الله والعروبة والشعب ، وذكر قصة حدثت له في طريقه الى الكويت مع الدكتور المخزومي ، وقال ان المسافة من البصرة الى الكويت تستغرق تدخين سيجارة واحدة فقط . كانت معنا سمات مرور وجوازات ... وكنت ساهما فلما سألني الدكتور مخزومي عن السبب قلت تذكرت رحلتي الى يافا ... سنة ١٩٤٦ هذه الرحلة التي فيها حزن وعبرة .. وروى بعد ذلك ابياتا من شعره في « يافا » انهاها بقوله :

فمن وطني الى وطني رجوع   وعن اهلي الى اهلي ايـاب

ونقل بعد ذلك تحية العراق والزعيم عبد الكريم قاسم وتحية بغداد وشبابها وشيوخها وفتياتها .. تحية عاصمة الفكر الاول للعرب والاسلام، وتحية ثقيف وربيعة وتحية الشمال ، الشامخ الصامد ، تحية احفاد صلاح الدين .

ثم نقل بعد ذلك كلمة الزعيم عبد الكريم قاسم . قال : قال لي الزعيم انت تعلم انني لا احب الحذلقة ، فانا رجل بسيط جدا ولكن لا بد من كلمة . سلام على الشعب العربي الكويتي وعلى اخوتي سمو حاكم الكويت واسرته ، قل يا جواهري ان العراق جزء من الامة العربية واننا سنعمل جاهدين ليس من اجل استقلال العراق فحسب بل من اجل مساعدة كل قطر عربي ... ليصبح الجسم العربي سليما ... اننا على العهد باقون ، والى جانب كل بلد عربي مجاهد لواقفون ، ولكل عدو متربصون. لقد حكمنا على بعض الرؤوس بالاعدام لانها تآمرت على سوريا . وسنعمل ما في وسعنا لدفع كل تآمر جديد على الجمهورية العربية المتحدة ... وقـال :

انني اذ انقل هذه الكلمات ، امام الله والزعيم نفسه لاعتبرها داخلة في مؤتمرنا هذا موءتمر البطولة ... هذه البطولة العربية التي اختلفت صورها وتطورت مفاهيمها على مدى الزمن ...

ثم كانت كلمة وفد المملكة السعودية القاها الاستاذ سعيد البواردي فبارك للمؤتمر خطواته في سبيل انتصار القضايا العربية ورجا ان يكون حلقة ارتباط قومية بين ابناء الوطن تجسم الوحدة وتتحدى الدخلاء وكشف طريقها الى مستقبل افضل متحرر من كل قيد وبلبلة .

والقى كلمة الجمهورية العربية المتحدة الدكتور مهدي علام ، فذكر ان المؤتمر الاول في لبنان كان دليلا على ان الادباء العرب قد عرفوا ان لهم دورا وعليهم ان يتجمعوا . اما الموءتمر الثاني فقد كان تأكيدا لهذه الدلالة لا سيما وانه عقد بين التأميم ومعركة قناة السويس . وفي المؤتمر الثالث تبلورت الاراء في صورة قرارات بشأن قضايا فلسطين والجزائر وعمان . ثم تحدث عن البطولة ، موضوع المؤتمر الحالي ، قائلا انها ليست فردية، واعتبر تيسير مشاكل الكتاب العربي خطوة هامة في سبيل ايجاد تضامن عربي .

وقال الاستاذ محمد امين عبدالله مندوب مسقط وعمان انه ينتظر الشيء الكثير على يد هذا المؤتمر ، والقى على عاتق الموءتمرين مسؤولية تدعيم الروابط الحقيقية وتحقيق الوحدة الفكرية .

وكانت كلمة وفد فلسطين للاستاذ رامز فاخره وقد تحدث فيها عن انتصارات الجمهورية العربية المتحدة وكفاح العراق والسودان والجزائر وصمود فلسطين واصرار اهلها على الايمان بحقهم في وطنهم

وقال الدكتور سليم حيدر الذي القى كلمة وفد لبنان : باسم الحرف نجتمع ، باسم الروح السارية في عروق الحرف ، هذه الروح التي صنعت الثورة الفرنسية ، واشار الى دمدمة الثورة في كيان الامة العربية وقال : ان حيوية الفكر هي عنوان حيوية الامة وهذا المؤتمر هو عنوان حيوية الفكر العربي ، ومتى تفاهم رجال الفكر فالشعوب في خير .

والقى الاستاذ عبد الرحمن السمرة كلمة وفد قطر فتحدث عن تخلف الادباء الذين لم يسجلوا البطولات ولم يقدموها بالصورة المحببة التي كان يجب ان تقدم ، وذكر بطولة الشعب العربي التي لم تكن مذكورة قبل ثلاث سنوات وكيف استطاع ان يملي ارادته وان يسطر صفحات كثيرة من المجد .

وقال الاستاذ خليفة التليسي باسم الوفد الليبي : ان الاديب في هذه المرحلة التي يمر بها الكيان العربي يصنع البطولة .. وان المؤتمر معنى من معاني الكفاح وتاكيد للحقيقة العربية ، وان واجب الاديب ان يعكس البطولات وان يتفاعل معها

والقى الاستاذ عبد الكبير الفهري الفاسي كلمة المغرب فقال مما قاله ان البطولة من مقومات العرب النفسية وهي من جملة ما يتصفون به .

وكانت كلمة اليمن للقاضي الشماحي فحيا المؤتمر شعرا ونثرا .

وفي الختام القى الاستاذ عبد العزيز حسين مدير معارف الكويت الكلمة التالية :

باسم الوفد الكويتي ، وباسم المثقفين بالكويت ، وباسم عروبة الكويت، ارحب بكم ، واتمنى لكم اطيب الاوقات ، واحفلها بالسعادة في ربوع وطنكم الكويت .

ان من دواعي فخرنا واعتزازنا ان ينعقد مؤتمر الادباء العرب في دورته الرابعة على ارض الكويت ، وان يتدارس موضوع البطولة في الادب العربي ، وقضايا الكتاب العربي على جزيرة العرب نفسها ، هذه الجزيرة التي انطلق منها اول موكب حافل في التاريخ للبطولة العربية ، وخرج منها اول كتاب عربي مبين لهداية البشرية ... ما اعجب الاتفاق ! العرب في واقعهم البطولي يعقدون مؤتمرهم في موضوع البطولة والكتاب ، على ارض البطولة العتيدة والرسالة المجيدة ، انها ذكرى الامس وعمل اليوم وامل المستقبل ...

سيداتي سادتي .

منذ ظهرت امتنا العربية على مسرح التاريخ وهي تعبر عن وجودها ببطولاتها وتاريخنا العربي كله سلسلة متصلة الحلقات لبطولات متعددة الجوانب .

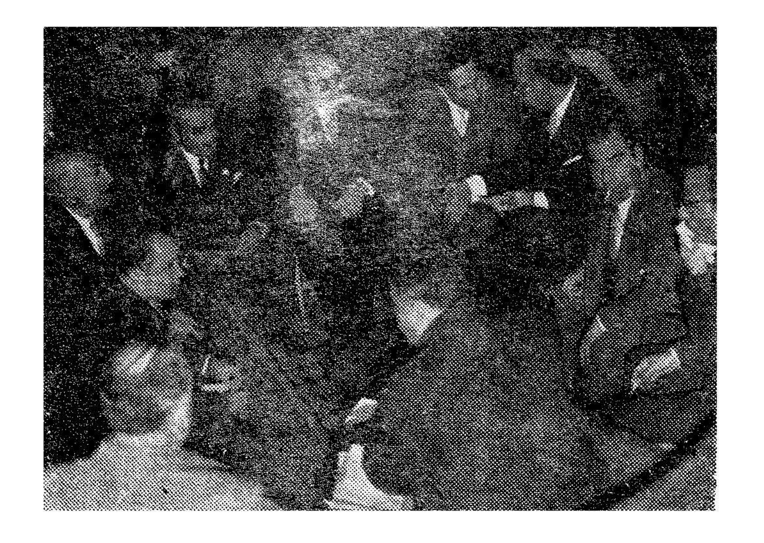
لعل اوضحها في ذاكرتنا تلك البطولات التي زخر بها المد العربي الثوري الاسلامي . فما كادت العقيدة تستولي على نفوس العرب حتى تحولت الى نضال فجر في النفس العربية فيضا واقعا من البطولات ،كان من ثمارها هذا التراث العربي الضخم الذي يعايشنا ويمدنا بالقوة والعزم في نهضتنا القومية الجديدة .

لقد امن الشعب العربي عبر الاجيال والقرون بالتلازم القائم بين العقيدة والنضال ، وان الفصل بينهما ينتهي بالعقيدة الى الجمود وينتهي بالنضال الى الفشل . واليوم يستمر نضال الشعب العربي في سبيل عقيدته القومية التي تهدف الى الوحدة والتحرر والعيش في امن وطمأنينة ، وهو لا يزال يكتب بدمائه سجله الحافل بالبطولات ، وان هذه الثورات التي تشتعل في بعض جوانب الوطن العربي ليست الا تعبيرا اصيلا عن وحدة العقيدة والنضال في النفس العربية .

لقد ادرك الشعب العربي ما جنت عليه الفرقة والتجزئة . ادرك انه مهدد بالابادة والقضاء على ثقافته وامكانياته المادية والادبية ، وامن ان سبيل الخلاص من كل ما يعوق سير تقدمه هو الوحدة المتحررة .

ان معاركنا مع الاستعمار والصهيونية لا تزال مستمرة ، وشهداؤنا في فلسطين لم تجف دماؤهم بعد ، وما زالت تستصرخنا لاخذ الثار ، وشهداؤنا بعمان وجنوب الجزيرة يتساقطون برصاص الاستعمار ، كما تساقطلهم اخوان من قبل ببور سعيد . وهذه الثورة التي لا يزال اوارها مشتعلا في الجزائر ، هذه الثورة التي لم يعرف لها العالم مثيلا تعطي للعالم مثلا رائعا لما في النفس العربية من رصيد بطولي لا ينفد .. ولا يزال طريق الكفاح طويلا يتطلب الكثير من التضحيات كما يتطلب الكثير من الاعداد .

ان واقعنا يفرض علينا التزامات ومسؤليات ، ويطالبنا بتضحيات اكثر وبطولات اروع ، ويضع على عاتق المثقف العربي والاديب العربي مسؤليات جساما يضع على عاتقه مهمة اذكاء النفس العربية للبذل والعطاء. مهمة الاديب في الوقت الحاضر هو ان يرتفع الى الذروة من النضال



في احدى الجلسات الادبية ، من اليمين : الدكتور دهان ، الدكتور حيدر، ميشال حلوه ، حسن الزين ، صلاح الاسير ، سامي الكيالي ، الدكتور ادريس ، رئيف خوري

مهمته ان يكون بطلا .

اما قضايا الكتاب العربي ، وهي الشق الثاني من عمل المؤتمر ، فقد سبق ان درس بعض جوانبها واتخذت بشانها توصيات . وارجو ان يوفق مؤتمرنا هذا الى تذليل الصعوبات التي حالت دون تنفيذ بعضها ، كما ارجو ان يوفق الى اعطائنا حلولا عملية للمشكلات التي تحول دون حرية الكتاب العربي وتداوله وتقريبه للقارىء العربي في كل جزء من وطننا الكبير ، والى بعث تراثنا الفكري ووضعه في متناول يد القارىء العربي والاجنبي والى اغناء المكتبة العربية بالصالح من الانتاج الفكري العالمي والى ان يحتل نتاجنا الادبي مكانته بين الاداب العالمية .

المحاضرات والتعليقات

وتتابع المحاضرون في الايام التالية فالقوا محاضراتهم المعدة . وكانت المحاضرة الاولى لمندوب السودان الاستاذ محمد مهدي المجذوب في موضوع « البطولة كما يصورها الادب العربي في العصر الجاهلي » ويرى القارىء نصها في مكان اخر من هذا العدد .

وقد علق على هذه المحاضرة الاستاذ عبد العزيز الرفاعي من المملكة العربية السعودية فاثنى على محاضرة المندوب السوداني وتحدث عن اثر البيئة العربية في الادب الجاهلي ، واشار الى الاستعمار الذي يحاول ابقاء البداوة في جنوب الجزيرة بكل منازعاتها وقال ان الوعي العربي سيكتسح ذلك وان تنمية البطولة الصحيحة سيسهم في دحر الاستعمار والصهيونية واستبعد من ذلك البطولة المنحرفة ، البطولة الحربية التي تعني ان يسفك سيف عربي دما عربيا . واشار الى الحيوية الفائقة التي استغلها الاسلام ووجهها فامتدت العروبة الى كل اقطارها الماثلة اليوم

وعلق الاستاذ سيف الدين الكيلاني (الاردن) على محاضرة المندوب السوداني كذلك ، فأشار الى الجهود الذي بذله في تحليله الموفق لمعنى البطولة ، وفي ربطها بالمسلك الانساني وتطور المجتمعات ، واختلاف نظرتها . وذكر ما تطرق اليه المحاضر من مظاهر البطولة ، وفرق بينها وبين الغرور واعتبر البطولة جراة خارقة وبذلا وكرما وفداء وتضحية ومروءة ونجدة وعفوا عند القدرة وحماية الذمار ، وليس بطلا من تجد في نفسه الجراة على الاعتداء بلا مبرر .

وتساءل عن مآثر النظام القبلي بما فيه من غزو وسلب ، هذا النظام

وفي اليوم التالي القى الاستاذ محمد مزالي رئيس الوفد التونسي محاضرة عن «البطولة كما يصورها الادب العربي في شمال افريقيا» وهي منشورة في هذا العدد . وقد علق عليها الاستاذ مفتاح الشريف (ليبيا) فاثنى على البحث ولكنه اخذ على المحاضر انه نسي بطولة شعب ليبيا التي تجاوزت الحدود فتفاعل معها الشعراء العرب واستشهد بقصيدة شوقي في البطل عمر المختار ، كما اخذ على المحاضر اطلاق بعض الاحكام الصوفية والاستشهاد ، في معرض الحديث عن كفاح الشعب الجزائري ، بابيات مبتذلة لا تقف حتى امام الحس الفني المجرد

وعلق الاستاذ عبد الله احمد حسين ، عضو وفد الكويت ، على المحاضرة نفسها فلاحظ ان قصيدة ابن هاني لا تصور البطولة بقدر ما تصور الوثنية، وتحدث بعد ذلك عن بطولة الفتح العربي وحلل كيف ان الادب العربي في الاندلس وشمال افريقيا قد صور « الروح القومية التي ظهرت بشكل عفوي بسيط في ترابط افكارهم مع عرب المشرق وانتظام ذلك في سلك واحد تعلنه الارادة العربية الجبارة التي ظهرت عملاقة قوية في هذا العصر عصر الوحدة الشاملة »

والقى الدكتور شكري فيصل عضو وفد الجمهورية العربية المتحدة بحثا عن « البطولة في الادب العربي منذ سقوط بغداد حتى فجر النهضة الحديثة » يجده القاريء منشورا في هذا العدد . وفي اليوم التالي القى الدكتور سهيل ادريس عضو الوفد اللبناني محاضرته عن « البطولة في الرواية العربية الحديثة » والاستاذ عبد الرزاق البصير بحثه عن «البطولة في الشعر الحديث » والدكتور عبد القادر القط بحثه عن « البطولة في الادب المسرحي » وهي منشورة كذلك هنا ، ونأسف اننا لم نستطيع الحصول على تعليقات المعلقين حول هذه الابحاث .

وكانت محاضرتا اليوم الاخير عن « البطولة في ادب الاطفال » للاستاذ احمد ابو بكر ابراهيم من الكويت ، و « البطولة في الادب الشعبي » للدكتور عبد الحميد يونس من الجمهورية العربية المتحدة ـ ويجد القاريء تعليق الاستاذ رئيف خوري على البحث الاول في مكان آخر .

التوصيات

هذا وقد اصدر المؤتمر في اليوم الاخير التوصيات التالية :

تمهيد : ان الادباء العرب المجتمعين في المؤتمر الرابع المنعقد في الكويت من ٢٠ الى ٢٨ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٥٨ لبحث موضوعي البطولة كمايصورها الادب العربي ، ومشكلات الكتاب العربي يعلنون :

ان الحياة العربية قد حفلت من اول نشأتها حتى عصرنا الحاضر بصور البطولة الصادقة التي تمثلت البطولة شجاعة اقداما واصالة رأي وتضحية واستشهادا وعفة ونبلا وكرما وايثارا ونجدة ووفاء .

وأن الادب العربي في فنونه المختلفة قد سجل هذه الصور البطولية تسجيلا رائعا خالدا .

وان هذه البطولات التي تلاحقت في مختلف اقطار الوطن العربي الكبير وفي مختلف اطوار تاريخه والتي تلتقي في جوهرها ومثلها العليا ، انما هي تعبير صادق عن روح امة واحدة انبثقت عنها عقيدة واحدة يؤمن بها كل مواطن عربي ويعتبرها نصاب وجوده : الا وهي القومية العربية التي اصبحت اليوم محور التفكير الاساسي في حياة كل عربي كاتبا كان او غير كاتب .

ولذلك قد اتخذ المؤتمر قرارات بالتوصيات الاتية : ـ

اولا : ـ في التاليف والنشر

أ ـ يدعو المؤتمر جميع المؤلفين بوجه عام الى العناية بموضوعات

ـ التتمة على الصفحة ١١٣ ـ



اللوحة الفائزة بالجائزة الاولى

الموضوع : كفاح المرأة ـ للفنان رمزي كيلو

الذي يجعل المرء مسيرا للقبيلة . وقال ان مثل هذا النظام لا يمكن ان يرتبط بالمسلك الانساني .

واشار بعد هذا الى نقص في الاستشهاد والتحليل ، فلم يذكر الا عددا من الابيات ، بعد ان تحدث عن البطولة مجردة ..

واستشهد بابيات شعرية لعنترة وطرفة وامريء القيس وغيرهم ، وذكر ابطال السلام ، قائلا ان التوفيق قد جانب الزميل مندوب السودان ، لانه لم يذكر بطلي السلام اللذين ذكرهما زهير في معلقته وعطف بعد ذلك على موضوع المرأة والبطولة ، وقال ان الزميل لم يذكر الشواهد . واضاف اسم بطلتين عربيتين هما الزباء والخنساء .

اما الصعاليك فقد قال انهم ليسوا جميعا ابطالا ، وقد قسم عروة بن الورد الصعاليك الى فئتين احداهما تستحق البطولة فقط ...

وفي الختام ذكر ان تاريخ الادب العربي حافل بالبطولة ، غير ان عناصر هذه البطولة الجاهلية كانت اشبه بالمواد الخام واشار الى الكيفية التي تعهد بها الاسلام البطولة الجاهلية ، فكانت الحضارة العربية .

وفي اليوم نفسه القى الدكتور صلاح خالص مندوب الوفد العراقي محاضرته عن « البطولة كما يصورها الادب العربي بعد ظهور الاسلام حتى سقوط بغداد » ويجدها القاريء منشورة في مكان اخر من هذا العدد . وقد اثارت هذه المحاضرة كثيرا من المناقشات والتعليقات ملات الجو بالتوتر واثارت من الاستفزازات الديماغوجية ما كنا نود ان يتنزه عنه بعض المشاركين من الادباء والحضور . ولسنا نجد فائدة من تفصيل ذلك.

البطولة في الرواية الحديثة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

الطبقات فيه ذروته . ((واما عبده)) عمه المحبوب ، فثائر هو الاخر على الظلم الاجتماعي . وهو يثور على فكرة المراتب التي كانت تسيطر على جميع الاسر البورجوازية في مصر . ولقد رأى اخته تعطي الخادم طعاما لم يكن احد راغبا فيه ، فصاح بها غاضبا : ((اليس مبروك رجلا مثلنا ؟ أليس هو منا ؟ متى كنا نعامله بخلاف ذلك ؟ ومتى كنا في البيت على درجات ؟)) ثم اننا نراه يهاجم بكل جرأة المشعوذين والسحرة الذين كانت اخته تتوجه اليهم والذين كانوا يريدون)) ان يهدموا البيت ببخورهم وطلاسمهم)) !

وبعد فان محسن يظل رمزا للبطل العصري الحقيقي . لقد اصيبهو واعمامه بخيبة في حبهم ، ففروا الى ميدان العمل الوطني الذي طهر ارواحهم وشفاهم ، وهذا الفرار هو احدى الخصائص العصرية للبطل الحديث . فلقد رأيناهم ذات لحظة غارقين في الاسى واليأس ، ولكنهم امتلأوا بعد ايام بالحماسة واستخفهم النقاش في الوطنية . وقد كان محسن اشدهم تغيرا ، فان قلبه الذي حطمته خيبة الحب عاد يخفق من جديد في سبيل وطنه ، ومن اجل هذا الوطن مضى ينفق مذخور حبه الذي كان يكنه للفتاة . ثم ان الالام التي عاناها جعلته اقوى على التضحية واشد احساسا بالبذل . فلم يعد يعنيه شيء من مسرات الحب او من النجاح في الامتحان ... انه لا يفكر بعد الا بقضية وطنه ، وهكذا يصبح لسان حال تلك الشبيبة كلها التي تنشد الاستقلال .

ثم اننا نجد مثالا آخر للصراع الجماعي في قصة طويلة للدكتور يوسف ادريس بعنوان ((سره الباتع)) صدرت اخيرا في مجموعة قصصية بعنوان ((حادثة شرف)) وليس في هذه القصة الا بطل رمزي هو فلاح من فلاحي قرية احتلها الفرنسيون ايام حملة نابليون على مصر ، وكان اسمه حامد ، قاد معركة ضد الجنود الفرنسيين بعد ان قتلوا شيخ قريته ، وكانت سمته المميزة وشم عصفورتين على وجنتيه وبنصرا مقطوعا من يده . وقد أخذ الفرنسيون يطاردونه واثقين من انهم سيقبضون عليه بفضل هذه السمة المميزة .. ولكنهم فوجئوا بان عصابات صغيرة بدأت تتكون من مبتوري البناصر وواشمي العصافير يسمون انفسهم اولاد حامد ، فأصبح هم المستعمرين القضاء على اسم حامد ، لا على شخصه ، لاسيما وانه قد اصبح السلطان حامد . وغزا اسمه كل انحاء الدلتا ومصر العليا . ثم قتل حامد ، فهاج الشعب واقام له ضريحا ، وبدأت الوفود تزوره وتشعر بانها مرتبطة به أشد الارتباط . ((ماذا كان حامد هذا قد فعل ليتجمعوا حوله بتلك الطريقة المذهلة ؟ وهل لانه قتل فرنسيا انتقاما لمصرع زميله الفلاح يرفعونه الى درجة كبيرة من التقديس؟ ام لانه تحرك في وقت كانت الناس في حاجة لان ترى فيه واحدا يتحرك كي تنطلق من عقالها وتندفع في كل اتجاه))؟ لقد علق الراوي الفرنسي في القصة على ذلك بقوله . ((جئنا نغزو هؤلاء القوم بتفوقنا ، بمدافعنا، بموسيقانا النحاسية ومطبعتنا وتفاعلات كيميانا ، ولكن انى لنا بقدرتهم الخارقة على التكتل والحب والبقاء ؟ انى لنا بايمان كهذا ؟ انى لنا بالقدرة على ان نكون افرادا اذا اردنا وكتلة واحدة حين نشاء ؟)) وحين قطع الفرنسيون جثة حامد ووزعوها في انحاء البلاد ، بدأ المصريون يقيمون ضريحا فوق كل مكان سقطت فيه قطعة من جسد السلطان ، ثم يكون الازدحام الهائل عند كل ضريح ((وادركت ان ما تحت قبة الضريح ليس هو المهم ، المهم هو الاجساد الخشنة الغليظة الملتفة حول الضريح ، المهم هو النداء الواحد الصادر من الافواه الواسعة الجائعة ، المهم هو الوجه الاخر للوحش الخرافي الذي خلع قلوب جنودنا بضربة واحدة من يده ، المهم هو ما تفرزه هذه الجموع ويتصاعد منها ويتجمع ويتداخل ويتبلور ويختلط باضواء المشاعل وانوار الشوارع وقرعات الدفوف واهتزازات الاجسام ..وضريح حامد كان هو البؤرة التي تتجمع حولها الارادات وتلتقي لتصبح اكسيرا سحريا قادرا على تحقيق الخلود . ماذا أقول ؟ لقد وقفت خاشعا واجفا اراقب الجموع وهي تفرز الايمان وتشترك في خلقه .. ويتصاعد النداء الواحد من القلب الواحد ، فيصبح حين يلتقي بغيره مادة سامية حية تعود تنسكب في كل قلب ، تطهره وتقويه وتغذي فيه روح البقاء .. لقد احسست بعظمة الحياة وروعة ان نكون بشرا وآدميين نمتلك هذه القدرة المعجزة . قدرتنا على ان نتجمع ليصدر عن تجمعنا ما هو اسمى من حياة كل منا ... ما فائدة البنادق والرصاص ؟ الكي نخضع هؤلاء الناس بقتل بعضهم ؟ وما فائدة القتل في قوم يحبون قتلاهم وموتاهم ؟ في قوم يخلقون من الميت الواحد مئات الاحياء ، ويخلقون لكل حي بعد هذا آلاف الاولاد ؟))

ولا حاجة بي بعد الى ان اعلق على هذه البطولة الجماعية التي يتحلى بها الشعب في مصر ، والتي هي كامنة من غير شك في اي جزء آخر من اجزاء الشعب العربي الكبير . وهذا ما نجده حقا في قصة اخرى رائعة لفؤاد الشايب هي التي تحمل اسم مجموعته الفريدة ((تاريخ جرح)) وتصور الارهاب والظلم اللذين كان يعيش في ظلهما الشعب العربي في عهد العثمانيين. حاكم تركي فرض على مخاتير المقاطعة التي يحكمها ان يأتوه بفتاة جميلة فر اخوها من خدمة الجيش ، فرفض المخاتير ذلك وتحملوا الوانا من الذل والهوان . ولكن الفتاة ما لبثت ان برزت هي نفسها في ساحة القرية العامة ، حيث تجمع السكان يتداولون في الامر وبعد ان مزقت ثيابها وتعرت تماما ، دعت المخاتير وهي تشتمهم الى ان يقودوها الى الطاغية . وفي هذه الاثناء برز شقيقها الفار فجأة ، فاذا جميع القرويين يثورون معه على الحاكم ، ويقصدون قصره فيزيحون رجال الشرطة فيجدون الحاكم يشرب الخمر ثملا ، ولا يتردد الاخ في قتله ، ثم يرتد الى اخته فيطعنها حتى ((لا يراها احد بعد الان ابدا)) كما قال . وفكرة هذه القصة تتضمنها العبارة التالية الواردة في ثنايا السرد : ((ان حبة صغيرة من الارادة الصادقة جدير بها ان تضع حدا لاشد المظالم وتولد اشد الثورات تطهيرا .)) وهكذا تنتصب تلك القروية بطلة شهيدة تشق للمجتمع طريق الحرية .

★

وقد كان من الطبيعي ان يستوحي ادباؤنا التقاء الشرق والغرب في هذه الفترة من نهضة العرب ، ومن استعمار الغرب لهم ، فنشأ لون من الادب الروائي يصور هذا الصراع الذي يبزغ من التقاء هذين العالمين المختلفين ، ويتحول هذا الصراع الخارجي الى صراع داخلي في نفوس ابطال عاشوا في الغرب فترة من الزمن ، ثم عادوا الى اوطانهم فاتيح لهم ان يوازنوا ويقارنوا ، ولكنهم جميعا يعودون أشد ايمانا بشرقهم وبمصيرهم المشرق فيه ، فكأنهم بذلك يرهصون بهذه اليقظة العظيمة التي بدأت انوارها تبهر العيون .

وقد جسد ميخائيل نعيمة لونا من هذا الصراع في قصة طويلة له بعنوان « ساعة الكوكو » ضمنها مجموعته المشهورة « كان ما كان » . وفيها نرى فلاحا قرويا ، يدعى خطار ، يتهيأ للزواج حين يعود الى القرية مهاجر من اميركا يجذب بماله ووجاهته انظار القرويين جميعا ، وكان هذا المهاجر يحمل ساعة كوكو تثير اعجاب الجميع بما فيهم خطيبة خطار نفسها . ثم يظهر فجأة ان هذه الخطيبة تختفي مع المهاجر . ويبلغ من يأس خطار وشدة حزنه واغراء هذه الحضارة الغربية له ان يقرر هو ايضا الهجرة الى اميركا . وقد تمكن هناك من ان يكسب في اثناء الحرب ثروة كبيرة ، وان يتزوج بامرأة اميركية تطمع بماله فحسب اذ كانت تحتقره وتنعى عليه الضعف ، وكانت تسخر خصوصا بساعة كوكو اشتراها مما اقتصده اول الامر من ارباحه وكان شديد الحرص عليها . وذات يوم التقى الزوجان ، وكان برفقتهما شاب اميركي ـ هو في الظاهر مدير اعمال الزوجة وفي الواقع عشيقها ـ بخطيبة خطار السابقة التي ظهر ان امرها انتهى الى ان تصبح خادمة لتعيل زوجها بعد ان فقد ثروته وافضى الى الفقر المدقع . وفي اليوم التالي اقبلت تزور خطار في بيته ، فاستقبلتها الزوجة الاميركية ابشع استقبال وخرجت مع عشيقها غاضبة. وفي تلك الاثناء تدق ساعة الكوكو، كما لو انها تذكر خطار بحياته الماضية وسعادته الفائتة . وبعد حين يعود خطار الى قريته بمفرده، فيستعيد حب القرويين وتقديرهم .

وواضح هنا اننا ازاء موضوع الارض الخيرة تجاه الحضارة الصناعية العاقة الهدامة . والواقع ان ساعة الكوكو رمز حضارة مادية تنجح بان تصرف امرأة عن رفيق حياتها الحقيقي وان تثني خطار عن مهمته النبيلة كفلاح . ففي هذا المحيط من المدنية المادية الذي يبرز فيه وجه امرأة خائنة ، يفقد خطار كل سعادته ، بالرغم من انه كسب ثروة عظيمة ، وهو لا يلبث طويلا حتى يشعر بان هذه الحضارة « برج شاهق تمشي دواليبه العظيمة على صدره » فيفر من جديد ليعود الى تلك الارض الامينة التي يستطيع ان يغفى فوقها باطمئنان .

وقريب من هذا الرمز ما ندركه في قصة « قنديل ام هاشم » (١٩٤٣) ليحي حقي ، وهي تروي قصة فلاح يعيش مع عائلته بالقرب من قبر ام هشام ، احدى الوليات المسلمات . وقد ارسل والد الاسرة ابنه اسماعيل الى انكلترا ليتابع دراسة الطب ، فأوصاه بان يحافظ على تقواه ليعود طاهرا ويتزوج بابنة عمه ، وهي فتاة يتيمة الابوين كانت تعيش معهم . ولكن الغرب يسحر الفلاح ، فيعود بعد ستة اعوام وقد تغيرت اخلاقه تماما . فاذا هو يواجه عالما جديدا في قريته ، عالما يحس له بالكره والاحتقار ، وما يلبث ان يثور : ضد ابويه اللذين كانا يريدان شفاء الرمد في عيني فاطمه بزيت قنديل ام هاشم ، وضد الجمهور الذي كان يطيع التقاليد اطاعة عمياء ويؤمن بمثل تلك الخرافات . ويحاول يوما ان يحطم قنديل ام هاشم فيهاجمه الناس ويضربونه فيسقط مريضا ردحا من الزمن ويفكر بالعودة الى اوروبا ليستوطنها نهائيا . ولكنه ينطوي على نفسه بضعة ايام يشعر على اثرها بان قدميه كانتا تقودانه الى حيث يقوم قبر ام هاشم فيطوف به حينا من الزمن ، وما يلبث طويلا حتى يستعيد ايمانه ويعود الى عمله فينغمر فيه حتى ينتصر على نفسه ويلتحق من جديد بالمجتمع الذي كرهه ، فيتزوج بابنة عمه وينجب الاولاد . وبديهي ان المؤلف يتخذ اسماعيل آلة للمقارنة والصراع بين الشرق والغرب . فبالرغم من الآفات التي تتآكل الشرق ، وبالرغم من الجهل والمرض اللذين يعمرانه نراه ينتصر على الغرب بفضل الروح التي تحركه وقوة الايمان التي تقوده . لقد عرف اسماعيل سذاجة الشرق وبساطته الطبيعية ولكنه عرف كذلك عبقرية الغرب وذكاءه ولاسيما عدم ايمانه ، غير ان الايمان هو الذي ينتصر آخر الامر . فالشرق مرموز له بفاطمة ، والغرب بماري الانكليزية التي تمنح اسماعيل كل شيء ، وتفتح له آفاقا جديدة دون ان تترك من أجله علاقات لها اخرى مريبة . والمفارقة واضحة بين حياة البطل قبل سفره وبعده . لقد حاول اذ عاد ان ينشر اراءه ومبادئه الجديدة ، فاعتدى عليه الجمهور ، وشاء ان يشفى فاطمة بالاسلوب الطبي الحديث فاصيبت بالعمي . وعاد ذات مساء الى قبر ام هاشم ، فرأى جموع المؤمنين ، وادرك انه لم يكن امامه «افراد» وانما شعب يربط بين اشخاصه الايمان . ان العلم من غير ايمان لا قيمة له ، ولانه اراد ان يشفى فاطمة بعلمه وحده اصيبت بالعمى ، ولم تستعد بصرها الا حين استعاد ايمانه ... وتلك المرأة الساقطة ، نعيمة التي كانت تتردد دائما على قبر ام هاشم تزوره ، ماذا كانت تريد ؟ لقد نذرت بان تقدم لها خمسين شمعة اذا محا الله شقاءها .. وقد اتيح لاسماعيل ان يراها بعد عودته من اوروبا ، وهي تبر بنذرها ، فادرك ان الايمان وحده استطاع ان يطهر هذه الروح التي زلت .

اما الصراع الذي تجسده روايتا شكيب الجابري « قد يلهو » و «قوس قزح» فيتخذ اتجاها آخر يتجلىفيه وعي امرأة غربية لمجد الشرقوالعروبة اعمق واروع من وعي رجل شرقي لهذا المجد . فموضوع الروايتين واحد، غير ان الذي يرويه في الاولى هو البطل ، وفي الثانية البطلة . ورواية البطلة تحكى قصة فتاة المانية مسكينة تهجر بيتها الذي تعانى فيه عناء شديدا من ظلم امرأة ابيها وتضرب في الشوارع بحثا عن مصيرها ، فاذا هي تكره جميع هؤلاء الرجال الذين لا يريدون مساعدتها الا بثمن جسدها. وتشعر بانها تتهدم تحت وطأة الشقاء والجوع ، فيصبح عزمها على الانتحار حين تلتقي بطالب عربي ، اسمه علاء الدين ، فيستقبلها بنبل في غرفته ، فلا تلبث ان تحبه حبا عميقا مخلصا ، وتدرك حين تستسلم له انها تمنحه خير ما في كيانها ووجودها ... ولم تكن تكترث لعلاقات علاء الدين الاخرى . فان عاطفة العرفان الذي تكنه له تحمي حبها اياه من كل غيرة، وتدفعها الى الاهتمام بتاريخ الشعب العربي كله الذي ينتمي اليه علاء الدين ، فاذا هي شديدة الاعجاب بنبل العرب ، واذا هي تمجد تاريخهم وماضيهم العظيم . وخشية من ان تجرح حساسية علاء الدين ، تمتنع عن ابلاغه انها حملت منه . ومن اجل اخفاء حقيقة امرها ، راحت تبحث عن عمل متواضع في مستشفى تعرفت فيه الى فتاة مريضة ، وما لبثت الصداقة انربطت بينهما . وقد اقترحت عليها المريضة ان تصطحبها الى بيت ذويها لكي تتولى السهر على شقيقيها الصغيرين . وفي تلك الاثناء ابلغها علاء الدين عزمه على مغادرة برلين نهائيا الى سوريا. وفي يوم واحد ، استقل كل منهما القطار ، هو نحو الشرق ، وهي نحو منزل صديقتها في الريف .

وبعد اثنتي عشرة سنة (وهنا القسم الثاني من الكتاب) يدخل بطل ثالث الى المسرح هو محمد علي ابن علاء الدين وايلسا . وقد كان هذا الطفل يجسد في عيني امه ذلك الاب البعيد الذي نسيها دون ريب ، ففيه كانت تعبد علاء الدين كاله، وتحول حبها الى نوع من الصوفية كان محمد علي هو موضوعها ، فهو سوف يصبح بطلا عربيا ، وسيسهم في بعث المجد العربي من جديد . وقد كانت امه تود ان تعود به الى الشرق ، بالقرب من ابيه . وكانت فكرة هذه الرحلة تستولي عليها استيلاء

شديداً ، وكانت في الواقع تتحمل جميع مصاعب الحياة طمعا فيتحقيق هذا الامل .. وكادت تصاب بالجنون يوم مرض محمد علي ، ولم يكن من شأن فقرها الا ان يؤخر شفاءه ، ثم مات محطما كل آمالها . وحين تمكنت من الصبر على المها الشديد اغتنمت مع صديقة لها فرصة سانحة ، فامتهنت مهنة الرقص . وقد مرت الفرقة التي تنتمي اليها بمدينة بيروت في اثناء تجوالها . وهناك في احد المراقص ، التقت مرة ثانية بعلاء الدين، وانبعث ذلك الحب الذي القى عليه الزمن ستاره اصفى وانبل مما كان وروت ايلسا لعلاء الدين كل شيء ، ورأت فيه صورة ابنها الذي حدثته عن كل حادثة من حوادثه. وقد كان من الطبيعي ان يقدر علاء الدين في ايلسا حبها للبطولة العربية واملها في ان ترى ابنها يوما احد هؤلاء الابطال ، فاذا اسماء محمد وعلي وعمر وخالد وسواهم من ابطال العرب تبعث في نفسه اصداء جديدة ، واذا هو يتمثلهم منبعثين من سماء العرب يقذفون اليهم بنداءات جديدة ويبثون في نفوسهم روح الصراع والنضال . واذ ذاك شعرت ايلسا بانها اضطلعت بمسؤوليتها وادت رسالتها ، فانقطعت عن مقاومة السل الذي كان يتأكلها والذي انتزع منها ابنها ، فسقطت تحت براثنه وذهبت مع الربيع .

بهذه اللهجة المؤثرة تنتهي رواية « قوس قزح ». انها امرأة اجنبية ، امرأة غربية ، تلك التي توقظ شعور البطولة في قلب علاء الدين الشرقي. وهكذا يكون الشرق مدينا ببعثه للغرب نفسه . فبعد ان تسلم هذا الغرب منه رسالة الحضارة والايمان ، في لقائهما الاول بالقرون الوسطى ، عاد فسلمها اليه قبل ان يسقط من جديد ، والشرق هو الذي سيقود العالم الآن .

ولا بد لنا قبل ان ننتقل الى القسم الاخير من بحثنا من ان نشير الى رواية « عصفور من الشرق » لتوفيق الحكيم ، ففيها ايضا تصوير للون آخر من الصراع ، هو الصراع الفكري ، بين الشرق والغرب الذي لا يتسع المجال لتحليله .

*

اما ابطالنا الاجتماعيون الثائرون ، فيستغرقون معظم انتاجنا الروائي والقصصي . وهذا دليل واضح على وعي ادبائنا لاهمية المجتمع في بناء حياة سليمة ، وعلى محاولتهم معالجة مشكلاتنا وقضايانا الاجتماعية قبل كل شيء . ولعل من الغريب ان نلاحظ ان كثيرا من هؤلاء الابطال يخرجون من صراعهم مع المجتمع مخفقين او يائسين ، مما يشير الى قسوة الصراع ، والى ان الآفات التي تتملك مجتمعنا من القوة بحيث لا يمكن التغلب عليها بسهولة .

ولسنا نعرف اديبا عربيا في عصرنا الحديث حملت آثاره من الثورة والتمرد ما حملته آثار جبران خليل جبران . وسواء أكانت قصته رواية او اقصوصة ، فانها تنبض بهذه الروح . ففي « عرائس المروج » و « الارواح المتمردة » و « العواصف » و « الاجنحة المتكسرة » سلسلة من الثورات . ثورة العاطفة والحرية والروح الطماحة ، وثورة على رجال الدين والاقطاعيين والرأسماليين والتقاليد العمياء. ومن اليسير ان نجد في اقصوصة « وردة الهاني » ثورة عارمة على تزويج الفتيات من رجال لا يعرفنهم ، فتتعرض تلك الزيجات من اثر ذلك للاخفاق ، كما نجد في « مرتا البانية » ثورة على ظلم الرجل الوحش الذي يغرر بالفتيات ثم يتركهن نهبا للاثم والرذيلة . ولئن كان الفن القصصي منهارا في اقصوصة « مضجع العروس » فان التمرد الجبراني يبلغ فيها ذروته ، اذ يثور على النفاق الاجتماعي والتقاليد الفاسدة ويبارك الحب المخلص ويدعو الى فتح الابواب له بل يجعله شريعة من شرائع الخالق . ثم ان بطلي « يوحنا المجنون » و « خليل الكافر » يثوران على رجال الدين الذين يتسلطون على خيرات الناس ويسلبونهم اموالهم مستغلين عاطفتهم الدينية وايمانهم الساذج .

وتكتسب معظم آثار طه حسين قيمة اجتماعية كبيرة لان جميع ابطاله ثائرون على كاكلته . فكتاب « الايام » يحمل ثورة اجتماعية كاملة : انه يهاجم بطريقة رمزية آفات مجتمع مريض يزخر بالاكاذيب والجهل ونفاق رجال الدين . وحين يروي المؤلف قصص اولئك الشبان الذين سقطوا في امتحاناتهم فظنوا ان هناك سوء طالع يلاحقهم ، انما يريد ان يسخر من معتقداتهم واوهامهم الساذجة التي يؤمن بها كثير من هؤلاء الشرقيين الذين يطمحون الى المعالي ، فيما هم يلتزمون الكسل والجمود . ومظهر اخر من مظاهر الثورة يكمن في تلك السهام التي كان يجعل التعليم الازهري هدفا لها . فيهزأ بالمشايخ ويسخر بآرائهم ويناقشهم ، فيصبح عدوا للجميع ويتهم بالضلال والالحاد . و «اديب» هو الاخر ثائر ، وقد ادت به ثورته الى هدمه ، لانها فقدت قدرها اللازم . ثورته ضد التقاليد وضد وسطه وضد انغلاق ذويه الذين كانوا يعتقدون ان اجتياز البحر يعرض لخطر مدنية فاسدة ، وضد زواجه الذي كان مع ذلك سعيدا هانئا . وترمز «امنه» في « دعاء الكروان » الى ثورة المؤلف نفسه ،انها تقطع صلتها بالتقاليد اذ ترفض مقاسمة ذويها حياتهم ، وتبحث هي نفسها عن حريتها التي تكلف غاليا دائما ، وتختار طريقها فتذكرنا بابطال سارتر . وكانت من قبل تتساءل : « الثورة ؟ العصيان ؟ ما ارهب هذه القوة التي تملك القلوب ، وتعدم الشخصية والادارة ، هذه القوة

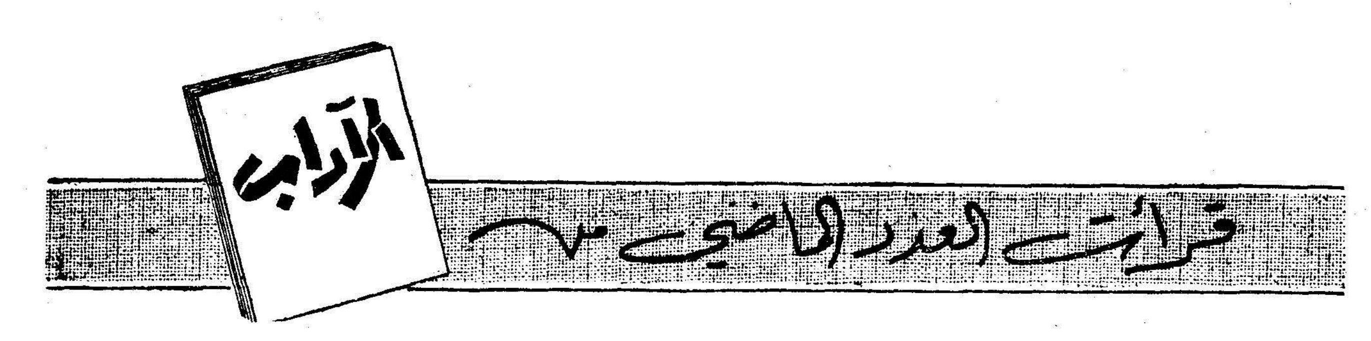
التي يسمونها إحترام الاشياء الموضوعة . » ولكنها لا تتردد في ان تسلك طريقها التي اختارت . « ان على واجبا ان اسير مستقيمة امامي يوما فيوما نحو الشرق ، نحو هدف اعرفه وانشده بغموض . » وتدفعها هذه الثورة فتصل ، فاذا هي تحس انها مخلوقة جديدة ، تختلف عن تلك الخادم التي كانت من قبل . ثم انها تخلق شخصية المهندس الجديدة، فيتحول من رجل اناني الى انسان يزخر بالحب والتفهم .

وليس المجال بمتسع الان لاستعراض جميع الاثار الروائية التي تمثل هذا الصراع فنكتفي بالاشارة الى ابطال اجتماعيين واعين في قصص محمود كامل وذو النون ايوب وعبد الملك نوري وعبد السلام العجيلي ويوسف الشاروني وامين يوسف غراب وسواهم .

على ان اوعى الابطال الاجتماعيين واشدهم تحسسا لواقع الحياة هم ابطال نجيب محفوظ،الروائي العربي الاول ، غير مدافع .ولاشك فيان ابطاله يجسدون خير تجسيد المفهوم الجديد للبطولة الذي بدانا به بحثنا . وليس هذا المفهوم نظرية تجريدية ، وانما هو انعكاس الحياة الاجتماعية التي نواجهها كل لحظة . وليس ثمة رواية تمثل شخصيات مجتمعنا العربي خيرا مما يمثله ابطال روايته المثلثة «بين القصرين» و «قصرالشوق» و «السكرية » . فان قسوة الاحداث وعنفها ووحشيتها احيانا هي التي تشعرنا بثقل الواقع وواقعيته ، وتكشف لنا اتساع الرقعة التي يقوم فيها الصراع بين الانسان وبين عالم كبير مفترس . والحق ان المغامرة البطولية التي تنطوي عليها حياة البطل الرئيسي في الرواية ، كمال ، انما تبدو لنا حية وحقيقية لانها تكاد تسحق فيه الانسان ،ولكنه مع ذلك لا يدعها تسحقه ، بل يثور من جديد ليذكر ابدا بسيزيف . والحق ان في الرواية مجموعة من الابطال يمثل كل منهم نموذجا حيا لكائنات اجتماعية تعيش حياتها ويتطور خط سيرها تطورا طبيعيا لا اقتسار فيه ولا تصنع . ولكن معنى البطولة الحقيقية التي ينبغي الا تنفصل عن الاخلاق ، مهما كان الوضع الاجتماعي ، انما يتجلى في كمال الذي اتخذ له جذورا في اخيه فهمي ، وامتدادات بطولية في ابن اخته احمد شوكت . وهو في ابعاده كلها يمثل الانسان العربي الجديد فيالقرن العشرين ، هذا الانسان الذي ينبغي عليه ان يواجه سلسلة طويلة من الصراع في حياته السياسية والاجتماعية والثقافية ، والذي هو مدعو ابدا لان ينطوي على داخله ليستمد من وعيه قوة مستمرة على مواصلة الثورة بعد ان يندمج في المجتمع اندماجا طبيعيا يبعده عن التفكير بالفرار والهرب كحل لمشاكله المستعصية الكثيرة . ان فهمي ـ الجذر القومي لكمال ، اذا صح التعبير ـ هو بطل من ابطال الوثبة التي اطلعت سعد زغلول ، هؤلاء الابطال الذين يمثلون الطليعة لكل انتفاضة ويتحولون بمجموعة من القيم والمثل الصافية تدمغ نفوسهم بطابع الاندفاع المخلص الذي يدفع الى التضحية بالذات في حركة بطولية نادرة . حتى اذا قتل فهمي في احدى مظاهرات الطلاب التي قامت ابتهاجا برجوع سعد زغلول من المنفى ، ولدت هذه الشعلة من جديد في نفس كمال ، وان ظلت كامنة تحت الرماد . ويتبدى كمال في مطلع شبابه فتى متحمسا لكل شيء ، يحب فتاة بورجوازية حبا يملك عليه نفسه ويضطره احيانا الى الذل والنفاق . ولكن حبه لسعد زغلول لا يقل عن ذلك قوة . وتمضي الايام فتنمو معها معتقداته ، ويظل حبه يرفده بطاقة عظيمة من الحماسة ، فيتكامل بعده الذهني ، ويبدأ يومن بالكلمة وقوتها ، حتى اذا اخفق في حبه وتزوجت الفتاة من شاب ينتمي الى طبقتها كانت هذه اول صدمة عنيفة ترج نفسه وتضعه وجها لوجه امام ظلم قاهر ، هو تفاوت الطبقات ، ويبدأ ايمانه بالقيم يتزعزع بعد قلقه وضياعه ، وتسقط احلامه ومثاليته فيقع في ثورة الحادية جارفة وتطبق عليه قسوة الواقع الحجري فيفر الى الفكر والادب والفلسفة ، ولكن هيهات ان ترد له نفسه وان تزيل من حياته حس المأساة والفاجعة الذي طغى عليه ، لاسيما بعد ان انهارت مثله السياسية بعد وفاة سعد تحت ضغط الرجعية السياسية ، وملاه الانحلال الخلقي يأسا واشعره بان فساد المجتمع اقوى من نضاله وصراعه العنيف ... وساق حينا من الزمن في تيه وقلق وضياع، وكأن يعي ذلك فيقول بسخرية والم « انا الحائر الى الابد» ولكنه مع ذلك لم يستسلم بل اخذ يومن رويدا رويدا بانه « ربما كان من الخطأ ان نبحث في هذه الدنيا عن معنى ، بينا ان مهمتنا الاولى ان نخلق هذا المعنى » ثم يتبلور موقفه من مجتمعه ، فيرى ان « غاية ما يعزي به نفسه هو ان المعركة لم تنته ولن تنتهي ولو لم يبق من عمره الا ثلاثة ايام » وهكذا ينتصب كمال رمزا للصراع الدائم الذي يتابعه بعده ابن اخته احمد شوكت .

والواقع ان كمال يجسد كل هذا الجيل الجديد من المثقفين الذين يقبلون على الدنيا بروح ملأى بالعزم والاصرار ، ثم يصابون بخيبات متتابعة من مجتمعهم المريض الذي يحيل صراعهم الى قوة سلبية لا تحفظ لهم ثقتهم .. وان بوسعنا ، نحن الذين نعيش الثورات ، ان نشعر بخفقات قلب كمال حين نجد ثورتنا تجهض على ايدي بعض الساسة الذين يريدون ان يقودوا وهم ليسوا على مستوى الثورات . ومع ذلك فمنذا الذي يرتضي منا ان يخون وعيه وضميره وايمانه بتبعته في المجتمع الجديد فيرمي السلاح ويستسلم ؟ ان هذا السلاح سيظل مرفوعا، وستظل اليد التي ترفعه متماسكة مناضلة ولو اعترتها رعشات الالم والخوف ، فانما يسري في عروقها نسغ الصراع البطولي الى الابد .

سهيل ادريس



الأبحاث

بقلم حافظ الجمالي

منذ مدة غير بعيدة ، عدت الى قراءة كتاب قديم للدكتور زكي نجيب محمود (1) عنوانه : جنة العبيد او ادب المقالة . لم اعد الى هذا الكتاب عمدا بل بسائق المصادفة المحضة . فوجدت فيه ذكريات قديمة ، قديمة كانت مختفية في زوايا صفحاته المختلفة ، كأنها بقيت هناك لتشير الى عهدي الاول به .

وليس المهم ما عاصر هذا الكتاب من ذكريات بقيت لي من عهد قراءته الاولى ، ولكن المهم ان فيه نظرية في المقالة ، يعرضها صاحبها في السطور الاتية

« ان الذي اريد ان اؤكده مرة اخرى هو ان المقالة الادبية لا بد ان تكون نقدا ساخرا لصورة من صور الحياة او الادب ، وهدما لما يتشبث به الناس على انه مثل اعلى ، وما هو الا صنم تخلف في تراث الاقدمين . اما ان كان الفصل المكتوب بحثا رصينا ، متسقا ، قسمه ما شئت ، فقد يكون علما ، وقد يكون فصلا في النقد الادبي ، ولكنه ليس مقاله ادبية ، كما انه ليس بقصيدة ولاقصة .»

هذه نظرية في ادب المقالة ، يستعيرها الدكتور محمود من الادباء الانكليز ، ويحاول اشاعتها في الرأي العام الادبي العربي ، وينشيء كتابا كاملا ، كل ما فيه مقالات مستوحاة من هذا الرأي ، وآخذة به . ولا ادعي اني اقرأ كل ما يكتبه ادباؤنا في العالم العربي ، لكنني لم اجد فيما قرأته ، اي تعليق على هذا المذهب الذي يدعو اليه الدكتور محمود، هذا فضلا عن ان الدكتور محمود نفسه لم يعد يدعو الى هذا الرأي فيما يصدر عنه ، وقد يكون ما يزال عليه ، الا اننا نفرض عندئذ انه رأي مستكن في قرارة نفسه ، لا يوجه له سلوكا ، ولا يعين له اسلوبا ، ولا يضمه الى جماعة تبرز فيها مثل آرائه .

ومهما يكن من امر ، فان ادب المقالة ما يزال على عهده في عالمنا ، غير متأثر بما يضعه لهالادباء الانكليز وغير الانكليز من حدود ، وما يزال بيننا من يكتب المقالة ، لا لغرض واحد ، بل لكل الاغراض ولا باسلوب واحد ، بل بكل الاساليب .

وعلى ذلك فان فقدان المقاييس الاساسية التي يمكن الاعتماد عليها في نقد « المقالات » هو الذي يضطر الناقدين الى الوقوف من كل « مقالة » موقف التعارض لا موقف التقابل ، اذا جاز لنا ان نستعمل هنا لغة الاديب الاستاذ محي الدين محمد . ولو كانت هنالك مقاييس معينة ، وقواعد متفق عليها ، في النقد ، لكان هذا النقد عملا اسهل وايسر مما هو الان بكثير . الا اننا ما نزال على عهدنا بانفسنا : لكل وجهة نظر هو فيها سجين ،لا يستطيع تجاوزها ، بفتح نفسه للاخرين ، اوليست « الايكوسنترية » سمة طفلية ، ما زلنا نلمسها في الشيء الكثير من صور تفكيرنا وعملنا وادبنا ؟

عيوب الحياة العربية الراهنة
بقلم عبد اللطيف شرارة

واذا انتهينا من هذه المقدمة ، وحاولنا الان ان نتعرض لنقد الابحاث ، ابحاث العدد الماضي من « الآداب » لكان الدور الاول في النقد لمقال الاستاذ شرارة ، في عيوب الحياة العربية الراهنة .

والاستاذ شرارة شخصية محببة لدي ، عزيز علي ، فلقد قرات له منذ زمن بعيد ، كتابا عن « روح العروبة » حاول فيه ان يستقريء صفات « الروح العربية » من خلال آثارها ، كالادب ، والاخلاق ، والدين . وما زال كتابه هذا تتلقفه مني الايدي ، فلا يتركه هذا الا ليأخذه ذاك . وحسبي ان اخبر الاستاذ شرارة ، اني لم اعد آمل « بالقبض » على كتابه هذا ، بعد ان استعارته مني زمر متتابعة من القراء والمتتبعين . وكذلك فقد قرات له كتابا صغيرا ، ظهر منذ عهد قريب ، يتناول فيه مقومات القومية العربية ، بالبحث والتحليل ، ويلقي فيه بدلوه بين الدلاء التي تحاول ان تقف في وجه الشعوبيين ، دفاعا عن القومية العربية

واقول هذا كله لاشير الى ما بيني وبين صاحب هذا المقال ، من تعاطف ومودة ، على الرغم من اننا لم نتلاق بعد . الا ان ذلك لا يحول بيني وبين التعليق بجملة ملاحظات على مقاله هذا ، واخال ان مثل هذا التعليق لن يفسد ما بيننا ، على البعد ، من مودة واخاء.

واول ما اقوله ان الموضوع نفسه ليس بجديد قط ، وقد يتساءل الانسان اهنالك حقا مواطن عربي واحد ، رزق بعض الوعي ، ثم هو يجهل عيوب الحياة العربية الراهنة ، كالفقر ، والجهل ، والمرض ، وما هو جزء لا يتجزأ من هذه المنظومة الانيقة ، التي طالما سعد بها شرقنا العربي ؟

وليس حراما ، آخر الامر ، ان نكتب في موضوع غير جديد ، ولكن الذي لا يجوز ابدا ، هو ان لا تكون بين ايدينا مادة جديدة نضيفها الى ما نعرفه ويعرفه الناس عن الموضوع القديم ، ولئن جاز هذا اخيرا فانه يبقى ان نعبر باسلوب جديد عن كل تلك المعارف القديمة ، ولئن فاتنا هذا كله ، فما ندري ماذا يعني ان نكتب ما نكتب . ولست ادري اين قرات عبارة من هذا النوع: «اذا اردت ان تكتب اي موضوع، ووسعك ان لا تكتب فيه، فافضل ما تفعله ،هو الا تكتب» واظن ان الذي اراده صاحب هذه الكلمة ، هو ان لا يحاول الانسان الكتابة الا وقد امتلات نفسه بثروات غنية ، بلغت من التوتر الحد الذي لا تطيق النفس معه الا ان تفيض به على الاخرين.

(1) تعود اخواننا في الاقليم المصري ان يقولوا : دكتور زكي محمود ، ودكتور فلان او فلان .. اما في اقليمنا السوري فيقولون : الدكتور فلان .. وعبثا احاول هضم التعبير المصري ، ذلك انه يستعير كلمة اجنبية ويأبى ان يعربها تعريبا كاملا ، حتى تبدو كرقعة بشعة في ثوب انيق !

وبعد فكل الناس يعرفون ان الفقر صفة عامة من صفات المجتمع العربي، وكلهم يعرفون ايضا ان ارضنا غنية بثروات لا تبرر وجود مثل هذا الفقر ، وكلهم يعرفون ان الحكام الخونة كنوري السعيد واشباهه ، قد تآمروا مع الاجنبي على ابقاء الشعب العربي، متأخرا ، جاهلا ، فقيرا ، وكلهم يعرفون كذلك ان موالاة الغرب لم تكن ، عند هؤلاء ، لا عقيدة سياسية ، ولا قناعة وجدانية ، ولا محاولة لتمثل حضارة الغرب ، وان اولئك الخونة من السياسيين لم يكن لهم الاهم واحد : خدمة مصالحهم الشخصية ، عن طريق الحكم ، والبقاء في هذه السعادة ، ولو كان ثمن ذلك هدر دماء المواطنين . وكل الناس يعرفون ان الغرب هو الذي اخرج العرب من فلسطين ، واعطاها لليهود ، مرتكبا في ذلك اكبر جريمة انسانية ، وان هذا الغرب نفسه هو الذي يقوم بحرب الابادة في الجزائر العربية ، وانه ما يزال يتآمر على العرب ، ويحول بينهم وبين تحقيق اي مطمح من مطامحهم المشروعة. فاين الجديد في هذا كله حتى يستحق منا ان نعود اليه؟

ومع ذلك فان هنالك نقطة جديدة في هذا المقال ، او قل فكرة جديدة، هي النظر الى « الرجل السياسي » على انه « ظاهرة » تعبر عن وضع اجتماعي قائم ، في شبه حتمية لا بد منها . ولكني اجد هذه الفكرة صحيحة من جهة ، وخاطئة من اخرى . انها صحيحة لان امثال نوري السعيد ما كانوا ليستطيعوا تسلم مقاليد السلطة الا في ظروف من النوع الذي كان قائما في البلاد العربية .. وهي خاطئة لان في وسعنا دوما ان نتصور الرجل السياسي بطلا سباقا ، يناضل من اجل تحرير امته ، ودعم استقلالها ، واسترداد كرامتها . وهذا يعني ان الظروف نفسها قد تفرض رجلا يصورها ، كنوري السعيد ، او رجلا ينقض عليها كجمال عبد الناصر ، او ابطال جبهة التحرير ، وزراء حكومة الجزائر الموقتة . افيمكن اذن ان نقبل هذه الحتمية ذات الطرف الواحد ، على نحو ما جاءنا بها الاستاذ شرارة ؟

ولنقف الان عند هذا الحد من نقد الاستاذ شرارة ، اذ لقد طال الحديث ولو تابعته الى نهايته لكنت بحاجة الى جملة من الصفحات لا يتسع لها الموضوع .

ولن اختم الحديث قبل ان اهنيء الاستاذ شرارة على اكثر ما يكتبه في كل المجالات الاخرى ، بلغة صافية ، واسلوب رائق ولاهنئه مرة اخرى على ان كثيرين من شباب الجيل الصاعد ، يعجبون به ، ويقرأون له ، ويتتلمذون عليه ، ولو من بعيد .

ثورة .. موتسارت ... وامريكي

بقلم نجيب المانع

وهذا مقال اخر لكاتب اتعرف اليه من جديد ولكني حقا سعيد بهذه المعرفة . ولست ادري اقرأ هذا الكاتب نظرية الدكتور محمود ، ام لم يقرأها ، ولست ادري : أيتبنى هو مثل نظريته في ادب المقالة ، ام لا يتبنى ، ولكني اشعر انه اقرب الناس الى الاخذ بنظرية الدكتور محمود .

هنا ، لا يشعر القاريء انه امام نظرية يعرضها صاحبها من البداية الى النهاية ، ولا تجاه رأي متسلسل الفقرات ، واضح المقدمات والنتائج ، ولكنه حقا جملة خواطر ، كعنوانه تماما .

وعندما ينتهي القاريء من هذا المقال ، يشعر انه امام كاتب غني الثقافة انيق الاسلوب ، مفعم النفس بالعواطف النبيلة ، والوطنية الجميلة ، ولا شك ان هذه الكلمات تبدو باردة جدا كنعوت ، الا اننا لا نملك اسلوبا اخر نعبر به بالكلمات عما نشعر به من صور الاعجاب والتقدير .

ومع ذلك فان الانطباع الذي يتركه هذا المقال اعقد بكثير مما وصفناه به.

والحق ان الاسلوب اريستوقراطي الى ابعد حد ، ولكنه يستخدم لتصوير معان شعبية الى ابعد حد ايضا . غير ان هذه المعاني الشعبية ، تقفز بحكم هذا الاسلوب نفسه ، قفزات بورجوازية بل واريستوقراطية ايضا ، حتى لقد استطاع « حذاء » ذلك المسكين الذي كان يعزف كونشرتات باخ وموسيقى موتسارت وبيتهوفن عنده ، كوسيلة لطلب الصدقات ، ان يرغمنا على الانتباه اليه ، والوقوف ، وما اروع ما يقوله الكاتب في وصف هذا الحذاء :

« على ان احذية البؤساء هوايتهم ، فالاحذية الانيقة متشابهة لا لون لها ولا شخصية ولا تاريخ وليست تختلف الا الاحذية التي لهثت كثيرا في الطريق ، وتشردت طويلا في المنعطفات » .

اما وصف الامريكي « للامريكي » فاروع من رائع ، واجمل من جميل. وليست هنالك اية مبالغة في القول ان اناقة الوصف لا تتجاوز صدقه في شيء.

ولست ادري بعد ذلك لم يشعر القاريء ان المقال يتعمد اثارة الاعجاب، او بهر الانظار ، بما يملأ به نفسه من « مضامين » ثقافية متنوعة ، كالموسيقى والميثولوجيا ، وبما يشير اليه صاحبه من رحلات كبيرة الى اضخم العواصم واغناها مدنية وثروة .

واخيرا فان هنالك تساؤلا لا بد منه : اترى صاحب المقال ، المتفائل بمستقبل الحضارة الغربية ، متفائلا ايضا بمكنونات الحضارة العربية ؟

دمشق **حافظ الجمالي**



بقلم صدقي اسماعيل

مهما تختلف وجهات النظر في فن القصة القصيرة واساليبها واهدافها، فان هناك حقيقة لا سبيل الى الخلاف فيها هي ان ما يبرر كتابة القصة هو جدة موضوعها . فمهما تكن القصة من العناصر الفنية كبلاغة العبارة وجمال الصور وحرارة الاسلوب فان العنصر الاساسي فيها هو ما تنطوي عليه من صورة جديدة للحياة وما تحمله من معنى يجعلها جديرة بان تكتب ، ان تكون شيئا من تجربة الكاتب الفنية وان يتناقلها الاخرون.

ولا يعني ذلك ان يكون موضوع القصة غريبا غير مالوف ، فابسط مظاهر الحياة يمكن ان يكون مصدرا للتجربة الفنية ، بل يعني ان فن القصة يقوم بطبيعته على الموضوع الشيق : ماذا يريد الكاتب ؟ واية صورة يحرص على نقلها الى الناس . ومن ثم فان كاتب القصة مطالب بالبساطة في التعبير قبل كل شيء : ان تكون صيغته الفنية شفافة الى ابعد حد ، تعرض على القاريء صور الحياة بكل ما فيها من عفوية وحرارة ووضوح .

ولا تعني هذه البساطة صفاء الكلمات والتعابير فحسب ، بل تعني ايضا وضوح الموضوع : ان يحسن الكاتب نقل ما يحسه من التجارب ، واثارة ما يريده من مشاكل الحياة . وحتى عندما تكون القصة رمزية او فلسفية فان حوادثها يجب ان تكون واضحة بينة قادرة على بعث التساؤل الذي كتبت من اجله . ولكي يتوفر مثل هذا الوضوح يجب ان تكون ثمة حدود صريحة للمعنى الذي يريده الكاتب ، ذلك على الاقل ما تقتضيه القصة الصغيرة بصورة خاصة . ففي طبيعة هذا النوع من الفن القصصي انه يتناول الحياة في زاوية محدودة من جوانبها ، دون ان يطمع الى اقحام عدد من القضايا والصور في موضوع شامل يتناوله من جميع

نواحيه .

على ضوء هذه الملاحظة البسيطة نتناول القصص الخمس التي نشرت في العدد الماضي من الاداب بشيء من النقد .

عندما يلد الرجال ـ لسليمان فياض

كتبت هذه القصة باسلوب بسيط حي، ينم عن موهبة فنية. غير انه كان يمكن ان يكون اكثر بساطة وقوة لو ان الكاتب اوجز قليلا في سرد التفاصيل المتشعبة التي تلقي على القصة طابع الرواية احيانا وتمنع القارىء من تتبع الخيط الذي يربط حوادث القصة ..

وعلى الرغم مما في هذه القصة من صدق ، فانها تنطوي على كثير من نقاط الضعف .

انها تبدو لاول وهلة عرضا مزدحما بالصور والحوادث لا نتبين القارىء خلاله الموضوع الذي اراده الكاتب .

بكر طالب في المعهد الديني يراقب الشارع من الرصيف وهو نهبة لذلك القلق العميق الذي يحسه جيل من الشبان يتألمون لانهم يرون الاشياء غير معقولة ، ويحس في الوقت نفسه رابطة ـ لا سبيل الى تحديدها ـ بفتاة اسمها سكينة ، هي الشخص الرئيسي في القصة على ما يبدو .

وسكينة هذه فتاة من الشعب تضطر الى السقوط من اجل اللقمة ولكنها لا تريد هذا المصير .

وهنا جنود انكليز يستبيحون كل شيء في سبيل رغباتهم : العار ، اطلاق الرصاص ، الانحراف الاثم ..

وجنود وطنيون يحرسون المحطة ، ويحملون من الطيبة ما يجعلهم اصدقاء لابناء الشعب .

وثمة هندي مسلم همه ان يحصل على نسخة من القرآن كتعويذة تحميه من الموت في ساحة الحرب .

واشخاص اخرون : شوقي ، هلال ، واليصابات ملكة الانجليز ، وحشد مزدحم من الاشياء والحوادث يجعل القصة اشبه بفصل كبير من رواية تبرز خلاله مواضيع عدة ، كان يمكن ان يكون كل منها قصة قصيرة (مصير سكينة) . (هموم بكر) . (سفالة الجنود الانكليز) (تدين الهندي) ..

وخلال هذا كله يصر الكاتب على ان يتم ملاحظاته بين حين واخر في آراء عابرة اشبه بالحكم التي كان يمكن ان يستغني عنها :

« ان تكون مسافرا وتقف على محطة في انتظار قطار ما ، ذلك شيء مقبض » « السير على شاطىء بحر مويس اواخر الخريف في قلب الضباب الرمادي متعة جميلة جدا » . « عندما ينام الانسان سليما معافى. الخ. ان رائحة الحريق حين تسد كل منفذ لاية نسمة طليقة... لا بد تكون آتية من بيت يحترق » . « ان يجتاز الانسان الف عام من الزمن دفعة واحدة ، ان ذلك لمرعب حقا »..

اربعة من الريف ـ علي بدور

قصة فتاة يكتشف الطبيب انها مصابة بالسرطان في العظم . كتبت باسلوب هادىء متقن . كان يمكن لهذه القصة ان تكون صورة فنية جميلة لولا الحواشي الكثيرة التي اقحمها الكاتب في عرضه . فقد اسهب في وصف الثلاثة الذين قدموا مع المريضة الى عيادة الطبيب دون ان يكون لاي منهم موقف يلفت النظر ، واسهب في موقف الطبيب الذي اراد ان يعطي مغزى (فلسفيا) للحادثة ، فيلجأ الى عمر الخيام ، ويختم القصة بهذه الكلمة : « كلنا في هذه الحياة زينب » ـ وهو اسم الفتاة ـ

ان عرض الحياة كما هي ، هو في فن القصة ابلغ تعبيرا واعمق اثرا من كل تعليق .

الوتر المشدود ـ خالد الشريقي

تحمل هذه القصة موضوعا مألوفا هو مشاعر فتاة تتلمس حريتها .

وعلى الرغم من بساطة هذا الموضوع فان الاسلوب الذي عرضت فيه ينطوي على شيء من الاضطراب والتصنع والتكرار . كثير من الضوضاء ولا جديد .. فتاة في تجربة الحب الاول ، تقف في حيرة واضطراب بين اب حنون يفهمها جيدا ويثق بها ، وام انانية قاسية تساورها الشكوك ابدا ، ورفيقات يتحدثن حديثا مبتذلا عاديا عن الحياة والحب وما الى ذلك .. والمحور الذي تدور حوله القصة هو تحليل الموقف النفسي للفتاة ولا شيء من هذا التحليل الا ما الفتاه من افكار واحاديث حول هذا الموضوع . حتى اطراف الحوار تبدو باهتة مألوفة : ـ ما معنى ان يلحق شاب بفتاة ؟

« ـ لا بد انه احبها .

« ـ وماذا يريد بحبه ؟

« ـ ان يبثها شكواه ... الخ

وعلى الرغم من ان في القصة نبضة من الحياة تشعر القارىء بانها تجربة قد عاشها انسان فان ما فيها من الضعف يفقدها طابع الحياة والتشويق . ومن مظاهر هذا الضعف تعدد الجوانب التي يتناولها الكاتب، فهناك مثلا صداقة الاب والبنت ، والكراهية المتأصلة بين الاب والام ، وغرور الفتيات وثرثرتهن ، وقصة الحب المألوفة ... جوانب متشابكة تفقد القصة في النهاية كل تأثير على القارىء .

ومثل هذا الاضطراب يبدو في الاسلوب ايضا ، فالقصة ممتلئة بالعبارات المتكلفة التي تفسد جوها العاطفي ، منها هذه العبارات : « ستنزع الغضب ما بين حاجبيها . » . « وهربت من شفتيها ابتسامة عجينية » « كانت تشعر بشلالات من الانظار تنصب عليها . » « كانت تعتقد ان النوم يأكلها » . « اليأس الذي نبت في وجهه .. »

هذا عدا العبارات المكررة دون ان يكون ثمة ما يبرر تكرارها . منها « حادثة السينما لم يمض عليها زمن طويل » وهي عبارة ترددت في القصة اكثر من عشر مرات ، وعبارة اخرى جاءت اكثر من سبع مرات ايضا هي (لا تعجلي في ذهابك ، انت تعبة وبيتك بعيد) .

قليلا من البساطة والصفاء، فتجارب الحياة اجمل من ان تنثر عليها قشور الالفاظ والعبارات .

ايام ويموت الرجل ـ جان الكسان

رجل في الثمانين يحتضر ، مصاب بقرحة بالمعدة وتضخم في الرئتين وشلل في القدمين ، وقد يقف قلبه فجاة ويموت . ولكنه مع هذا كله يحرص على ذكرياته البعيدة وهي قصة نضاله ضد الاحتلال الفرنسي يوم ميسلون .

تتوزع القصة ثلاثة اجواء ، على الرغم من انها لا تكاد تملأ الصفحتين: بطولة الرجل ايام الشباب . تعليقات القاص على الحياة المثقلة بالتفاهة التي يحياها هو . رثاء الرجل المحتضر . وهذا التوزع هو ابرز جوانب الضعف على الرغم من الطابع العاطفي الذي يطبع صورها جميعا وينم عن شعور انساني طيب .

اما الاسلوب فانه يفتقر الى البساطة ولا سيما في مثل هذه العبارات: الفتيلة لا تزال منذ ساعة تمط بلسانها لتلحس بلور زجاجة القنديل بلعابها الجاف الاسود ، فتتراقص ... الخ .. انه يريد ان ينداح في

دوامة تدور به ... الخ .. سيحقن ايامي باشياء قاسية .

القطار يخترق الزمن والبشر – عبد الهادي البكار

في هذه القصة صورة غانية مستهترة علمتها تجارب الحياة ان تكون نموذجا للانانية والقسوة . فهي تقف امام الحياة في تمرد ، ولكنه تمرد اليائس الذي فقد كل شيء الا الاستمرار في مصيره الحزين .

على الرغم من عناية الكاتب بالصور الجزئية التي يشير اسلوبه فـي التعبير عنها الى موهبة قصصية فان في القصة الكثير مما يفقدها قيمتها الفنية .

فالبطلة تمثل نموذجا يعيش في الذهن اكثر مما يعيش في الحياة ، ويخيل الى القارىء انها هيكل يحركه الكاتب لكي يعبر عن فكرة معينة او شعور معين . وقد كان من الافضل ان يكون هذا النموذج اكثر واقعية وعفوية .

وتسود القصة نزعة الى الحكم على الاشخاص والحوادث والاعمال . وذلك مما يجعل القصة في النهاية اشبه بالموعظة مع ان المحور الذي تدور حوله هو تصوير نموذج انساني معين لا يقصد منه الحكم الاخلاقي. وتجري على لسان البطلة تساؤلات وافكار قلما يعرفها هذا النوع من النساء « المبادىء ، المثل العليا .. الى اين .. » الخ ..

وكان من الافضل ان تحل المواقف الحية والحوادث محل التساؤلات .

لتتصور الحياة في حرارتها وحركتها العفوية دون ان نوشيها بالتصورات والافكار !..

من اجل العدالة – وجيه رضوان

مسرحية تاريخية قصيرة في ثلاثة مشاهد ذات حوار جميل لولا ان ما فيه من افكار واجواء هو من الاشياء المألوفة العادية .

في مطلع القرن العشرين اندلعت في مقاطعة سلافيا ثورة شعبية ضد الملك الفاسد اسكندر . جنديان يطاردان الثائر بترو فتفتح لهما امه بيتها وتحسن ضيافتهما وبينما هما ينتظران عودته لاعتقاله يعلن الجيش ثورته على الملك وينضم الى الشعب الذي تنتصر قضيته العادلة .

لولا الاطار التاريخي لما كان هناك ما يبرر كتابة هذه المسرحية على هذا النحو الذي اصبح من ميادين الصحافة اليومية ، وقد كان يمكن ان يكون الحوار اكثر عمقا وقوة في تناول قضية النضال الشعبي والحرية .

دمشق — **صدقي اسماعيل**

القصائد

بقلم يوسف الخطيب

كلمة« شعر » في حسابي الخاص ، شيء مقدس ، محراب يصل بالله.

ومهما يكن الشعر في حساب الاخرين ، فهو على اي حال ، فن الامة العربية عبر التاريخ .. الفن الذي لم يزاحمه الى يومنا فن اخر ، رغم ما تجيش به حياتنا الفنية من محاولات شتى ، في القصة او في المسرحية، او في الموسيقى او في الرسم ..

اترانا بحاجة الى استعراض عصر الادب العربي ، للبرهنة على هذه الحقيقة ! !

لقد كان الشعر اول ما التقت به النفس العربية بعد عصر الانحطاط ، وعانقت عبه اصالتها .. كان – وهو الذي يلفت النظر – اول ما بحثت عنه ، قبل ان تبحث عن حاجاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل لقد كان هو الحادي بها الى مرحلة البعث هذه التي نقطعها اليوم .

وكلمة « شعر » – في حسابي الخاص ايضا – بحر بعيد القرار ، لا سبيل الى نفاد كنوزه البكر ، بينا نحن الشعراء نلهو على شاطئه القريب ، نعبث بالمحار ..

ان الذي نخشاه على شعرنا العربي ، هو ان نفقد التواضع من نفوسنا، وان نحسب اننا ردنا كل افاقه .

التواضع المبني على اساس راسخ من الثقة والطموح ، الزم للفنان – اكاد اقول من الموهبة نفسها .. والفرق واضح ولا شك ، بين الفنان الذي يضعنفسه دائما في السفح ، والفنان الذي يقنع نفسه قسرا انه بلغ القمة .. الاول يرفع بصره دائما الى اعلى ، وينتهي به العمر ولا ينتهي من الصعود .. من النمو الحقيقي ، والاكتشافات الفنية الخالدة ، والثاني لن يرى امامه الا الانحدار من كل اتجاه ، فهو لن يصعد بعد ، بمعنى انه توقف ، بمعنى انه مات .

فالتواضع – ولا احسبني مبالغا – من اعضل مشكلات الفنان العربي الشاعر .

انني من خلال هذه النظرة للشعر ، اتساءل عند قراءة كل انتاج جديد: اين هو الكسب الذي اضافه هذا العمل او ذاك لتراثنا الادبي .. اين هي المقومات التي تسمح لشاعر ان يقول : هذه قصيدة جديدة . !

وهذا التساؤل ، يعود بنا مباشرة ، الى الحديث عن الشعر الحر ، فمن ملاحظة السنوات العشر الماضية ، التي انقضت على تجربة الشعر الحر.. ولو اجرينا ما يشبه الحساب الختامي عن هذه الفترة ، لاستطعنا – وملء ايدينا الحق – ان نهدىء من تلك الحماسة الطاغية ، التي التهبت فـي اقلام بعض النقاد ، والتي كادت تلغي كل قيمة فنية لما عدا الشعر الحر !

ولاستطعنا ايضا ان نلقي قسطا كبيرا من التبعة على هذه التجربـة ، لما تردى اليه انتاجنا من سرعة وسطحية وتهافت .

عفوا – اشير هنا الى انني لست من اعداء الشعر الحر ، فمن السخف ، او من عدم الاخلاص للفن نفسه ، ان نقف في وجه هذا التيار رغم ما فيه من عدم الاصالة ، ومن الاخذ المباشر ، الذيلم نتمثله ، عن شعر الغرب . فنحن لم نبدع شيئا اسمه الشعر الحر ، بقدر ما نسجنا على منوال الاخرين ..

ولكنه مع ذلك تيار لا نملك الا ان نعترف به ، بل هو مظهر من مظاهـر الحركة والتجديد ، نسيء الى الادب العربي نفسه ، اذا نحن اقمنا فـي وجهه السدود .

ولكن ، اين هي الوعود التي انتظرناها عشر سنوات ، اننا نلاحظ – باستثناء بعض القصائد ، لبعض الشعراء – ان الشعر الحر كله ،طوال هذه الفترة ، ليس الا قصيدة واحدة متصلة رديئة .. بمعنى ان الشعر الحر – لاخصومه – هو الذي يقدم عن نفسه اسوأ تقرير .

اول ما نلاحظه من حسابنا الختامي هو ان الشعر الحر الجيد القليل كان لشعراء ذوي نشأة كلاسيكية جيدة .. فمن ثلاثي العراق : السياب والملائكة والبياتي ، الى ثلاثي المتحدة : القباني وحجازي وعبد الصبور ، نرى في البدء اساسا كلاسيكيا متينا ، يشد – على درجات مختلفة – بناء القصيدة الحرة . بينما نلاحظ عند اصحاب النشأة الحرة – باستثناء الامثلة القليلة الشاذة – نزوعا واضحا الى الاهمال وعدم الاكتراث فـي

فنية القصيدة، طالما ان الشعر الحر في اعتقادهم ما هو الا الانطلاق، مجرد الانطلاق ، من قيود عمود الشعر !

ثانيا – انني افهم الانطلاق ، ولكن شريطة ان يسمو دائما الى ما هو اكمل واجمل ، فكيف نتصور الخروج عن الموسيقى التقليدية ، اذا نحن لم نستطع ان نعوض عنها ؟ .. اننا لكي نستغني عن عنصري الموسيقى التقليدية « الوزن ، وعدد التفعيلات » ينبغي ان تكون اداتنا الجمالية على درجة قصوى من الرهافة والابداع لتبعث الجو الموسيقي في كلمات الشعر الحر ، هذه التي استغنت عن الوزن وعن عدد التفعيلات . غير ان واقع الشعر الحر في كثير من الامثلة يثبت عكس ذلك .

ثالثا – لقد كانت ابرز حجج المبشرين بالشعر الحر ، دعوى ان الشكل الكلاسيكي يحمل في طبيعته عيب « الرتابة » ثم اذا بهذه « الرتابة » تظهر في الشعر الحر ، بصورة اقوى واخطر .. وهنا لا املك الا ان اثني على شاعرتنا الملهمة نازك الملائكة ، لنبوءتها التي تحققت ، بمظاهر انحسار الشعر الحر عن الاوزان التقليدية شيئا فشيئا ، ليتقلص في اغنية الشيطان هذه –البحر الخبب.. ان خمسا من مجموع تسع قصائد حرة، من قصائد العدد الماضي من الاداب ، نظمت على هذا الوزن ، وناهيك عن جوازاته التي تقربه من النثر . «فالرتابة » الحقيقية هنا لا هناك ، في هذا الضرب الممل على وحدة موسيقية سهلة خاطفة .

هذه الخواطر والملاحظات تواردت علي وانا اقلب صفحات العدد الماضي من الاداب ، الذي تكاد تكون قصائده في الوقت نفسه قصائد العامين الماضيين من عمر المجلة ، اللهم الا من بعض الاعمال الفذة التي نعدها على اصابع اليد الواحدة ..

معذرة اخوتي الشعراء .. فالمطلوب مني الان ، بحكم هذا التقليد الذي سنته « الاداب » ان ادخل الى مقدساتكم ، لاومن بها او اكفر .. ولقد كنت اشتهي لو ان لي واحدة بين هذه القصائد ، لابدأ بنفسي ، واعترف!

مذكرات مسافر – كاظم جواد

هذه المقاطع السبع التي تشكل قصيدة « مذكرات مسافر » استوحاها كاظم من محطات جولة غنية في عدة بلدان ، اتيحت له بمناسبة انعقاد مؤتمر التعاون بين الشعوب .

اروع ما في القصيدة مقدرة الشاعر الواضحة ، على ضبط دفقة الشعوري ، والتحكم به ، فقد استطاع كاظم ان ينقل لنا اجمل ما احس ، لاكل ما احس ..

ثم في هذه الاسطر الرائعة ، التي حلقت فوق مستوى القصيدة العام :

من اين من وطني البعيد ؟ ايا عراق ، ايا عراق
لو ان لي في الفجر اجنحة لجئتك بالعناق
متلالئا مثل السهول ، مصفقا كمياه دجله
مترنحا كظلال نخله
من فورة الفرح العميق ، من الربيع ، من انتصاري
وهبوب اضواء النهار
خضراء تغمر بالصفاء حديقتي وسياج داري .

غير ان القصيدة لم تسلم من تكرار القوالب الجاهزة :

الان في عمان حيث الموت والدم والحديد
فهناك صوت الغرب حيث الحقد والدم والطاول

ثم انني اتساءل ان كان من الضروري حشد القصيدة بهذه المفردات ذات الدلالة المعينة : الكادح ، بترولي ، الشعوب ، السلام ، الاسعار ، عصابات ، المعامل والحقول ، حمامة الخ ؟!

ثم اني اصر بعد القراءة المئة ، على اني لم افهم ما قصد اليه الشاعر في هذين السطرين :

– انا بين اخوتي الكبار هنا اعز من الصديق
بين النجوم ضحى ، وتحت الشمس في الليل العميق ..

والملاحظة الاخيرة الهامة على هذه القصيدة ، المستوى الضعيف الذي رضيه الشاعر لنفسه في المقطعين الاخيرين ، عند حديثه عن دمشق ، وعن بغداد نفسها ، بلد الشاعر الذي عاد اليه بعد الثورة .. لقد كنت اتوقع ان تكون نفحة بغداد اغنى واروع من نفحات ستوكهولم وبرلين! رغم ان الشاعر ولا اعلم السبب ، قد نظم هذين المقطعين على النمط الكلاسيكي ، على نقيض كل مقاطع القصيدة . ولنلاحظ ما ياتي في قافية المقطع الاخير عن بغداد :

بغداد يا وطني المقدس ، لو سمعت دوي شوقي
لتوهجت قبلاتك الحرى على شفتي وعنقي
وتلفتت عيناك سائلتين عن لفتات طرقي
تهفو الى الحب المجنح ، عبر غرب ، عبر شرق
مترنما بالشعب ، بالسلم الوديع وشمس حقي
انا عائد بعد الغياب بدون قيد ، دون رق

واخيرا ، اين هو النسب بين هذا الكلام ، وبين المقطع الرائع الذي استشهدنا به ؟

جزائري – فارس قويدر

قصيدة عادية ، على النمط الكلاسيكي ، وهي واحدة من الخطوات الاولى لهذا الشاعر الشاب ، لم تتضح فيها هويته بعد ، وان كانت تبشر باخ جديد في عائلة الشعر . غير انني لم استسغ وصف القصيدة بهاتين الكلمتين ، تحت العنوان « اسطورة عربية » ... لماذا ؟!

قطرة حب – الشيخ والقيثار
حسن فتح الباب

هاتان القصيدتان اجمل ما في العدد الماضي من الاداب وان كنت اخذ على الشاعر هذه الضبابية الزائدة ، التي تؤدي احيانا الى حجب الصورة عوضا عن تظليلها .. ان الرمز ، وهو تلك الغلالة التي تلقي على جسد الكلمة ، يجب ان يكون شفافا ، ولهذا السبب نرى ان الرمزية في آن واحد قد تكون عامل قوة او عامل ضعف ، باختلاف المقدرة من شاعر لاخر .

وقيمة القصيدتين تنبع مما فيهما من الصدق والبساطة ، ومن هذا الوجد الهادىء العميق ، الذي لا يملك القارىء الا ان ينفعل ويتجاوب معه .

تساءلت للوهلة الاولى عن مبرر نشر القصيدتين معا في عدد واحد ، لشاعر واحد ، ولقيت الاجابة في هذا الخيط الدقيق يربط بينهما ، خيط الضياع في مدينة صاخبة كبيرة ، ضياع الشاعر في المشرب ، وضياع هذا الشيخ المتكيء على اضلاع قيثاره ، يستجدي على الارصفة ، وابواب المحلات العامة ..

الشاعر تحيتي . واعجابي .

اعراس تموز – علي الحسيني

هذه القصيدة تعتمد على رمز تموز – اله الخصب والنماء – للثورة العراقية ، وحبيبته غالية المهر ، التي هي هنا ارض العراق .

انني لم اقرا كثيرا لعلي الحسيني ، ولكنني في هذه القصيدة ، اصفق له بحرارة ..

غير ان القصيدة ـ وما اثقل كلمة « غير » هذه ـ تصلح ان تكون نموذجا سهلا ، لبيان عيب من ابرز عيوب الشعر الحر ، اعني الاستطراد وبعثرة الفكرة في صور وتداعيات زائدة ، فبعد ان استهل الشاعر قصيدته بهذا المطلع الاخاذ :

« تموز » يا اميري الجميل
يا دفقة الطيوب
يا بسمة السهول ، يا مرافىء الحنان
اتيت ، كذبت الذي يقول :
بان تموز الحبيب مات
في غمرة النضال .. في معارك الجبال
اتيت يا تموز بالعطاء

كان في غنى عن استطراده هذا الضعيف :

وبالثياب الحلى والعطور
والهودج الثمين
اتيت مثلما اتى
في غابر الازمان عنتره
بكل ما يحتاجه زفافنا الحبيب
يادفقة الطيوب ..

وبعد ان قال الشاعر ايضا :

« تموز » اني اذكر الايام من سنين
يوم قدمت بيتنا الكبير
وفي يديك زهرتان حلوتان
وفي فؤادك الصغير
محبة الحبيب للحبيب

كان في غنى عن هذا التفصيل الذي لا طعم له :

يوم اردت ان اكون زوجك الحنون
ويومها ، رايت فيك ما اريد
الحب والايمان والوفاء

وبعد ان قال :

((تموز)) قد اتيت بالقليل

كان في غنى عن الشرح التالي :

وابنتي تريد منك ما تريد
من الثياب والحلي والعطور
فلتات بالمزيد .

وغاية ما اطلبه من القارىء ، ان يقرا القصيدة مرتين : في الاولى كما اراد الشاعر ، وفي الثانية ، بعد حذف الزيادات ، وانا ارضخ سلفا للحكم

انا اسود ـ محمود الحروق

هذا كلام لا علاقة له بالشعر .

الموتى لا يبكون ـ عبد المنعم عواد يوسف

هذه القصيدة ، عبارة عن صياغة دون الوسط ، لفكرة مريضة لا نقبلها. انظروا الى الشاعر الذي حمل مصباحديوجين ، فلم يعثر على ((الانسان)) ولاحظوا ايضا ما جره البحر الخبب على انتاجنا من الشعر الحر ، لاحظوا الشكل والموضوع معا :

وخرجت افتش ذات صباح ..
وبكفي يلمع مصباح ...
مصباح يجرح ضوء الشمس ..
اني ابحث عن انسان . .
انسان ما زال يعيش به الانسان . .
وذهبت اليه بكل مكان ....
انفقت على التنقيب زمان ...
ورجعت ولم الح انسان . .
وبكفي ما زال المصباح ..
ويمر صباح تلو صباح ...
وانا لا اعثر بالانسان ...
قتلوه جبابرة القرن العشرين ...

وهل انتبهتم الى « قتلوه » هذه ، التي اعجب كيف فاتت على الشاعر، والمحرر ! (*)

الاحد الحزين ـ خليل خوري

التقيت مع هذا الشاعر اول مرة ، في قصيدة تقول :

هذا الذي ينشر ما بيننا ظلا من المقت
لو انت لم تصغي الى صوته
لم تمنحيه الجانب الليـنـا لو لذت بالصمت
لكان قال الناس عن حبنا اقوى من الموت

هذا الشاعر الذي اومن به ، فجعت اذ بحثت عنه في قصيدة الاحد الحزين ، فلم اره .. رايت نثرا عاديا ، وكأن جناح الشاعر يوشك ان يلامس الارض ، ولا اظن ان شاعرية الموضوع نفسه ، تشفع للشاعر في شيء .

باريس فيالظلام ـ محمد البخاري

كلفتني هذه القصيدة جهدا كبيرا لاكتناه رموزها ، فلم افلح في معرفة هوية الزوج الغائب الذي تتحدث عنه ، ولا هوية « زوجه هناك » ، ولااقول الغائب في رسالته :

غدا سنلتقي هنا اختاه
في « سان ميشيل » نرشف الحياه
نريح فوق شاطيء السين الجفون المنهكه

فاين كان غائبا وهو يشير بكلمة « هنا » لشاطيء السين ! ثم ما نوع هذه العاطفة في مناجاة زوجه : اختاه !

ان قصيدة« باريس في الظلام » لم تكتب لنا ، على ما اظن .

السيمفونية الثائرة ـ عبد العزيز النعماني

هذه السيمفونية الثائرة ، لا علاقة لها ايضا بالشعر .

وبعد ايها الاخوة الشعراء ، هانذا دخلت الى مقدساتكم ، فآمنت وكفرت ، ولكنني لن اخرج بسهولة !

دمشق

يوسف الخطيب

(*) نحب ان نذكر الناقد الكريم بلفة.. ((أكلوه البراغيث!)) ـ((الآداب))

البطولة في ادب الاطفال

– تتمة المنشور على الصفحة ٣٢ –

الجديدة مرآة سحرية تنظر فيها وتسألها : يا مرآتي الصغيرة : هل في البلاد احد اجمل مني ، فتجيبها المرآة :

سيدتي الملكة : انت اجمل سيدة في البلاد جميعها ...» ثم تتتابع احداث القصة الى ان يقال : « غضبت الملكة غضبا شديدا وامتلأ قلبها بالغيرة والحسد والغيظ وكرهت « سنوهيت » اشد الكراهية وقالتفي نفسها : يجب ان تموت سنوهيت هذه ، يجب ان تقتل » . ثم ذكر في القصة بعد ذلك ان الاميرة نامت خمس سنين دون ان تأكل او تشرب . فنحن اذا نظرنا الى القصة على ضوء ما نعرف من اتجاهات الطفولة ، ادركنا انها مترجحة بين ما يلائم الكبار وما يلائم الصغار فهي اذا بصورتها الراهنة لا تلائم اي فريق من الفريقين ، غير اننا لا نستطيع ان نقدمها للكبار للتسلية ، وتزجية الفراغ محتملين ما نتعرض له من نظرات التهكم عندما يقرأ الطفل نوم الملكة خمس سنين دون ان تاكل او تشرب ، وعندما تتحدث المرآة عالمة بالغيب ، ومخبرة بالحقيقة .

واعود فاقول : ان البطل في هذه المرحلة يجب ان يكون طيرا معروفا ، او حيوانا اليفا او طفلا او احد الاقرباء ، وان يراد ببعض القصص التقليل من حدة الخوف والتعريف بالبيئة ، وتنمية الخيال .

«ثانيا » الطفولة المتاخرة (من السادسة الى الثانية عشرة)

اننا لنقرأ في وجه الطفل في السنتين الاوليين « السادسة والسابعة » تساؤلا وكأنه يقول : اريد ان افهم ما يحيط بي من اشياء ، اي هذه الاشياء حقيقة وايها خيال ؟ لا تدفعوني بقصصكم العجيبة الى الحيرة ، فقد بدأت افهم ان البساط لا يطير ، نعم لا يطير ، لاني رأيته ثابتا وما زال ثابتا . وبدات افهم ان ما اكله الذئب من اولاد العنز لا يمكن ان يعود الى الحياة مرة اخرى . اريد ان اعرف بيئتي على حقيقتها ، واعرف بلادي، واتودد الى اصدقائي ممن يعيشون في بلدتي. انني لاحس كثيرامن الغموض فيما حولي ، وهذا الغموض يقلق نفسي ، فاحس التشاؤم في بعض ايامي ، فروحوا عني بالوان من الفكاهة تسري بعض ما ينتابها من حيرة وكآبة .

انها انتقالة جديدة حقا تحتاج من ادبائنا الى حكمةفي اختيار القصص وانواع الابطال فليكونوا في هذه الفترة من اهل الحرف : كالصناع والزراع والتجار ومن اليهم ممن يؤدون خدمات لمواطنيهم ، وليكونوا كذلك من الغرباء عن اهليهم واوطانهم حين يحسون بالشوق والعودة ، وبذلك نبدأ الخطوة الاولى في طريق الاحساس والوطنية ، على ان يكون خيالنا محدودا بل تغلب عليه الواقعية الا في القليل من الخيال الذي يجذب الانتباه ويحمل عناصر التشويق .

وليكن الابطال الذين تدور حولهم قطع الشعر ، ومقطوعات الاناشيد في هذا المحيط ايضا الام والاخوة والجدة ، والمرضة ، والمعلم وغيرهم ، ولو استطاع الناظم ان يؤدي المعاني التي يريدها في اسلوب قصصي لكان ذلك اوقع في نفس الطفل وادعى الى تأثره . هذا الشاعر الهراوي يتحدث عن العطف الاخوي في ابيات يقول فيها :

كانت ليحيي هرة بيضاء	وسيمة في شكلها حسناء
وكان لا يأكل الا معها	ولم يكن يشبع او يشبعها
فمرة قد جلسا للماكل	واخته فاطمة في معزل
فاجلس الهرة فوق المنضده	يطعمها من لحمة مقدده
فاقبلت فاطمة نحو الهره	تطعمها مثل أخيها مره
فظنت الهرة انها اتت	تريد ان تحرمها ما أطعمت
فرفعت لها يدا بشرها	وخدشت فاطمة بظفرها
لما راى يحيي دماء اخته	صب على الهرة سوط مقته
القى بها من فوره بعيدا	وقال قولا طيبا سديدا
الاخت يا هرة فوق الهرة	ومن يساوي صدفا بدره

وانا وان كنت لا ارضى بقوله « صب على الهرة سوط مقته » من ناحيتين : ناحية ارتفاع الاسلوب الذي لا يناسب السياق ، وناحية الحيوان الذي لا يدرك الا اني واجد في القطعة نهجا شائعا يغري بالقراءة ، ووصفا جميلا لتعاطف الاخوة على انه قد يهون النقد حينما نعلم انه اراد ان يبين مكانة الاخت وانها تفضل كل شيء محبب اليه ، حتى ولو كان هرته العزيزة : « ومن يساوي صدفا بدرة » ويجب ان نعلم ان الفكاهةضرورة لا بد منها ، لانها تشيع الابتهاج في نفس الطفل وتجعله يقبل على الحياة، بل ترغبه في القراءة منذ الصغر،على ان تكونالفكاهة هينة لا يحتاجادراكها الى عمق في التفكير، ويكون ابطالها ممن تجري على ايديهم اعمالتلفتالنظر لما فيها من غرابة . فقد نستطيع ان نؤلف قصصا صغيرة تدور حول طفل ينسى كثيرا فيلبس حذاءه معكوسا ، او يلبس حلة اخيه الصغير فيبدو منظره مضحكا ، او نذكر له قصصا لاناس يقعون في مشكلات ، لانهم لم يفكروا تفكيرا سديدا : كقصة الرجل الذي وجد لوحة معلقة على عمود فلم يستطع قراءتها لضعف بصره ، فصعد ليعلم ما بها ، فلما وصل اليها وقرأها وجد بها هذه العبارة « احترس من الطلاء » . ان هذه القصة وامثالها فضلا عما بها من المرح تاخذ بيد الطفل الى معرفة ما لم يعرف من شؤون الحياة ، فهي تسلية لنفسه وغذاء لعقله في وقت معا .

ولما كان الخيال الذي ننهى عنه انما هو الخيال الجامح الذي قد يوقع الطفل في حيرة كالخرافات التي تؤكد مزاعم العوام ، لما كان ذلك فاننا نستطيع ان نقدم له ما ينطق الطير والحيوان والحشرات ، لان الطفل لا يحتاج الى عناء كبير في ادراكه على حقيقته.ولتكن غايتنا من ذلك توضيح صفاتها ، والافصاح عن عجائبها ، او غرس العادات الصالحة عن طريق بطولاتها وما تقوم به من اعمال ، او الاتيان بطائفة من الفكاهات في حكاياتها سواء اكنت شعرا ام نثرا على ان تكون في مستواه العقلي كما ذكرنا ، من ذلك مثلا قول شوقي على لسان الحمار بعد ان اوقع صاحبه وذهب يستفسر من الثعلب عن فعلته :

في موكب الامس لما	سرنا وسار الكبار
طرحت مولاي ارضا	فهل بذلك عار ؟
وهل اتيت عظيما	فقال : لا يا حمار !

اما الفترة الباقية من الثامنة حتى الثانية عشرة فمن حقنا ان نعود فيها الى الخيال ولكن في الحدود التي لا تجلب المخاوف والمفزعات، وفي الافاق التي لا تحمله على الاستهزاء والسخرية . نعود الى مثل هذا

الخيال آمنين ، لانه اصاب من المعرفة ما يمكنه من التفرقة بين الواقع والخيال . على ان أهم ما نعنى به في هذه الفترة انما هي بطولات الوفاء للوطن والتضحية في سبيله . ومن الامثلة التي اجتمع فيها الخيال بالمعاني السامية في محبة الوطن قطعة شوقي المشهورة وفيها يقول :

عصفورتان بالحجاز حلتا على فنن
في خامل من الرياض لا ند ولا حسن
بيناهما تنتجيان سحرا على الغصن
مر على أيكهما ريح سرى من اليمن

فبطولة القصة هنا تقوم بها عصفورتان رضيتا بجفاف المكان وقلة الغذاء ، تقديسا للوطن ، وايمانا بمكانته العزيزة في النفوس . ثم ردت احداهما على الريح في جواب المؤمن بوطنه المتفاني في محبته .

يا ريح انت ابن السبيل ما عرفت ما السكن
هب جنة الخلد اليمن لا شيء يعدل الوطن

ولست اوافق الشاعر هنا على التمثيل باليمن والحجاز فهما وطن واحد ويجب ان ننبه الاطفال الى هذا المعنى ونؤكده في اذهانهم وقلوبهم منذ الصغر .

وقد يكون من الواجب في هذه المرحلة ان نذكر الطفل بالوان من التضحيات يقوم بها الابطال في سبيل بلادهم : الجندي في ميدان القتال ، والاسير بين ايدي الاعداء ، والفدائي يضحي بنفسه في سبيل المبادىء ، كل ذلك في اسلوب قصصي يلائم الاطفال ، ويتمشى مع ادراكهم واننا لنذكر على سبيل المثال قول احدهم يذكر قصة أسير :

وقف الاسير مقيدا بين الاسنة والعدا
فاذا تلفت حوله وجد السلاح مسددا
قالوا له : ماذا وراءك من معدات الردى
ماذا اعد اميركم للحادثات وجندا

وتسير القصة ذاكرة تهديدهم له بالقتل ان لم يبح بالاسرار ، ومفصحة عن اغرائه بشتى المغريات ان هو باح بها وخان قومه ولكنه لم يفعل :

فتبسم المأسور من هذا الكلام ورددا
عاشت بلادي حرة ولها دمي مني الفدى
افنى ويبقى في علا وطني الحبيب مخلدا

ونعود فنذكر بما سبق ان قلناه من ان الطفل في هذه الفترة وان عاد الى الخيال مرة اخرى ، الا انه لا يميل الى الخيال الجامح ، وانما يميل الى الخيال المحدود : لا يعجبه ان يستمع الى قصة الحصان يطير بصاحبه في الجو ، ولا يعجب بالخرافات الشاذة حينما نذكر له مثلا في قصة من القصص ان عملاقا مفرط الضخامة كان الناس يسيرون على حافة قبعته فلا تقع ولا يحس هو بهم . نعم قد يقرأ مثل هذه الخرافات ، ويقرا قصة الاميرة المسحورة ، وابن عروس البحر ، واصبع الملك وغيرها ، ولكنه يستهين بها متطلعا الى خيال من نوع آخر . وقد يجد في هذه الخرافات من الغرائب ما يزيد من مخاوفه او يدفعه الى دنيا الاوهام والاباطيل . ولست ادري لم يغرق المؤلفون في هذه الخرافات ، فياتوا في قصصهم بالبخور ينطلق منه المارد ويتخيروا الابطال من الجن والشياطين . وفي حقائق العلوم في عهدنا الحاضر مجال لخصوبة الخيال ـ ان شاءوا ـ . ها هي ذي الابتكارات في الاقمار الصناعية ، والذرة ، والصواريخ ومعجزات الطب وغيرها ، كفيلة بان تفسح المجال امام الخيال الابتكاري . فليتخير الادباء ابطالا مغامرين يسافرون الى القمر ، وليتخيلوا معجزات لا تقع في الحسبان توجدها الذرة ، وليذكروا في قصصهم ابطالا يطيرون في الجو بآلات صغيرة وياتون باعمال عجيبة .

وليتخيلوا من معجزات الطب ما يشاؤون . فان هذه خير الف مرة من المارد الذي يخرج من البخور ، لان فيها تنبيها للاذهان ، وبناء للخيال ،

وتخطيطا للانسانية في مستقبل الزمان . ومن الانصاف ان اقول : انني وقفت على بعض القصص التي تستمد خيالها من هذه النواحي ، ولكني اذكر انها وقعت في كثير من الاخطاء ، ففي احداها يقول عمار لبشار بعد ان وصلا الى القمر في صاروخ : انظر الى الارض يا بشار وهي تدور كانها قمر كبير . انظر ! ها هو البحر المتوسط ، وها هي سوريا ومصر ،وها هي آسيا وافريقيا » وكان في الصورة يشير الى الارض وهو ينظر اليها بعينه المجردة فكيف يستبين مصر وكيف يستبين سوريا . ولكني مع ذلك كله اقول : ان هذه القصة واشباهها ـ مهما يكن بها من أخطاء ـ خير من قصص السحرة والشياطين تلك القصص التي لقيت رواجا كبيرا في عهد التاخر والجمود .

في هذه الفترة من الحياة يبدأ التطلع الى القوة : يراها الطفل في قوة الجسد ، وقوة العقل وسعة الحيلة ، وهو يود ان يصل اليها جميعا تلبية لغريزة السيطرة التي قويت في نفسه ودفعته الى طلب الزعامة : ولذلك يرغب في تكوين جماعة يقودها ان استطاع ، ليحارب جماعة اخرى في حي من أحياء بلدته : انها النفس تؤكد ذاتها وتبنى شخصيتها ، وتحاول ان تفرض سلطانها بعد ان انست الى البيئة وعرفت اسرارها ، وقد يجرفه هذا الاتجاه في غفلة من الاباء والمربين الى الفرار من كل قيد ، وتقليد الاقوياء من القتله واللصوص والسفاكين . ونحن بما اوتينا من قوة لا نستطيع ان نئد الغرائز ولكنا نملك توجيهها بما نتذرع به من اساليب وخير ما نتسلح به في هذه الحال الادب الموجه ، نستغل مثله وصوره واعمال ابطاله . ليلتمس الطفل القدوة فيما هو واجد فيه من صفات ، ويعلم ان القوة خير حين توجه لصالح الوطن ، والدفاع عن الكرامة ، وحين يراد بها مواجهة العتاه ، ومؤازرة الضعفاء ، والوصول الى الحقوق . اما حب الغلبة والاعتداء وقهر الناس واستلاب الاموال فانحراف لا يليق بالنفس العزيزة الكريمة .

نسوق هذا كله مساق القصص ، او نقدمه في حوار المسرحيات ، او نصوره في شعر سهل تتقبله نفوس الناشئين ، لان هذه الطرائق افعل بالنفوس ، وادعى الى الاقتداء بالابطال الشرفاء فينشأ الجيل بعد الجيل على عزة النفس واباء الضيم ، وان الوطن لينتظر من ابنائه جراة في موضعها وشهامة في الحفاظ على المقدسات ، وحمية تردع الاعداء . ومما يدعو الى الانتباه في هذه الفترة من الحياة ان الطفل يغرم بالقوة حقا ، ولكنه يحس في جسده من الضآله ما يحول بينه وبين باوغ الغاية التي يريد ، وقد تنعقد نفسه بهذا الشعور ، ومن ثم كان من واجبنا ان نمهد امامه الطريق الى الايمان بنفسه بناحيتين : اما اولاهما فبطولة صبي يتغلب على طاغية . واما ثانيتهما فبطولة الحيلة ينتصر بها الضعيف على القوي . ومن امثلة البطولة قول الشاعر في وصف مدعي الشجاعة .

وكان يلقي الرعب في القلوب	بكثرة السلاح في الجيوب
وكلما مر هناك وهنا	يصيح بالناس انا انا انا
نمى حديثه الى صبي	صغير جسم بطل قوى
لا يعرف الناس له الفتوه	وليس ممن يدعون القوة
فقال للقوم سأدريكم به	فتعملون صدقه من كذبه
وسار نحو الهمشري في عجل	والناس مما سيكون في وجل
ومد نحوه يمينا قاسيه	بضربة كادت تكون القاضيه
فلم يحرك ساكنا ولا ارتبك	ولا انتهى من زعمه ولا ترك
بل قال للغالب قولا لينا	الان صرنا اثنين : انت وانا

واما الثانية فنسلك اليهما طريق الرمز على لسان الحيوان ، على ان يكون البطل حيوانا ضعيفا يتغلب على حيوان قوى : يخدع الارنب الاسد فيوقعه في البئر ، وتفتك البعوضة بالفيل ويتغلب الثعلب على الاسد بحيله ، او يفر من الفلاحين بتماوته وهكذا .. فالطفل لا يغريه فتك الاسد بالارانب ، ولا يسر من قتل الفيل للبعوضة لانه يضع نفسه موضع الصغير . فيتوهم حين يقرأ انه يستطيع ان ينازل الاقوياء المعتدين بما يتخيل من سعة الحيلة وقوة الذكاء ، ومن اجل هذا وجدنا الاداب جميعا ومن بينها الادب العربي تمتلىء بقصص كثيرة من هذا اللون تلبية لغرائز الطفل وتحبيبا له في القراءة والاطلاع ، وترويحا عن نفسه بما فيها من المفارقات والفكاهات .

ثالثا : مرحلة المراهقة

والان ننتقل الى أخطر مرحلة من مراحل الطفولة ، انها مرحلة المراهقة بين الثانية عشرة الى الرابعة عشرة ، وقد تمتد بعد ذلك سنة اخرى او سنتين ، وهذه الفترة من حياة الطفل هي فترة القلق ، فالغريزة الجنسية ثائرة ، والقيود الكثيرة من حوله تقف في سبيله : سلطة الاباء ، وتقاليد المجتمع وتعاليم الدين وسلطان القوانين ، ولذلك نراه مضطربا اشد الاضطراب ، قلقا اشد القلق ، والقيادة التي تتولاه في هذه الحالة هي التي تحدد مصيره ، وترسم مستقبله . وربما كان أدب البطولة في هذه الفترة أنجع علاج نتذرع به اذا شئنا له الصلاح والسلامة .

قد يتمرد بسبب القلق على كل سلطة ، وقد يهرب من آبائه ، وقد يغضب فيسرف في الغضب . ولكنه مع كل هذا يحمل بين جنبيه نفسا طيبة قابلة للتقويم : فهذا القلق نفسه يحفزه الى متنفس في عمل الابطال ، فيخلص لهم اشد الاخلاص حتى لقد سمى علماء النفس هذه الفترة مع خطورتها البالغة ، احسن الفترات لتكوين المثل العليا ، والعادات مثالا للرجولة الكاملة ، ولا يزال اكباره لها يشتد ويشتد ، حتى يترسم خطاها في امانة ، وينسج على منوالها في دقة تامة ، ومن ثم كانت هذه الفترة مع خطورتها البالغة ، احسن الفترات لتكوين المثل العليا ، والعادات الاجتماعية الصالحة عن طريق دراسة الابطال . ولا اقصد بهذه الدراسة اتباع المنهج العلمي او تلقين المعرفة باسلوب جاف ، وانما اريد استغلال الادب وقصصه ومسرحياته وشعره . وفي تاريخنا العربي قديمه وحديثه مادة صالحة للاستغلال الادبي : فيه المجاهدون الابطال ، والفدائيون ، والشهداء والسياسيون ، واهل الرأي والحكمة ، وفيه الانبياء والصالحون والاطهار المقربون وغيرهم ممن صابروا في سبيل المبادىء السامية وضحوا في سبيل الوطن والانسانية . فأفاد من جهودهم العرب بل الناس جميعا. نعم في تاريخنا القديم والحديث ما يصلح غذاء ادبيا سليما واداة صالحة للتقويم ، ولا انكر ان جماعة من الادباء والشعراء قد عمدوا الى هذا التراث الكريم فاقتبسوا منه قصصا للبطولات . فجاء بعضها مناسبا ومال بعضها الاخر الى السرد التاريخي مغفلا التشويق فانصرف الاطفال عن قراءته . ومن المسرحيات الشعرية الشائقة مسرحية تدور احداثها في بور سعيد سماها مؤلفها العدو الجبان ، وابطالها من الغلمان الاذكياء الذين يعتمدوم على الحيلة للايقاع بالاعداء ومنها :

والان هيا يا رفاقي	كل فرد في اتجاه
من رأى منكم عدوا	فلينفذ ما يراه

وبعد ان صرع احدهم احد الاعداء يقول :

صرعتك مصر بكف شبل من بنى الشعب عظيم
شعب العروبة والرجولة والبطولة من قديم

واعتقد ان استغلال التاريخ لا يزال محدودا ، ولذلك ارى ان نعمد الى مادة التاريخ التي بين ايدينا فنقسمها على هذا النحو :

أ ـ علماء او ابطال نبغوا في حداثة السن كالمتنبي والشافعي ومصطفى كامل وغيرهم .

ب ـ ابطال تفوقوا في قتال الاعداء دفاعا عن الوطن او حماية لمبدأ من المبادىء كخالد بن الوليد ، وصلاح الدين وغيرهما .

ج ـ ابطال ضحوا في سبيل مبادئهم كجميلة بو حيرد

د ـ أبطال الاصلاح كجمال الافغاني ، وقاسم امين .

هـ ـ رجال الذهن والورع كعمر بن عبد العزيز

و ـ اخبار الرحالة والكاشفين.

نعمد الى هذه الانواع من البطولات ونجعلها اساسا لقصص ، نضيف اليها من الخيال ما نراه بحيث لا تخرج في جوهرها عن المفهوم التاريخي، وليس يضيرها ذلك ما دامت تقدم الى الطفل على انها لون من الوان القصص لا على انها تاريخ . اماالقصص الشعبي فمن واجبنا ان ننتقي منه ما نراه صالحا ثم نهذبه تهذيبا كاملا ما دمنا نرمي من ورائه الى التربية والتقويم ، وليس من الحكمة في شيء ان نقف في اخراجنا له عند حد الاسلوب كما يفعل بعض المهذبين .

ولا اريد باتجاهنا الى التاريخ ان نهمل جانب القصص على لسان الحيوان والطير فما زال الطفل في مراهقته تواقا الى صوره على ان نخطو به خطوة اوسع مدى واعمق تفكيرا ، ونستغله فيما نريد من الوان البطولات .

قد نقدم في المقطوعة الواحدة شخصيتين او ثلاثا ، ويقوم كل منها بعمل من الاعمال ثم نبين في خلال الابيات او ختامها ايها اعلى قدرا واكثر نفعا ، على ان يكون كل من العملين بطوليا او انسانيا يفاضل بينهما . ولشوقي قطعة شعرية بعنوان « أمة الارانب والفيل » رأيت فيها وفاء بهذه الاتجاهات ، بل ان ما فيها من اشارات بطولية خليقة بان تكون دروسا متعددة في الاخلاق ، ومرانة على مواجهة المشكلات بحزم وتفكير وتعاون مع المواطنين :

يحكون ان امة الارانب	قد اخذت من الثرى بجانب
وابتهجت بالوطن الكريم	وموئل العيال والحريم
فاختاره الفيل له طريقا	ممزقا أصحابنا تمزيقا
وكان فيهم ارنب لبيب	أذهب جل صوفه التجريب
نادى بهم يا معشر الارانب	من عالم وشاعر وكاتب
اتحدوا ضد العدو الجافي	فالاتحاد قوة الضعاف

وتمضي القصة مبينة ان الارانب اختارت بعد هذه الدعوة ثلاثة للتشاور وتدبير حيلة للايقاع بالفيل ، ورأى كل منها رأيا وكان رأي الاول :

ان نترك الارض لذي الخرطوم	كي نستريح من أذى الغشوم

فلم تقبل الجماعة الراي لانه ترك للوطن ، والتنحى عنه كفقدان الحياة.
ورأى الثاني ان يستعان بالثعلب في تدبير حيلة للفتك به على ان يأخذ مقابل حيلته ارنبين فلم تقبل الجماعة :

فقيل لا يا صاحب السمو   لا يدفع العدو بالعدو

ورأى الثالث حفر هوة للفيل وقد نجحت حيلته ، فارادت الجماعة ان تؤمره عليها فلم يقبل وقال :

فصاحب الصوت القوي الغالب   من قد دعا يا معشر الارانب

ففي القصة دعوة الى الاتحاد ، وثورة على الظلم ، واعتماد على المشورة، وتفان في محبة الوطن ، وعدم الاعتماد على الاعداء في صد اعداء اخرين ، وايثار واظهار لفضل صاحب الدعوة على من عاون في نجاحها . فأصبحت القصة بذلك كله خليقة بان نقدم للاطفال في فترة المراهقة .

الاسلوب : اذا كان اختيار الموضوع وما يشتمل عليه من افكار من الامور الهمة التي يجب ان يتوخاها المؤلف مناسبة للمرحلة التي يؤلف لها - اذا كان ذلك مهما ، فان اختيار الاسلوب ملائما كذلك من الاهمية بمكان. فقد تضيع الفائدة لارتفاع في الاسلوب ، وقد يهون الابتذال من قدر القصة في نظر المتعلم من الاطفال ، ومن اجل هذا نرى ان اختيار الموضوع يحدد في كثير من الاحيان مستوى الاسلوب الذي يجب ان يكتب به .
وهذا ما يعنى به المؤلف اذا كان ممن يهتمون بالدراسات النفسية للاطفال .
ولكن هل سارت القصص التي بين ايدينا على هذا الغرار ؟ وهل راعى المؤلفون في اساليبهم عند الكتابة : المواءمة بين مستوى الموضوع ومستوى الاسلوب ؟ اننا لا نجد الا القليل النادر من هذه القصص : اما الكثرة الغامرة من الانتاج : فموضوع لا يلتقي بأسلوب ، واسلوب لا يتغير مهما يكثر الانتاج وارتفاع يند عن مستوى الاطفال ، وتراكب في الخيال .

وقد هبط الاسلوب الشعري في بعض المسرحيات الى حد الابتذال والخطأ في الوزن ، ومن ذلك :

ولسوف نطوي راية الكفر فقد   ضربت عليهم ذلة وخضوع

فيل النبي نجا وها هو قربك   فمضت تطيل الحمد تشكر ربها

كالبرق يلمع كان سيفك نازلا   كالجرح يقطر صاعدا بالروح

وفي هذه الابيات كما نرى اخطاء في الوزن وابتذال في الاسلوب وضعف في المعاني .

وبعد فانا نريد من مؤلفي القصص ان يتخيروا الموضوع ملائما لاحدى مراحل الطفولة ، فاذا تأكدوا من ذلك تخيروا الاسلوب المناسب لهذه المرحلة ، وبذلك تاتي اساليبهم متفاوتة بتفاوت الموضوعات .

القصص المترجمة :

قد يستطيع الطفل في مرحلة المراهقة ان يقرأ الوانا من القصص المترجمة تتضمن وصفا لبيئات اجنبية ، وتحمل اسماء لم يسمع بها في بيئته ونشرح عادات وتقاليد تختلف عن عاداته وتقاليده . وهو دون هذه السن احوج ما يكون الى ادراك بيئته اولا والبيئات العربية ثانيا، ومن الخطأ ان نسبق به الزمن فنقدم اليه ما لا يستطيع ادراكه او يراه ابعد من آفاقه .

فاذا شئنا الترجمة لمن هم دون المراهقة كان من واجبنا ان نعرب الاسماء ونغير ملامح البيئات ، ونلون العادات والتقاليد بما يجانس بيئاتهم.
وقد اطلعت على مجموعة من القصص المترجمة عن الايطالية ، فوجدت في صورها جمالا ، وفي اخراجها روعة ولكنها تضمنت الوانا من العادات التي لا تلائم ابناءنا واشتملت على كثير من الخرافات والاحداث المفزعة التي نأمل ان ننزه افكار الصغار منها في العهد الجديد .

وقد عمد بعض الادباء الى تلخيص القصص عن الآداب الاجنبية ، وراعوا في اساليبهم السهولة معتقدين انها بقصرها وسهولة اسلوبها اصبحت ملائمة للاطفال ، ونسوا ان الموضوع وما يشتمل عليه من احداث فوق المستوى وانها بهذا لا تصلح اداة للتوجيه وربما نفرته من القراءة، او اساءت الى نفسه واخلافه .

وشبيه بهذا عمل بعض المترجمين ممن تخيروا الموضوع ملائما لبعض مراحل الطفولة ولكنهم ملأوا اساليبهم بالوان شتى من صور البيان وغريب الالفاظ ، يقول احدهم في قصة للاطفال :

« ثم انثنت مزهوة الفرحة الوسنانة التي يفتر بها محياها وتلالات ثناياها . غدت بسمات تتوثب على ملامحها وتطفر ، آنا راقصة وانا معابثة ، على خديها فوق ثغرها الضاحي في لمح عينيها ، اذ يبرق بين اهدابها المشرعات كالسهام » وبمثل هذا الاسلوب يجلى المترجم احداث القصة على انها للتلميذ بل التلميذ الصغير كما يبدو من صغر القصة ، وصورها وطريقة طبعها وعرضها .

كلمة ختامية :

ونحن في ختام هذ الكلمة نتوجه الى المؤلفين من الشعراء والكتاب والمترجمين والمهذبين لقصصنا الشعبي آملين ان يهتموا بالنواحي ، الاتية ، حتى يكون لاعمالهم آثارها المجدية في تنشئة الجيل الجديد :

١) عليهم ان يتخيروا لكل مرحلة من مراحل الطفولة ما يناسبها من الموضوعات ، وان يتوخوا في بيانهم الاسلوب الملائم لكل مرحلة ، على ان تكون الدراسة النفسية الاساس فيما يؤلفون .

٢) وعليهم - اذا شاءوا التهذيب من ادبنا الشعبي للاطفال - ان ينتقوا منه الوانا يجيلون فيها يد الاصلاح ، حتى تأتى خالية من الشوائب، مجدية في تنمية الخيال ، مهذبة للاخلاق بما نعرض من المثل الصالحة للابطال .

٣) ومن واجب المؤلفين ان يهيئوا اذهان الناشئين للوثبات العلمية في العالم ، وان يبشروا بونبات ووثبات ، وان يجعلوا من العلوم والاختراعات مادة الالوان من الخيال ونماذج لطائفة من البطولات ، ولعلهم يجدون في هذا غناء عن بطولات الجن والشياطين .

٤) وعليهم ان يجعلوا تاريخنا الماضي والحاضر وما فيه من بطولات ، وسائل لتنشئة الابناء على العزة والكرامة بما يجدون فيه من المثل العليا تلك المثل التي تضيء امامهم الطريق الى اشرف الغايات .

وبعد ، فاني ذاكر لمؤلفي ادب الاطفال جهدهم وفضلهم ، ومنوه في هذا المؤتمر الكريم ، بفضل بعض المجلات على تربية الناشئين ، وارجو ان يتابع الادباء نشاطهم وان يلتمسوا بادابهم اقوم الطرق للاعداد والاصلاح ، حتى يعدوا ابطال المستقبل بما يقدمون من النماذج الرائعة للبطولة فقد كان الادباء وما زالوا الرواد الذين يسيرون في مقدمة الركب الى اسمى الغايات، وها هي ذي الامة العربية قد وضعت في أيديهم خير امانة ، وضعت في أيديهم أعز شيء لديها ، وضعت آمالها العزيزة ومستقبلها الذي تصبو اليه ، وضعت جيلها الصاعد ، بل وضعت الابطال احفاد الابطال .

احمد ابو بكر ابراهيم

مفتش بمعارف الكويت

وقائع مؤتمر الادباء وتوصياته

ـ بقية المنشور على الصفحة ٩٦ ـ

البطولة العربية وابراز السامية وغاياتها النبيلة . يدعو المؤرخين الى تاريخ البطولة العربية في مختلف ادوار التاريخ العربي وفي مختلف اقطار العروبة ، والى ابراز خصائص هذه البطولة والوانها المختلفة ، وما رافقها من عوامل الكبت احيانا ، وما تحلت به من مزايا الانطلاق .

ويدعو الادباء المنشئين الى ابراز صور هذه البطولة في روائع نثرية وشعرية (رواية ، قصة ، مسرحية ، ملحمة) .

ويدعو المتخصصين منهم بادب الاطفال الى العناية بتثقيف الطفولة ، عن طريق التاريخ العربي ، بكل ما يهذب النفس من المثل العربية العليا. ويدعو بصورة خاصة الى ابراز بطولة المراة العربية اما ومواطنة ، وصاحبة راي وحاملة سلاح .

ويدعو المؤتمر ادباء العرب الى استيحاء الادب الشعبي فيما يصوره من صور البطولة ، وذلك تأصيلا للادب واذكاء للعبقرية القومية كما يدعوهم الى العناية بنقل هذه البطولات من اللهجات الاقليمية المتعددة الى اللغة الفصحى توثيقا لروابط القومية العربية .

ب ـ يدعو المؤتمر جميع الناشرين بوجه عام ((دور النشر ، دور الاذاعة ، مسارح التمثيل ، مخرجي الافلام السينمائية)) الى العناية الفائقة بالانتاج البطولي ، بحيث تكتمل روعة التاليف بروعة الاخراج الفني .

ثانيا : ـ في التشجيع

يدعو المؤتمر الحكومات العربية الى تشجيع التاليف البطولي ونشره بمختلف وسائل التشجيع ، ومنها :

أ ـ تخصيص جائزة سنوية لكل من الفنون الاتية : الشعر ، الرواية القصة ، المسرحية ، الملحمة ، بحيث يجاز احسن انتاج بطولي في كل من هذه الفنون الادبية .

ب ـ تخصيص اعتماد سنوي في الموازنة لمساعدة مسارح التمثيل .

ج ـ تشجيع دور النشر بشراء نسخ كافية من المطبوعات الناجحةفي ادب البطولة وتوزيعها على المكتبات العامة في البلاد العربية وفي البلدان الاجنبية .

د ـ بناء المسارح للتمثيل او المساهمة في بنائها . وبشكل عام ،تقدير الانتاج البطولي ، وتقدير نشره واذاعته .

١ ـ ان توسع اختصاصات الادارة الثقافية ومعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية وان تعتمد ميزانية مناسبة لهما حتى تتمكنا من القيام بالعبء الذي القاه المؤتمر على كاهلها .

توصيات عامة

٢ ـ ان تبذل الدول العربية جهدها لمنع حصول فرنسا على البترول، وهو المادة الحربية الهامة التي تستعملها في حربها الوحشية ضد الشعب العربي في الجزائر وذلك بجميع وسائل المنع الممكنة . كما يوصي المؤتمر الجامعة العربية بدراسة موضوع عدم استفادة جميع الدول الاستعمارية من البترول العربي المعتدية على بعض اجزاء الوطن العربي ، بغرض الوصول الى نتيجة ايجابية في هذا الموضوع .

٣ ـ ان ينشيء الاتحاد العام للادباء العربعند تكوينه جائزة او وساما فكريا يمنح لاحسن انتاج ادبي كل عام ، ويمكن ان تكون الجائزة ذات فروع تمثل الالوان المختلفة للانتاج الادبي .

٤ ـ ان تفتح الجامعات والمعاهد العربية ابوابها للطلبة الجزائريين دون تقيد بالعدد ، كما يناشد المؤتمر الهيئات العلمية والادبية والعلماء والادباء ودور النشر بان تتبرع بالكتب والمجلات الى المكتبة العامة لوزارة الثقافة للحكومة الجزائرية بالقاهرة ((٤ شارع مديرية التحرير جاردن ستي بالقاهرة)) .



الجائزة الثانية : بطل القسطل (عبد القادر الحسيني) للفنان سهيل عياش



الجائزة الثالثة : المتوحشون ـ للفنان عبد العزيز العقيلي

٥ ـ مناشدة حكومات الدول العربية في رعاية المتعلمين من ابناء فلسطين الذين لا يجدون عملا ، تخفيفا من حدة البطالة التي يخيم شبحها على الجزء الباقي من ارض فلسطين.

٦ ـ يوصي المؤتمر الحكومات العربية باطلاق اسماء الابطال العرب على الشوارع والمؤسسات العامة ، تخليدا لذكرهم ومحوا لاثر الاجنبي في مدننا واحياء لروح البطولة في ابناء الجيل .

٧ ـ ان يخصص يوم يسمى « يوم فلسطين » تتفق عليه البلاد العربية لتعبئة الراي العام ، ويسهم فيه جميع الكتاب العرب والاذاعات العربية، وان يشمل اليوم جمع تبرعات لدعم قضية فلسطين وان تبلغ هذه التوصية الى جامعة الدول العربية .

٨ ـ ان يوجه نداء الى رؤساء الحكومات العربية باطلاق سراح الادباء المعتقلين بسبب ارائهم السياسية .

٩ ـ توجيه نداء في الصحف والاذاعات العربية والاجنبية الى الاحرار من كتاب العالم وشعرائه ان يناصروا القضايا العربية ، وان يشدوا من ازر شعوبها المكافحة ضد الاستعمار العادي على بلادهم .

١٠ ـ مناشدة الجامعة العربية في وضع نشيد قومي عربي عام .

١١ ـ انشاء مصرف ثقافي عربي يقوم بتمويل المشروعات الثقافية في البلاد العربية والمساهمة في طبع الكتاب العربي ونشره على اوسع نطاق .

رابعا ـ تقرر ارسال ما يلي :

١ ـ برقية الى السكرتير العام للامم المتحدة للمطالبة بتنفيذ قرارات الجمعية العامة فيما يتعلق بعرب فلسطين .

٢ ـ برقيات الى السكرتير العام للامم المتحدة تأكيدا لعروبة البحرين واستنكارا لنفي احرارها ، ومزاعم ايران فيها واستنكارا لاعمال بريطانيا الوحشية في جنوب اليمن المناضل وعدوانها على شعب عمان المكافح .

٣ ـ برقية الى السكرتير العام للامم المتحدة استنكارا للحرب الوحشية التي تشنها فرنسا على عرب الجزائر، والمطالبة بالاعتراف بحقوقهم المشروعة في الحرية والاستقلال .

٤ ـ برقية تهنئة الى الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة ذكرى الجلاء الثانية عن بور سعيد .

٥ ـ برقية تأييد وتقدير لجلالة ملك المغرب لاصراره على طلب جلاء القوات الاجنبية عن التراب المغربي .

٦ ـ برقية تهنئة الى السيد رئيس الحكومة العراقية بمناسبة ثورة التحرير العراقية .

٧ ـ برقية الى الاديب العربي الاستاذ توفيق الحكيم تهنئة له بما نال من تقدير بالانعام عليه بارفع اوسمة الجمهورية العربية المتحدة .

٨ ـ برقية الى اسرة المرحوم صلاح لبكي اول من دعا الى عقد مؤتمر الادباء العرب الاول .

خامسا :

يؤكد المؤتمرون رغبتهم في ان تبقى دورات المؤتمر المقبلة كما كانت دوراته السابقة مشبعة بروح الود والتفاهم والحرية ، وينتهزون فرصة انتهاء الدورة الحالية ليشكروا لحكومة الكويت حرصها على تامين الصورة المثالية لمؤتمر الادباء العرب بما ساد هذه الدورة من الحرية الكاملة في ابداء الاراء ، وادارة المناقشات وبما اتيح فيها من الفرص المتساوية امام اصحاب البحوث والمعلقين والمناقشين على السواء في جو من الحرية الفكرية المطلقة .

سادسا :

يرى المؤتمر لزاما عليه ، وقد وصل الى هذا النجاح الكبير في هذه الدورة ان يتقدم بوافر الشكر والتقدير للكويت العزيزة حكومة وشعبا على ما اولى المؤتمر والمؤتمرين من عناية ورعاية ويخص بالذكر سمو حاكم الكويت الشيخ عبدالله السالم الصباح ، وسمو نائبه الشيخ عبدالله المبارك الصباح ، وسمو رئيس المعارف الشيخ عبدالله الجابر الصباح ، ويوجه المؤتمر تقديره الخاص للاستاذ عبد العزيز حسين مدير المعارف الكويتية والسكرتير العام للمؤتمر .

القسم الثاني – في الكتاب العربي

اللجنة الاولى : النشر والتوزيع

١ – يوصي المؤتمر بانشاء شركة قومية لتوزيع الكتاب العربي على نظام الشركات المساهمة ، مقرها الرئيسي القاهرة ، براس مال كاف .

٢ – في سبيل اطلاق نقل الكتاب العربي يوصي المؤتمر بان يطبق نظام البطاقات « البونات » المتبع بمنظمة اليونسكو ، وتقوم هذه البطاقات مقام العملة في استيراد الكتب وتصديرها وتتولى الجامعة العربية دراسة هذا النظام من الناحية الفنية والمالية ، كما يوصي بان تخفض رسوم الجمارك على الورق المستعمل لطبع الكتب .

٣ – يوصي المؤتمر بمراقبة ومكافحة الكتب ، وغيرها من المطبوعات التي تتعرض لتشويه تاريخ العرب ، او تبعث على التشكيك في قوميتهم باية لغة كانت ، ومن اية جهة وردت .

٤ – توصيه بالغاء اذون الاستيراد عن الكتب في جميع البلاد العربية مع تسهيل نقل المبالغ التي يستحقها المؤلفون عن مؤلفاتهم ، التي تنشر في بلد عربي غير بلد المؤلف .

اللجنة الثانية : لجنة الترجمة

اولا – تنشأ بالادارة الثقافية بجامعة الدول العربية لجنة لتنسيق اعمال الترجمة ، وتقوم بالاتصال بجميع الهيئات العربية والدولية التي تعنى بهذا الموضوع ، وخصوصا في الامم التي اقتضت نهضتها الحديثة العناية بشؤون الترجمة .

ثانيا – فيما يختص بمهمة اللجنة المقترحة يوصي المجتمعون :

١ – انتكون الترجمة اساسيا نقل الروائع العالمية من مختلف الاقطار الى اللغة العربية ، ونقل روائع الادب العربي الى اللغات الاجنبية .

٢ – المبادرة بنقل ما كتبه ادباء العرب باللغات الاجنبية الى اللغة العربية مع العناية بآثار ادباء الجزائر الخاصة .

٣ – ان تعمل اللجنة على تصحيح اخطاء الترجمات السابقة ، اما باعادة ترجمتها او بالاستدراك عليها حسب مقتضى الحال ، ونخص بالذكر ما نقله بعض المستشرقين من الادب العربي .

٤ – نشر فهرست تفصيلي للترجمات السابقة من اللغات الاجنبية الى العربية او العكس .

ثالثا – توصي اللجنة جميع الدول العربية بان تنشأ في كل منها ادارة تختص بشؤون الترجمة الادبية ، تخصص لها ميزانية مناسبة وترصد في اعتماداتها جوائز تشجيعية سنوية لاحسن الترجمات مع الاتصال بين هذه الهيئات وبين لجنة التنسيق في جامعة الدول العربية .

رابعا – اعانة الحكومات لدور النشر في نشر ترجمات الكتب التي تنقص المكتبة العربية ، والتي لا تستطيع دور النشر ان تقوم بنشرها لاعتبارات تجارية ، وبناء على هذه المعونة تقوم دور النشر باخراج الكتب اخراجا لائقا وباثمان معتدلة .

خامسا – ترى اللجنة ان تشمل التوصيات العامة للمؤتمر الاهابة بالادباء – ومن ينضم اليهم ممن يؤمنون باهدافه – ان يلاحقوا توصيات المؤتمر للعمل على تنفيذها بكل الوسائل المشروعة ، على ان يقوم المؤتمر بتبليغ هذه التوصيات للحكومات وجامعة الدول العربية .

سادسا – تقترح اللجنة ان يكون موضوع انشاء (بنك ثقافي عربي)من الموضوعات الجديرة بالبحث في مؤتمر تال ، ويقوم هذا البنك بتمويل المشروعات الثقافية في البلاد العربية ، والمساهمة في طبع ونشر الكتاب العربي على نطاق واسع .

اللجنة الثالثة : لجنة التراث

يوصي المؤتمر جامعة الدول العربية بتوسيع اختصاصات معهد المخطوطات الموجود بها بحيث يشمل خدمة التراث بتحقيقه ونشره ، كما يوصي بجمع الفهارس المكتوبة لهذا التراث من جميع المكتبات العامة والخاصة في كل قطر من الاقطار .

ويوصي المؤتمر ان يدرس معهد المخطوطات تقرير لجنة التراث للاستعانة به .

اللجنة الرابعة – لجنة المجلة

اولا – اصدار مجلة عربية جامعة تعنى بقضايا الوطن العربي وتعزيز الوعي القومي وتعني بشؤون الفكر قديمها وحديثها في مختلف البلاد العربية ، كما تعنى بابراز القيم الانسانية ونقل روائع الفكر العالمي ، مع العناية بالنشاط الثقافي الحديث وبالتعريف بالكتب الجديدة ، ومباحث النقد الادبي .

ثانيا – يتولى المكتب الدائم لمؤتمر ادباء العرب الاتصال عن طريق جامعة الدول العربية بهذه الدول لرصد ميزانية خاصة لتمويل المجلة تسهم فيها الجامعة .

ثالثا – تصدر المجلة شهريا في مقر المكتب الدائم لمؤتمر ادباء العرب بالقاهرة .

رابعا – تتالف هيئة فنية للمجلة تمثل فيها المكاتب الفرعية لمؤتمر ادباء العرب ما امكن تكون مهمتها اختيار لجنة للاشراف على اصدار المجلة في القاهرة ، وتغذيتها بالمواد من مختلف البلاد العربية .

خامسا – يتكون راسمال المجلة من مبلغ كاف .

سادسا – توصي اللجنة المكتب الدائم لمؤتمر ادباء العرب بالسرعة في السعي لاصدار المجلة قبل الدورة القادمة للمؤتمر .

اللجنة الخامسة – لجنة حقوق المؤلفين

يوصي المؤتمر بالدعوة فورا الى انشاء اتحاد للادباء في كل دولة عربية . على ان يكون هناك اتحاد عام يمثل هذه الاتحادات جميعا ، ويكون في مقدمة غايات هذه الاتحادات والاتحاد العام العمل على اصدار قانون لحماية حق المؤلف ، مع الاستئناس بالقانون رقم « ٣٥٤ » الذي صدر بجمهورية مصر سنة ١٩٥٤ . والى ان تقوم هذه الاتحادات يوصي المؤتمر جميع الدول العربية بان تعمل على وضع اتفاقية بين الدول الاعضاء لحماية حق المؤلف ، على ان يكون وضع هذه الاتفاقية عن طريق جامعة الدول العربية .

قرار

يعتبر المؤتمر المكتب الدائم بالقاهرة حلقة اتصال تربط بين الجامعة العربيةوبين المكاتب الفرعية والاعضاء المشتركين في المؤتمر ويوصي المكتب ان يقوم بهذه الرسالة وان يعقد اجتماعات دوريةويعرب المؤتمر عنتقديره للمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب بالقاهرة على مجهوده في تدعيم هذا المكتب وتسهيل المهمة الملقاة على عاتقه راجيا ان يستمر في هذا المجهود المشكور .

هذا وقد اقيم في مقر سكرتارية المؤتمر معرض عام لرسوم البطولة اشترك فيه عدد من المحترفين والهواة وقد حوى المعرض اكثر من مئتي لوحة واجريت مسابقة في الرسوم المعروضة للهواة ففازت الصور الثلاث التي يجدها القارىء في هذه الصفحات .

البطـولة في الادب الجاهلي

— تتمة المنشور على الصفحة ٤٤ —

بها الخيال ، فينكرها العقل ، ويستعصى فهمها وتعليلها على الانسان ، ولا يملك حيالها الا التسليم والاستسلام . لم يكن البطل العربي من رحم السماء على قمم الجبال ، ولم يكن من سلالة الالهة وانصاف الالهة واشباهها ولم تكن في بعض اعضاء جسمه مكامن للقوة نفثتها فيه قوى سحرية غيبية ، ولم يكن تؤيده ارواح غير منظورة ، ولم تكن تسعى معه او تسعى عليه وحوش اسطورية خرافية .

بل كانت البطولة العربية الجاهلية تنبع من اعماق الانسان ، من اغوار وجوده البشري ، وتسعى معه على الارض ، وتدرج في المجتمع من حوله ، كانت بطولة انسانية بشرية تستمد وجودها وحياتها ومظاهرها من واقع الناس : يرونها ويسمعون عنها فيعرفونها ولا ينكرون من امرها شيئا ، ويبصرون لها مشابه تستقيم مع الفهم وتنطبق على الحقيقة الواقعة، كانت بطولة واضحة مبسوطة كوضوح صحراوات الجزيرة وانبساطها .

ومن هنا اختلفت البطولة العربية كما يصورها الادب الجاهلي عن البطولات الاخرى التي صورتها لنا الملاحم المعروفة والاداب الشعبية عند الامم من غير العرب .

وثاني الخطوط العامة في صورة هذا « النموذج » ان هذه البطولة لم ترن اليها ابصارهم وتهف اليها نفوسهم ، ولم تعش في وجدانهم وتخلد في ذاكرتهم وتتناقل قصصها اجيالهم ، لما فيها من ظاهر البطولة الحربية في شجاعتها وقوتها وغلبتها . لقد كانت هذه البطولة الحربية مظهرا يطوي في ثناياه دلالات ، ووسيلة تتحقق بها معان ، وكانت هذه الدلالات والمعاني هي التي تكون « المضمون » الحقيقي للبطولة ، وبغيرها تكون البطولة الحربية — فيما يرون — شيئا تافها عابرا ضائعا لايستحق الذكر والتخليد . ومن اجل هذا نجد كل فخر بالشجاعة والقوة ، وكل تمدح بمقارعة الاقران والغلبة عليهم ، مقرونا — قران ترابط وتلازم — بذكر تلك المعاني والدلالات لتتم الصورة الحقيقية للبطولة فالبطل يقارع الاعداء ويصرعهم : يذب بذلك عن الحرمات ، ويحمي الذمار ، ويدرك الثار ويعف عند المغنم ، او ياخذ ممن يملك ليقسمه على من لا يملك ، ويقرى به الضيف الطارق حين لا يجد له قرى ، او ليدفع عن مستجير اذى ، او يفي بذمة ويحفظ عهدا .

كانت « البطولة الحربية » اذن عند العربي في الجاهلية وعاء تملاه هذه الجوانب المتعددة من « بطولة النفس والخلق » ومنهما معا تكتمل الصورة الحقيقية للبطولة التي عاشت في ضمير العربي وتمثلها وجدانه.

بل لقد بلغ احساس العربي بهذه المعاني من الارهاف والعمق مبلغا جعله يخرج بها الى المغالاة ، فيبلغ قمة التمثل لها والشعور بها : لقد كانت هذه المعاني اصلا استجابة طبيعية لروح المجتمع من حوله ، فاخذ يحققها فيما يقتضيه مثل هذا المجتمع وقيمه وما تفرضه عليه احتياجاته الاجتماعية ، ولكنه — لفرط احساسه بهذه المعاني ، وعمق تجاوبه باصدائها — اصبح همه ان يحققها على اي وجه جاء هذا التحقيق : فصار يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه وصار يجير الوحش فلا يهاج ، ويجير الجراد فلا ينفر ولا يؤذي ، بل لقد صار يجير على الدهر .

حتى اولئك الصعاليك الذين اتسمت حياتهم في ظاهرها — بالفردية والخروج على المجتمع ، والذين كان ينبغي ان تقودهم هذه الحياة الى الانخلاع من هذه المعاني والانفصال عن رحابها ، بحيث تنحصر بطولتهم الفردية في مظاهر القوة وحدها وتقتصر على النهب والسلب لذاتهما ، فيعوضون بما يغنمون ما افتقدوا من روابط اجتماعية حتى اولئك الصعاليك تمثلت فيهم هذه المعاني تمثلا جليا ، وحسبنا ان نقرا في ذلك قصائد الشنفري وخاصة لاميته ، وقصائد تابط شرا وخاصة رثاءه الشنفري ، وقصائد عروة بن الورد ، وغيرهم — وهم كثر — لنستبين في وضوح ان تمدحهم وتمجدهم لم يكن بمظاهر بطولتهم في القتال ، وانما كان بما تحققه هذه البطولة من معان نفسية وخلقية واجتماعية .

وخط ثالث عام في صورة هذا « النموذج » هو هذا الاحساس العميق الذي كانت تجيش به نفس العربي نحو : فرسه ، وسيفه ، ورمحه . لم تكن مطايا والات للقتال ، بل كانت نفوسا حية ، يعايشها ، ويناجيها، ويتسمع لحديثها ، فيفهم عنها وتفهم عنه ، ويستجيب لها وتستجيب له ، ويشركها في امره ، كانت بضعة منه : من نفسه ، كانت بعض اسرته، لها اسماؤها والقابها ، يدعوها بها ، ويعتز بالنسبة اليها ، فكان اقصى ما يصل اليه البطل ان يعرف به ، ومن هنا كان : فارس الضحياء ،وفارس الشوهاء ، وفارس الشهباء ، وفارس الصرماء ، وفارس الشميط ، وفارس قرزل ، ومن هنا كان : صاحب الصمصامة ، وذو الرمحين ، وملاعب الاسنة ، وجفل الطعان .

هذه الصلة النفسية الصادقة كانت تابى على الفارس ان يمتطي فرسه لغير ما مكرمة يكسبها لنفسه او لقومه وتلك المشاركة الوجدانية الحية كانت تربا بالبطل ان يمتشق حسامه او يفوق سهمه او يرمي برمحه في غير ما محمدة يصيب خيرها غيره ، فتؤثر عنه ويشيع خبرها ، فتملاه عزة وفخرا .

وخط رابع من خطوط صورة هذا « النموذج » ان البطل العربي في الجاهلية قد تدفقت بطولته في حسه تدفقا عميقا اصيلا حتى تفجرت بها نفسه بيانا وشعرا ، وجميع « النماذج » الكبرى للابطال الجاهليين الذين خلد تاريخنا ذكرهم لهم من الشعر ما يبلغ لبعضهم ديوانا، ومع الشعر اجتمعت لهم الحكمة ، وسداد الراي ، والبصر النافذ في شئون الحياة . فكان كثير من هؤلاء الابطال يسودون قومهم في السلم فيصدرون عن رايهم ، ويقودونهم في الحرب فلا يعصون لهم امرا .

وكما كان الناس يقصون اخبار البطل في وقائعه فتكون مادة للاحتذاء والاقتداء وشحذ الهمم واستحياء النفوس ، كانوا كذلك يروون شعره الذي تتفجر به نفسه بيانا عن بطولته في الحرب وعن مآثر هذه البطولة ومصادرها النفسية ونتائجها الاجتماعية ، وبذلك كان هذا الشعر يسن من الخلال ما يبقى حيا في نفوس الاجيال بعد الاجيال .

ومن خلال هذا التراث نستطيع ان نستشف مقومات النفس العربية وخصائص بطولتها ، ولا بد حتى تستقيم صورتها في نفوسنا ان نصل ما بيننا وبين هذا التراث ، وان نعيد تمثله تمثلا حيا مستقصيا واعيا حتى يكون تجددنا تطورا ناميا متصلا بجذور اصيلة ثابتة .

ناصر الدين الاسد

حول البطولة وادب الاطفال

— تتمة المنشور على الصفحة ٣٥ —

وبنفسه الى الخيبة .

وان من عبقرية اللغة العربية انها قد نصت في اصول بيانها على امور تصحح ما قد يتعرض له الفكر من وهم ، وتدفع شر هذه الصنمية والغرور والخيبة . فتنبه علماء اللغة على ما سموه المجاز العقلي . فاذا قلنا بنى الخليفة المنصور بغداد او بنى المعز القاهرة ، فهذا مجاز ، والمراد به على الحقيقة ان بغداد بنيت في خلافة المنصور والقاهرة بنيت في خلافة المعز، بناهما عمال امة او شعب او مجتمع ومهندسو امة او شعب او مجتمع، بما يسر لهؤلاء من طاقة مادية او فكرية ساوقوا بينهما .

وعلى ذلك فالادب البطولي الذي نريده لاطفالنا نشترط فيه ان يدل دائما على اصل البطل انه عطاء الامة ، عطاء الشعب ، عطاء المجتمع ، كما نشترط في هذا الادب ان يبين كيف يتكون هذا البطل ، كيف تنمو شخصيته البطولية ، بفعل الامة ، بفعل الشعب ، بفعل المجتمع ، وكيف يذبل هذا البطل ويتقلص حتى يصير الى لا شيء حين تنقطع جذوره الضاربة في اعماق امته ، اعماق شعبه ، اعماق مجتمعه !

وبالتالي ، هذا يعني ان البطولة لا تقوم بلا مقوم من قضية عادلة مردها الى مطالب الامة ، مطالب الشعب ، مطالب المجتمع ، في عصر او حقبة .

وينبغي في هذه القضية العادلة ان تكون واضحة أجلى الوضوح في كل ادب بطولي ندفع به الى اطفالنا . ليست البطولة شكلا وان كان الشكل مهما . ان البطولة جوهرة اللصوص الذين يقطعون الطرق ، والمستعمرون جلادو الشعوب ، يحسنون ضربا بالسيف او اطلاق نار بالرشاشات ، ويتصدون للموت ولا يخافون ، ومع ذلك هم ابعد شيء عن ان يكونوا ابطالا ، لماذا ؟ لانهم اصحاب قضية غير عادلة ، قضية سافلة ! ولانهم اصحاب حقد ، فالبطولة شريفة وحين تحقد البطولة ، فانما تحقد لمحبة اكبر واعظم .

وربط البطولة بقضية عادلة شيء في صميم تقاليد ادبنا العربي. هل خطر لاحدكم ايها الاخوان الزملاء ، ان يتتبع اشهر قصة بطولية عربية ، قصة عنترة بن شداد ، ليجد معركة اقدم عليها الفارس العبسي لم تكن مربوطة بقضية عادلة ؟ لقد فعلت ذلك وانا اعيد كتابة هذه السيرة البطولية ، فما وجدت عنترة يخوض قتالا الا كان فيه دافعا لظلم او منتصرا لحق .

وهذه القضية العادلة التي يجب ان تعترف بها كل بطولة ، توصلنا الى القول : ان الادب البطولي ، الذي نريده لاطفالنا لا بد له من ان يكون ادبا خلقيا هو حصيلة التوجيه الى مناقبية انسانية . والامام الغزالي لم يعد الصواب حين اكد في الكلمة التي نقلها عنه الزميل المحاضر على المدلول الخلقي في ادب للاطفال .

لكن لا بد هنا من احتراس . فالخلقية في الادب لا تعني الوعظ . فالوعظ ثقيل على الانفس خصوصا انفس الاطفال . اجل ، ولا تعني الخلقية في الادب ان المغزى الخلقي يجب ان يصرح به دائما تصريحا ، بل الافضل ان يترك للطفل نفسه تحصيل المغزى ، على ان يكون سهلا تحصيله لوضوحه في السياق ، فان ذلك يعود الطفل التفكير ويرضيه من حيث يؤكد له قدرته على الاكتشاف ، ويعفيه من ثقل الوعظ . كذلك لا تعني الخلقية في الادب ان القضية العادلة التي لا بد منها في كل بطولة ، يجب فيها ان تكون خطيرة. فثمة كثرة من القضايا الصغيرة التي تفعل في نفس الطفل فعلا ينمي فيه شخصية بطولية . وليس هذا هو الشأن في الاطفال وحدهم بل في الكبار ايضا . ان تصوير عمل بسيط من اعمال الصداقة مثلا جدير ان يرسخ الشعور بفضيلة الصداقة في نفس الطفل ، وجدير بالتالي ان يهيئه لعمل بطولي في رجولته. ولو اننا بحثنا في انفس الابطال عن الدوافع الى البطولات الكبار لوجدناها مشاعر انسانية عادية ، كالصداقة مثلا ، صداقة لجار او لرفيق في مدرسة ظلمه استعمار او بغت عليه حكومة رجعية فانتصر له ومشى من ثم في طريق النضال ضد الاستعمار والرجعية حتى تكشف عن بطل ...

وكذلك لا تعني الخلقية في الادب ، خصوصا ادب الاطفال ، ان تكون الصورة التي نرسمها لحوادث الحياة او للابطال انفسهم صورة مثالية بحيث تدور الحوادث ابدا في مدار من الخير ، وبحيث يأتي الابطال دائما كاملين لا عيب فيهم . ان مثل هذا الجو النظيف المنقى هو غش الاطفال ، وتجريد لهم من سلاح المعرفة والخبرة بالحياة وتكليف لهم ان يجاروا نماذج من الناس مثاليين اعني منساقين في ركاب الوهم . وليس في شيء من هذا ما ينمي في الاطفال شخصية البطل لان البطولة هي ايضا معرفة بالواقع وبالممكن . ينبغي للاطفال ان يعرفوا الشر ، وان الخير لا ينتصر بطبيعة الحال ،وان الابطال انفسهم كثيرا ما توجد فيهم العيوب . لكن في الوقت نفسه ينبغي للاطفال ان يتبينوا في مساق التصوير الادبي لماذا امكن الشر ان ينتصر اذا انتصر ، وينبغي لهم ان يعرفوا ان الخير لا ينتصر الا بمسعى في سبيله ، وان الابطال هم ايضا مناضلون ضد العيوب في انفسهم !

ايها الاخوان الزملاء .

تذكرون اننا ربطنا البطولة بالشعب ، بالامة ، بالمجتمع ، واننا رددنا البطولات الكبار الى دوافع تتعلق في احيان بمشاعر انسانية جد عادية وبسيطة ، وهذا كله يتجه بنا الى حقيقتين خطيرتين :

الحقيقة الاولى : ان الاناس العاديين من ابناء الامة ، ابناء الشعب ،ابناء المجتمع ، باستطاعتهم ان يكونوا ابطالا ، بل نزيدها فنقول ان هؤلاء الاناس العاديين هم الينبوع الاكبر للابطال في عصرنا ، عصر الجماهير ودورها الواعي في تخطيط المصير وبنائه ..

الحقيقة الثانية : ان الابطال يتنوعون والبطولة تتنوع بحسب حاجات الامة ، حاجات الشعب ، حاجات المجتمع ، ففي كل مجال من مجالات

حياة الامة ، حياة الشعب ،حياة المجتمع ، ما يتسع لتجلى البطولة وظهور الابطال على اروع الوجوه . شهدنا امس بطولة وابطالا في بور سعيد ،وفي ثورة تموز في بغداد ، وفي كفاح لبنان . ونشهد اليوم بطولة وابطالا في كفاح الجزائر المسلح وكفاح عمان واليمن ، وسنشهد بطولة وابطالا في بناء السد العالي وفي تصنيع الجمهورية العربية المتحدة ، وفي الوثب بالجمهورية العراقية الفتيه ، وفي تدعيم الجمهورية اللبنانية بدعائم اقوى اتجاها استقلاليا عربيا واقوى اتجاها ديموقراطيا .

وسنشهد هذه البطولة وهؤلاء الابطال في اناس عاديين : مواطنين بسطاء ـ عمال ومهندسين يبنون ، وفلاحين يزرعون وامهات وآباء يربون الاطفال ، ومعلمات ومعلمين يتجدون لخدمة النشء ، وكتاب وشعراء يضيئون ويذوبون كالشموع ، وممرضات واطباء يقفون انفسهم على خدمة المحتاج .

وعلى ادب الاطفال ان يصور هذه البطولات كلها وهؤلاء الابطال جميعا. يصورهم صورا صريحة وصورا رمزية ، ويوجه اطفالنا التوجيه البطولي الصالح .

على ادب الاطفال ان يبين ان البطولة يستمر فيضها ويتصل عطاؤها في محن الحياة القاسية وفي تجاربها الضخمة ، وفي ظروفها العادية ايضا ، لان البطولة ليست فورة ثم غورة . انها استمرار في جيلنا يوما بعد يوم ، ساعة بعد ساعة. واستمرار في الاجيال التي تاتي.

ولقد كنت اتمنى على الاستاذ ابو بكر ابرهيم ان يقول هذا كله بتركيز وتعميق ما اشك انه اقدر مني عليهما . لكنه آثر ـ ولا ادري لماذا ـ ان يكتفي ببحث مدرسي غلبت عليه صفة العرض . وفي احيان استطرد الى ما يعد غريبا في هذا الموضوع ، كالابيات التي رواها لشوقي:

في موكب الامس لما	سرنا وسار الكبار
طرحت مولاي ارضا	فهل بذلك عار
وهل اتيت عظيما ؟	فقال : لا يا حمار !

فاني حرت حيرة شديدة اين يكون موضع البطولة هنا ، حتى ظننت نفسي الحمار الثالث ! ثم حرت حيرة اشد في اي الحمارين هو البطل : الذي طرح سيده ارضا ام الذي وبخ زميله لخرقه اصول اللياقة ؟(1)

ولان الزميل المحاضر فصل بين النفس واوضاع المجتمع ، فانه تورط في احكام لا يمكننا ان نقره عليها . فالطفل في رايه ينطوي على غريزة السيطرة ، وفي رايه ان هذه الغريزة تاخذ في التحرك منذ سن الثامنة وهي تدفع بالطفل الى طلب الزعامة ، والى الرغبة في تكوين جماعة لمحاربة جماعة اخرى ، وربما انحرف الطفل الى تقليد الاقوياء من القتلة واللصوص الى « عبادة البطل » . وهنا نقول للزميل المحاضر : الامر في هذا كله بعيد عن ان يكون غريزة في نفس الطفل . ولكن مجتمعا تكون السيطرة فيه والزعامة والحرب سبل استغلال ووسائل اثراء خليق ان يوحي الى الطفل حب السيطرة والزعامة والحرب . ومثله مجتمع يشيع فيه الحرمان خليق ان يعلم اللصوصية ويدفع الى القتل . يضاف الى ذلك ما يفسد حتما هذا المجتمع من قصص وافلام تدور في عالم الشذاذ والمحتالين والمجرمين فتزيد الشر شرا .

وكما يثير دهشتنا ان الاستاذ المحاضر حين تعرض للاسلوب والقوالب الادبية التي تصح في ادب الاطفال اوشك ان لا يجد زادا يسيرا يزودنا به فالاسلوب في ادب الاطفال يجب ان يخلو من البيان المتكلف واللفظ المتعسف . وقوالب ادب الاطفال وانواعه لاتكادتعدو عنده قصصا بلسان الطير والحيوان شعرا او نثرا ، والواقع اننا كنا ننتظر كلاما كثيرا فيما يتعلق باسلوب الاطفال. وهنا يخطر لي ان انبه على ضرورة الانتفاع في ادب الاطفال بما تشترك فيه العامية والفصحى في اللفظ والصياغة ، لان الطفل العربي ينشا على العربية فهو لا يعرف القدر الذي شاركت فيه العامية الفصحى. فلنعتمد اذن ما وسعنا الاعتماد على هذا المشترك بين فصحى اللغة وعاميتها ، ولاسيما في اول عهد الطفل بالقراءة .. وعلى كل حال ، ان اختيار المفردات ، وصور الجمل الملائمة ، والتدرج في ذلك ، في خاص في الكتابة للاطفال .

اما فيما يتعلق بالقوالب والانواع فان الامر اوسع مما اكد عليه الزميل المحاضر . فانه سكت عن المسرحيات القصار والاناشيد ووصف الرحلات ، وكلها انواع ادبية يصح استغلالها في ادب الاطفال .

ومع ذلك فالنهاية التي وقف عندها الزميل المحاضر يمكن ان تعد خير خلاصة لبحث في مثل موضوعه الخطير ، ناشد فيها مؤلفي ادب الاطفال ان يلتمسوا بادبهم اقوم الطرق للاعداد والاصلاح حتى يعدوا ابطال المستقبل بما يقدمون من النماذج الرائعة للبطولة . فالامة العربية قد القت في ايدي هؤلاء المؤلفين باعز شيء لديها : بفلذ كبودها وجوهر وجودها وعنوان خلودها ، وبالجيل الذي اراده التاريخ ان يدق اخر المسامير في نعش الاستعمار ، وان يضحي اخر التضحيات الكبار ، ويقطف اينع الثمار ، بارك الله له فيها ، ثمار الحرية الكبرى والوحدة الشعبية الكبرى (1)

يبقى لي اقتراح : ان نعتني بعد اليوم بادب الاطفال عناية عملية ، فنوصي المؤسسات ، ولاسيما المدارس ، ان تدعو اليها الادباء ليقرأوا على الاطفال فيها ما قد اعدوه لهم من ادب بطولي ، او غير ذلك ، ليختبروا اثر هذا الادب فيهم ومقدارحظه من النجاح ، فما ينبغي لنا ان ننسى ان خير النقاد لادب الاطفال هم الاطفال انفسهم .. كما اقترح ان ينص في توصيات المؤتمر على جوائز خاصة لمن ينصرفون من الكتاب الى انشاء ادب بطولي سائغ للاطفال ، ولمن ينشر هذا الادب في كتب مشوقة باناقة طباعتها وحسن رسومها .. والسلام عليكم .

رئيف خوري

(1) وقعت هنا في بعض السهو ، فالحديث في الابيات لا يدور بين حمارين وانما يدور بين الحمار الذي طرح سيده ارضا وبين الثعلب . واحتج الاستاذ احمد ابوبكر ابراهيم بان الثعلب الذي صرح للحمار بحقيقة رايه فيه هو بطل حرية راي ، وهذا من الغرابة بمكان فالثعلب ليس سوى بلاطي Courtisan ينافق لاسياده ، ولا يريد ان يكتسب الحمار اخلاقا متمردة !!

(1) استغرب بعضهم هذا التعبير ، وليس هو بموضع استغراب . فقد تكون وحدة قومية ثم لا تكون وحدة شعبية ، كما هو الواقع في فرنسا اليوم . فالوحدة الشعبية شيء اعمق من الوحدة القومية . وعلى كل حال ان العرب اذا ما اختلفوا على وحدتهم من حيث الشكل والصورة فانهم لا يختلفون عليها ابدا من حيث المبدا وهذا ما ينبغي ان يظل واضحا فوق كل غبار قد يثور هنا او هناك ـ رئيف خوري